
الضاربون في الأرض
أديب إبراهيم الدباغ
دار النيل

الضاربون في الأرض

الضاربون في الأرض... في فجاج الأرض تلقاهم... إنْ أردتَ لقْياهم... هم فتية إيمان... إشعاعات هدى... على كواهلهم أثقال رسالة أشفقت من حملها جبال الأرض، وأطباق السماء... وحملها هؤلاء الفتية أعجوبة الزمان وأبطال الأنام إلى أقاصي الأرض وأدانيها... يمشون... والأرضَ يخرقون... ووراءهم يمشي التاريخ، ويتابع خطاهم، ويكتب آثارهم، ويترصد جلائل أعمالهم... بواطنهم مَوَّارة بآلام أمة... وأحزان قرون... ودموع أجيال... ومآسي أزمان... لكنهم غير مثبطين... ولا محبطين... ولا يائسين... الآمال من وجوههم طافحة... والبشريات على ألسنتهم منهالة... يعملون... يجدون... عرقًا يتصبّبون... لكنهم لا يشتكون... بالغربة يأنسون... وبكلمة الله التي يحملون، قلوبًا يفتحون... وأعلامًا للهدى يركزون... وراية محمد عليه السلام على قمم العالم يقيمون... لا ينكصون، وعن غاياتهم لا يرجعون..!


ISBN 978-975-315-481-9
www.daralnile.com


ARABIC / ARAPÇA
MEFKURE MUHACİRLERİ



الضاربون في الأرض



دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م

تصميم وغلاف: مراد عرباجي

رقم الإيداع: ISBN: 978-975-315-481-9

DAR AL-NILE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1
34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye
Tel: +90 216 5221144 Faks: +90 216 5221178

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون وفاكس: +٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١

المحمول: +٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨

www.daralnile.com

الضاربون في الأرض

أديب إبراهيم الدباغ


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الفصل الثاني:معارج القلب الإنساني

الفصل الثالث: الضاربون في الأرض

المقدّمة

الضاربون في الأرض... في فجاج الأرض تلقاهم... إنْ أردتَ لقْياهم... هم فتية إيمان... إشعاعات هدى... على كواهلهم أثقال رسالة أشفقت من حملها جبال الأرض، وأطباق السماء... وحملها هؤلاء الفتية أعجوبة الزمان وأبطال الأنام إلى أقاصي الأرض وأدانيها... يمشون... والأرضَ يخرقون... ووراءهم يمشي التاريخ، ويتابع خطاهم، ويكتب آثارهم، ويترصد جلائل أعمالهم... بواطنهم مَوَّارة بآلام أمة... وأحزان قرون... ودموع أجيال... ومآسي أزمان... لكنهم غير مثبطين... ولا محبطين... ولا يائسين... الآمال من وجوههم طافحة... والبشريات على ألسنتهم منهالة... يعملون... يجدون... عرقًا يتصبّبون... لكنهم لا يشتكون... بالغربة يأنسون... وبكلمة الله التي يحملون، قلوبًا يفتحون... وأعلامًا للهدى يركزون... وراية محمد عليه السلام على قمم العالم يقيمون... لا ينكصون، وعن غاياتهم لا يرجعون..!

* * *

هذا الكتاب يجمع بين دفتيه مقالات نُشِرَت من قبل على صفحات مجلة "حراء"، وقد رأت المجلة جمعها في هذا الكتاب لتكون جاهزة إذا أراد أيٌّ من القُرَّاء -ولأي سبب من الأسباب- الرجوع إليها أو الإلمام بها، أو ببعضها.

والكتاب برمته نَفَسٌ من أنفاس الأستاذ "فتح الله كولن" ولمعة من لمعات روحه، وقدحة من قدحات فكره.. فمقالات الكتاب انعكاسات سريعة لفكر الرجل، وإشارات إلى بعض جوانب هذا الفكر الوسيع، وأنا

على ثقة بأنّ القارئ الكريم سيجد في هذا الكتاب فكرًا جديدًا يطرق أبواب ذهنه بأصالته الدينية، وبحسّه الحضاري، ونازعه الإنساني، وإنّ ذائقته الفكرية والروحية وحتّى الفنّية والجمالية ستترشف من حياض هذا الكتاب ما يروي ويشفي ويثري ويغني...

أديب إبراهيم الدبّاغ

إسطنبول / ٢٠١٢

الفصل الأول

عودة الفاتح

الفاتح يعود من جديد

~١~

عُذتَ يا سيّدي عُذتَ،
أَعْلَمُ أَنَّكَ عُذتَ...
مَا مُتَّ قَطُّ وَمَا مُتْنَا،
نَحنُ أُمَّةُ الخلود،
فَرْضٌ علينا ألاَّ نموت...
قَدَرُنَا أَلاَّ نموت،
حتَّى لَوْ أَرَدْنا أَنْ نموت،
شيءٌ فينا يَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نموت،
حَتَّى لو جئنا القبورَ لكي نموت...
إِنَّهُ القرآن...
مَا مَاتَتْ أُمَّةُ القرآن،
ولن تموت..!

~٢~

لا بُدَّ أَنَّكَ عُذتَ... يقينًا أَنَّكَ قَدِمتَ... عَبَقُ ربيعكَ يضوع في ثنايا "إسطنبول"، وصهيل فرسك يهدرُ على أمواج الأثير... ها هو يَخُبُّ بكَ في جنبات إسطنبول... تجوب الآفاق وَتَمُرُّ في كلِّ سوقٍ، وشارعٍ وزقاق... لاهثًا لاهفًا تدلف إلى كُلِّ مكان... تفتّش عن بعض نفسك بين النفوس... عن بقايا ذاتك بين الذوات... عن شطر روحك بين الأرواح... وعن صِنو قلبك الباسل بين القلوب...

٣

وبعدَ لأْيٍ تلتقيه... في سنان قلم... وبوارق ذهن... وشرارات فكر... وعظمة روح... وعبقرية قلب...

إنَّهُ الابنُ والحفيد "فتح الله كولن"... رجل القلم الذي يَنُثُّ قَلَمُهُ روحًا قويًّا هو بعضٌ من قوى روحك... وينشر عزيمةً هي بعضٌ من خوارق عزائمك... في دمه اشتعال دمك... وفي روحه لهبٌ من لهيب روحك... وفي قلبه كُلُّ أشواق قلبك إلى الفتح العظيم في الأرض والنَّفْسِ والحياة!...

٤

هواتفُ الغيبِ هي التي سَاقَتْكَ إلى "القسطنطينية"... روح أبي أيوب الأنصاري من فوق أسوارها العتيقة هي التي كانت تناديك وتتعَجَّلُ قُدُومَكَ...

والهواتف نفسها هي التي تقود خُطى هذا الرجل اليوم... فيجوب آفاقَ النفوس... ويَخُبُّ قلمه العتيد بين القلوب والأرواح... إنَّهُ يَتَسَاقطُ رذاذًا بَرُودًا على ظمأ كُلِّ روح... وَيَتَنَزَّلُ أنداءً على جَدب كُلِّ قلب...

٥

الأنين المتكسر من أعماق أُمَّةٍ تنازع الموت صَكَّ أُذُنَ روحه، وانغرز كنَصْلِ خنجرٍ عميقًا في شغاف قلبه، فخرج على قومه من محراب روحه باندلاع النيران في جلجلة رعود فكره، مُنَاديًا: "إنَّ آخِرَ الدواء ليس بالكي بالنَّار، بل هو بالحُنُوِّ العظيم والرحمة السابغة، والمشاعر الثَّرَّة التي لو اعتصرت فوق الصخر الجلمود لبعثت فيه رجفة الانتفاض من العدم... ها أنذا أشتري بهذا العشق كُلَّ آلام أُمَّتِي، تاركًا نفسي بين مطرقة الزمان،

وسِنْدان الأعداء على أن ينهض روح الأمة المنسحق سالمًا معافًى...

٦

أَعْلَمُ أَنَّ ثَقافة "النّابِ والمِخْلَبِ" لها القِدْحُ الْمُعَلَّى في عالَم اليوم، غير أَنّي سأبرهن للدنيا بأننا نملك -مع أخلاقيات الرجولة- جُرْأَةً نستطيع أَنْ نَتَقَحّمَ بها كُلَّ وَيلاتِ المفزع المرعب من الموج المتلاطم ببسالة لا تعرف النكوص من أجل أنْ يبقى البحرُ رَهْوًا أمامَ إِبْحَارِ سفينتنا نحو مجاهيل المحيطات النائية المنيعة فوق كرة هذه الأرض.

٧

وعلى الرغم من أنَّ الشيخ فتح الله يبدو للوهلة الأولى وكأنه رجل قلب وروح فحسب، غير أن القليل من الإمعان في كتاباته ستتكشف عن رجل يمتلك حسًّا حضاريًّا، وعقلاً منظمًا، ينبئُ عن معالم مشروع حضاري يتبدى واضحا في تشكيلات فكره، من خلال كتاباته الكثيرة... إنّه بحقٍّ داعية انبعاث حضاري ينبثق من ذاتية الأمة المنطوية على بذرة هذا الانبعاث، إذا ما وجدت منْ يتعهدها ويَمُدُّها بأسباب النَّمَاء لتنشقَّ عن الإنسان الحضاري الموعود، إنه لا يكره شيئًا كراهيته لضحالة الفكر وتسطحه، ولم يكن يومًا ضِدَّ العقلانية الحضارية، ولكنه ضدَّ أن تبقى هذه العقلانية أسيرة عقلانيتها فلا تحاول الارتقاءَ فوقها لترى أبعادًا أخرى مديدة الأمداء حيث العقل الأبدي الذي كل عقل دونه إنما هو قبسة ضئيلة من قبسات نوره.

٨

والشيخ فتح الله هو الفاتح نفسه ولكنه بِإهابٍ جديد، إنه يحمل بين جنبيه بسالة قلبه، وقوة روحه، وصلابة إرادته، وجسارة فؤاده...

سيفه قلمه، ورمحه الثاقب ذهنه الخارق، والوجدان البشري هو ساحة فتوحاته.. إنه يكتب ليرسي قواعد التثقيف الذاتي للمسلم المعاصر، مع التنويه بخصائص الانبعاث الحضاري لهذه الأمة التي كادت تفقد جزءًا كبيرًا من هويتها القرآنية. إنه بلا شك داعية العودة إلى "الذات" ليس من أجل الانكفاء عليها، والغياب فيها، بل من أجل إنهاضها من حالة الركود المملّ الذي طال أمده.. إنه يجعل من قلمه مشرطًا ليجري عملية فصد للدم الفاسد الراكد في شرايين الأمة، لكي يتجدد دمها، وتعود إليها عافيتها، فتبدأ عملية التجديد والبناء الحضاري مرةً أخرى، وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

عودة الغريب

«بدأ الإسلام غريبًا

وسيعود غريبًا كما بدأ،

فطُوبَى للغُرباء..!»[1]

آتٍ أَنَا يا صُراخَ الإنسان المتوجع من أعماق هاوية الظلام؛ قادمٌ أَنا يا أَنَّاتِ الروح الإنساني المحترق بأَتون العذاب؛ مُقْبِلٌ أنا يا عويلَ النَّفسِ المصلوبة على أعمدة الأسى، والمعلقة على أعواد شجر هذا الخريف الحضاري الرهيب؛ عائدٌ أَنا يا نزيف الجرح المفتوح في ضمير الإنسان على أشواك الشك والحيرة والقلق؛ مُتَسَاكِب أَنَا -كأنداء الفجر- على صحارى النفوس، وظمأ الأرواح يا لهاث الإنسانية الراكضة وراء مفاوز السراب والضياع!

لقد استفزَّني صُرَاخُكُمْ -يا أبناء الأرض- واستثارَ هُتافكمُ الحار اللهيف مكامِنَ الشوق إليكم في مطاوي نفسي؛ وآلمني نضوبُ النُّورِ في أرواحكم، وجفافُ الينبوع في قلوبكم؛ وأحزنني ما اجتَاحَ نُفوسكم من نوازل، وما عصفَ في جَنَباتِها مِنْ عاصفاتٍ كاسحاتٍ اجتَثَّتْ بِقَسوَةٍ أَصالَة الإنسان فيكم، وَخَنَقَتْ بوحشية صوت الفطرة في أعماقكم، وَعَطَّلَتْ بِغَدرٍ مِشْكَاة الإيمان في قلوبكم... فَسَادَ الظلامُ، وانْسَرَبَ مَوْجُه الحالِكُ إلى أغوار النفوس؛ فإِذا الإنسان ضائعٌ في مجاهل نفسه، تَائِهٌ في صحَارى قلبه، ضَالٌّ في ليلِ روحه؛ يتعالى صوتُ حزنه، ويرتفع أنين

[1] مسلم، كتاب الإيمان ٢٠٨؛ الترمذي، كتاب الإيمان ٢٥-٥٣.

وجدانه، وتمتدُّ يَدُ يَأْسِهِ تقرعُ كل باب، وتَنْقُرُ كُلَّ نافذةٍ بِعَطَشٍ شديدٍ إلى قَطْرَةٍ من نورٍ، وغرفة من ينابيع الضياء.

فَهَا أَنَاذا -يا إنسانَ الضياع- تَهُزُّني آلامُكَ، وتشجيني أحزانك، ويحركُ صُرَاخُكَ الأليم عقْرَبَي ساعتي، ليقتربَ زمني ويُطِلَّ يومي. أنا إنسان القرآن والإيمان، أعود إليكم يا إخوةَ إنسانيتي بعد أنْ أَنْضَجَت المِحَنُ ذاتي، وأصلبتْ صروف الأيام عُودي، وتركتْ الأحداثُ الضخام في نفسي وروحي جراحاتٍ ظلَّتْ تروي جنبات أرضكم من دمي، وتسقي ثراكم بعصارات قلبي النَّازف... فيا روعة القلب المثخن بجروحه كيف يسمو على عمود من أَنوار دمائه ليزرع الفرحَ في كلِّ قلب؛ ويا عظمة الروح المُخَضَّبِ بالنجيع كيف يتعالى على سُلَّمٍ من وَهَجِ آلامِهِ ليمسحَ أوجاعَ الحزانَى، ويواسي آلام البائسين والحَيَارى.

خائفون أنتم مني يا أشقَّاءَ روحي... صادُّونَ أنتمْ عني يا إخوةَ فؤادي... ولكنَّ شوقي إليكم يتدفق هُتَافًا حَارًا: "أنا ينبوع النور يا كُلَّ المظلمين، أنا نهر الضياء يا كُلَّ الظامئين، أنا أَنداء الفجر يا زهرات البشرية المُصوِّحَة، أنا سماء الشروق يا ليل الإنسان المحتضر، أَنا أقباس الحقيقة النيِّرة يا ركام الأباطيل، أنا ربيع الإيمان يا أشتاء الحضارات، أنا أصداء القرآن يا أَصِمَّاء."

غريب أنا بينكم يا أبناء أُمِّي؛ إنسانٌ، يلفني الغموض في زعمكم، ويلفعني الضباب في ظَنِّكُم، أُسطورة كبرى تملأ خيالكم، وترهبُ أحلامكم. صوتي غريبٌ بينكم لأنه ليس كما تعوّدتم سماعه من أصوات، نبرة صوتي مبرأة من كل مَسْخٍ وزيف، حتى لكأَنَّ الحياة بكل أصالتها وعمقها وقداستها هي التي تهتف بلساني، وتتحدَّرُ من بين

شفتيَّ شلاّلَ نشيد علويّ يغسل القلوب من أدرانها، ويطهّر الأرواح من أوصابها. وفي صوتي إرعادٌ كإرعاد قلب السماء المشحون بالأضواء في طيّات الغيوم، وفيه إبراقٌ كألسنة الوميض المندلعة على حواشي الليل المحلَولك السواد.

إني أتلألأ -يا إخوتي- بنور الله، إني أحترق باللهب الأنوس الذي تُفَجِّرُهُ كُلُّ كلمة تتوهج على شغاف قلبي من كَلِمِ الله.. أَنَا عبد الله؛ تَوَقَّلْتُ قِمَمَ الحكمة بقلبي الجريح المتعب، وارتقيتُ بجناحيَّ الكسيرَين سلالم المعرفة، وتسلقتُ بدمي النازف خيوط الشمس المعلقة بقلب السماء، ودخلت كهف الضياء كهف الغربة الروحية والربيع الإلهي الضحيان، بحرقة قاتلة، وبظمأٍ مميت؛ لأنهلَ من منابع القرآن، وأترشّف من جداول ضيائه، وأَعُبّ من عيون أنواره، ثمَّ أنحدر بذاتٍ متوحّدةٍ لا تعرف الانقسام، وبنفسٍ يُظِلُّها سلامُ الله فلا تعرف الاحتراب، وبكيانٍ متساوق لا يعرف النشاز؛ لكي أضعَ يدي على نبض العالم المريض، وأسكبَ في قلبه بروق الوحي، وأصُبَّ في روحه المدنف إرعادَ القرآن؛ لينتفض العالم من غفلته، وتصحوَ البشريةُ من أوهامها على جلجلة صوتي الذي لن يصمت بعد اليوم؛ لأنَّ في صمته موتًا للحقيقة في قلبي، وموتًا لقلبي الذي تقتله الحقيقة المحبوسة بين جدرانه.

ومع هدأة الصفاء في صوتي، ومع موج النُّور المتساكب من أغوار كُلِّ كلمة يطلقها لساني، ومع الحرف الذي يتحدّر إلى سماء القلب المظلم ليتألق فيه كنجمة الصباح، مع صوت الصدق والأصالة والعمق، يرتفع صوت ألف "مسَيلمة" من أنبيائكم الكذَبة هاتفًا في جموعكم الحَيْرى: "طارِدوا الغريب.. أبعدوه.. ارجموا هذا الطارئ على عالمنا بالحجارة..

املأوا فمه ترابًا.. وحَصِّنوا أبواب قلوبكم دون كلامه.. وسُدُّوا منافذ نفوسكم بصفائح الظلام.. وامْلأوا مساربَ أرواحكم أمامه بمذاب الليل من أوهامكم.. واحذروا من أنْ تقع كرة أرضكم -مرة أخرى- بين ذراعيه، فيلهب أشواقها الخامدة إلى السماء من جديد..."

أعيروني أسماعكم أيها المتشوّقون لصواعق الحق المحرقة.. فأنا سماء الحق التي تمطر أرض أباطيلكم بجمراتها، وتلهب غابات أوهامكم بحرائق من شفق أصباحها.

انتبهوا..! فإنَّ الروح الذي يخاطب أرواحكم مرصود للهَيمَنة على الروح الإنساني العام، ليعيد إليه نضارته، ويَسْتَنبتَ فيه من جديد شجرة الشوق إلى الله، وليرتفع بهذا الروح إلى القِمَم الشاهقة من الوعي المتفتح على عوالم الإنسان العميقة الشاسعة أو على آفاق الفكر الكوني الملتهب بشمس محبّته لله ربِّ العالمين.

أنصِتوا جيدًا -يا بني أُمّي- فإنني أنشر على الأرض فجر حضارة جديدة تصحّح النفس الإنسانية؛ وتضيء ما أظلَم من معاني الحياة؛ وتصل بشريانٍ نورانيّ بين نبض العالم ونبضات الوحي؛ وتسكب في قلب الأرض المتحجر القاسي دفقًا رحيمًا من خفقان قلب سيدنا محمد ﷺ الأمين على أصالة الحياة وكرامة الإنسان.

رَجُلٌ لا يَنامُ

وكيف ينام ويخامر جفنيه الوَسَنُ مَن تتوالى طرقات المعذَّبين من أمّته على نافذة روحه...؟

وكَيفَ يغمضُ له جَفْنٌ مَنْ يُوقِرُ سَمْعَهُ أَنَاتُ التائهين في بيداء الضلال من أمته...؟

وكيف يأوي إلى الفراش ناعمَ البال وقريرَ العين مَنْ قلبه مُوجَعٌ بصرخات المسحوقين حتى العظم من أبناء جلدته...؟

وكيف يطيب له الرقاد مَنْ يرى إيمانَ أمّته في خطر، وإسلام شعبه تعمل فيه معاول الهدم والتخريب...؟

وكيف يُسيغُ حُلْوَ المنام مَنْ يرى أبناء وطنه وهم يَغَصُّونَ بمرارات الذُّل ويقتاتون على فُتَاتِ الغرباء...؟

وكيف لا يأسى ويجافيه النَّومُ، ويذوب قلبه كمدًا، مَنْ يرى ما بَنَتْهُ الأُمَّةُ من أمجاد بالجهد والعرق والدماء وهي تتهدَّم لَبِنَةً من بعد أخرى...؟

متى ينام... وكيف ينام... مَنْ يرى أمّةً قامت قيامتها قبل يوم القيامة، وانطفأ تاريخها قبل انْطفاء تاريخ العالم...؟

أَيَّةُ وِسَادَةٍ ولو كانت من صوان يمكن أن تحتمل ذهنًا تثقله الأفكار، وتتلاطم فيه مشاريع انبعاث أمّةٍ من موتها من جديد...؟

وكيف لا يتجافى جنباه عن المضاجع وفي روحه بَحْرٌ من دُرَرِ القرآن يمكن أنْ تغير العالم وتقلبه رأسًا على عقب لو قُدِّرَ لها مَنْ يفهمها...؟

هذا هو الشيخ "فتح الله كولن"... مُمَزِّقُ الظلام... ومُهْتِكُ أستار النَّوم... إنَّه قُوَّةُ إدراك... وصحوة إيمان... وطاقة حياة... وبطَل كفاح...

وعبقري فكر... ومُلْهِبُ أذهان... ومُفَجِّرُ قلوب... والباحث عن جوهر الإنسان في مناطق نائية من الروح... كلماته مذاب روح... وإشاراته نِثَارُ قلب... إنَّه النفير الصارخ الذي يوقظ موتى الإيمان...

ومَنْ يراهن -من كتَّاب العصر- على مناحي الضعف الإنساني ويَعُدُّهُ الأصلَ فيه، فإنه يراهن على قوة الإنسان وعظمته ومجده وشرفه... وَمنْ يُرِدْ منهم أن ينفي الحسَّ والشعور عن الكون، فإنَّ الكون عنده كيَانٌ حيٌّ يطفح بالعقل والحسِّ والشعور.

إنه يراهن على أصالة الطبائع البشرية التواقة إلى الصلاح، والمشتاقة إلى العلاء، حتى ليصعب على المرء أن يتوقع من أصحابها الضلال أو الزيغ مهما بلغت دواعيهما من القوة والإغراء.

إننا لو خلّينا سبيل هؤلاء الشباب الأطهار -كما يقول الشيخ- ودعوناهم يضربون في الأرض على هدىً حاملين إيمانهم في قلوبهم، لأتوا بالعجب العجاب، ولغدوا عنصر نور، ومصدر إشعاع، بعد أن كانوا مجردَ موضعٍ قابل للنور، ومُسْتَقْبِلٍ له.

وهم إذا حَلُّوا في مكان، وأَلقَوا عصا ترحالهم في موطن وضعوا قلوبهم فيه، وجعلوه ينبضُ بالودِّ والحنان، والمحبة والإخلاص... إنَّ سجيةً فيهم أنْ يُحِبُّوا وأَنْ يُحَبُّوا من دون سعي ولا تَصَنُّع... إنهم قادرون على أنْ يخلبوا ألبابَ مَنْ يلتقونهم بعفوية نقية ومن غير قصد، إذا ساروا سارت في ركابهم الحكمة، وسبقتهم العزيمة، وألهبَ حَمَاسَهُمُ الإيمانُ، وجال معهم حيث يجولون، وصال معهم حيث يصولون... يستقون من أزكى ينابيع عالمي الغيب والشهادة، فيمضون مع العقل إلى آخر مداه، إلاّ أنهم لا يقفون عنده، بل يتجاوزونه وَيَعلُونَ فوقه مع حنينهم الروحي

الذي لا يقف حتّى الأبدية والخلود.

إنّ الحنين إلى الخلود شيءٌ فطري في النفوس، والفطرة لا تكذب أبدًا... وقد حذَّر الشيخ فتح الله أولئك الذين يسمّون أنفسهم بـ "العقلانيين" ألاّ يخنقوا هذا الشعور في أنفسهم، فلا أحد يستطيع أنْ يخنق الفطرة، وأَنْ يسكت صوتها.

ثُمَّ مَنْ قال: إنَّ الإخلاص للعقل يعني إنكارًا لما وراء العقل، وإنَّ الإيمان بما وراء العقل يعني انتقاصًا للعقل، أو تقليلاً من شأنه.

فهذا الانقسام بين ما هو مشهود ومحسوس ومعقول، وما هو فوق هؤلاء جميعًا، لا يعرفه الإسلام. فالإسلام دعوة وحدة وتوحد لا إثْنينية فيه؛ فالعقل والقلب منْبعان عظيمان من منابع وجدان المسلم، يستقي منهما معًا إثراءً لوجدانه، وإغناءً لقواه الفكرية والروحية.

لا أحد ينكر أنَّ رياح الإسلام بدأت تهبُّ بقوة، وهي تعصف اليوم بكل ما يقف في طريقها من صنميات وعبوديات لغير الله تعالى، وهي على وشك أن ترتفع لتبلغ قِمَمَ الإنسان وتتوقل هضاب روحه، وإنَّ بروقًا إيمانية كثيرة تلتمع اليوم في الرؤوس وهي توشك أن تحدث فيها صعقة مدوية تحيل المرءَ إلى لهب فكري، يضيء أمداءً ظلامية غايةً في البعد.

وقلَم الشيخ ما فتئ يثير رياح التغيير هذه، وهي قادمة لا شك في قدومها مهما طال الزمن.

قالوا في الشيخ محمد فتح الله كولن

١

إذا نظر إليكَ سَطَعَتْ عيناهُ بوَميضِ فكره... وإذا جلستَ إليه أَحسَستَ بلهب روحه، وهو يكاد يُشعِلُ نارًا في كيانكَ كُلِّهِ... فؤاده نار تتلظى... وشوقه لَهَبٌ يَتَسَعَّر... صاحب حزن وأسى... نفسُهُ مُفْعَمَةٌ هياما... وشيءٌ في روحه كثير التَّوَهُّجِ والألَق... هائل العظمة... شامخ السُمُو... إذا انتَشَى بكى... وإذا تألَّمَ لأمَّتِهِ بلَّلَ الأرضَ دموعًا... له في ملكوت البشرية الروحي مكان الصدارة...

فهو ناسوتي الكيان... لاهوتي الجوانح... عقلي التَّنسكِ... استقرائي الفكر... واقعي الهوى... رحيقي اللسان والقلم...

إذا وقع نظره على بُؤرة من بُؤر "سَدُوم" زَفَرَ وَصعَّد آهةً حرَّى ولسان حاله يقول: انْجَحِري عنَّا أَيَتها البؤرة اللعينة... ليس لكِ هنا مكان... أجئتِ لتعيثي في روح الأمّة فسادًا... وتزيدي جروحها جروحًا...؟!

نوراني القلم... عرفاني العطاء... إلهي السريان... لؤلؤي الشفافية... يعلو آكامَ العقل العَصي... ويتوقل غوارب النفس الشُّموس... فيفعمها بالخِصبِ... ويترعها بالخضرة الماتعة...!

٢

طاقة ذكائه لا تنفد... له في كل يوم جديد ذكاءٌ جديد... ونظر في الأمور جديد... إلى الأمام ينطلق دومًا... وإلى الخلف لا ينظر... إنه ليس برقم في حسابات المجتمع يمكن شطبه إذا أراد مَن يريد... إنه طاقة روحية ذات امتدادات في أرواح الناس وعقولهم... قد تختفي كلماته...

وقد تُمحى كتاباته... لكنه يبقى موجودًا في العقول والأرواح، لا أحد يستطيع أن يورده موارد العدم... إن نشاطه الروحي يُشعر المجتمع بأنه لا زال حيًّا... إنه الروح الذي يبعث الحياة في صرعى الدنيوية المقيتة.

الفكر والحياة هما مثار اهتمام ذهنه وقلمه... الفكر وحده منفصلاً عن دورة الحياة لا يجدي كما يرى... ولا الحياة مجدية إذا كانت منفصلة عن دورة الفكر... بل لا بُدّ منهما معًا... نحياهما معًا... ونتعايش وإياهما معًا... وبنفاذ أحدهما بالآخر يخصبان، ويؤتيان بالثمار.

فالإنسان عنده ليس بأكثر من فكر وحياة... وكلما زاد تلاحمهما زادت إمكانية صنع الإنسان السوي الذي تسعى العقول الكبيرة إلى صنعه..!

إنه رجل تنفيذ لا مجرد رجل تفكير... يهوى الفعل لا القول... إنه -إن شئت- رجل عقل وفكر، وهو في الوقت نفسه رجل وجدان وقلب... يجمع بينهما فيما يقول أو يفعل...

٣

إنه وحتى الرمق الأخير من حياته سيبقى -كما قال- يدفع عن الإيمان ذلك الفكر القتّالَ الذي يقتل بلا دَمٍ، ويذبح بلا سكين... إنه الفكر الذي يجافي الله تعالى ويعاند وجوده...

فالأستاذ وهو في آلامه المستكبرة على الأحداث التي تناكفه موصول بحبال منسوجة من خيوط قلبه بجلال الله تعالى... يستمدُّ منه العون والقوة على جحودات الزمن، ونكران الأيام...!

إن دفاتر التاريخ ستكتب يومًا ما عن هذا الرجل أنه لم يَأْلُ جهدًا في الكشف للناس عن أعظم حقائق الوجود وأكبرها، ألا وهي حقيقة "واجب الوجود ﷻ"... إنه يملك قلمًا صبورًا لا يَمَلُّ... وذهنًا دؤوبًا لا

ينصب... إنه يجهد جهده وكأنّ الجهد شيءٌ معجون بدقّات قلبه ونبضات روحه، بل هو حياته الذي لا حياة له من دونه... فلأحزان قلبه أهمية مغيبة ذات رفعة ملائكية وهي التي تقود خطاه إلى أعظم أفكاره وأجلّ أفعاله محاولاً أن يجلي للأنظار المغزى الكمين، والهدف المقصود في الكون والوجود.

بعضهم قال: إنه شهيد على الأرض يحيا... في نيران المحن أُلقي حتى لكأنه بدمه يسعرها ويغذوها... يستهلك ذاته كُلّها في محبة الإنسان... ويعتصر قلبه حتى في أولئك الذين لا قلب لهم...!

ورآه آخرون كما يرون لأول مرة شيئًا غريبًا لغزيًّا بالغ الغرابة... يستعصي على الفهم والتصديق... وكذلك القبول...!

وآخرون قالوا: إنه دفق شعور فيّاض... ودّيٌّ حبيب متحبِّب... هين لين لكن في قوة... ودود لكن في حزم... متواضع لكن برفْعة... سهل ممتنع صعب المرتقى... لا تتقحمه العين... ولا يتوقح في حضرته النظر...!

وأيُّ عظيم من عظماء التاريخ لم يتناقض النّاس في النظر إليه...؟!

درويش في بلاد الأناضول

١

سالك طريق... مُستَهَامٌ لا يفيق... حامل هوًى... مُتعَبُ خطوٍ... شاردُ لُبٍّ... أخو سفرٍ... أشعثُ أَغبَرُ... ما استظلَّ بظلٍّ... ولا بأرضٍ أقام... ولا بمنزلٍ نزل... إذا حَلَّ ارتحل... فلا أراحَ ولا استراح... على نفسه علا... وسلالـمَ الروح ارتقى... وبِسَنَا أشواقه اهتدى... وبساطَ الأكوان طوى... وفضاءَ الكشف والعيان اعتلى...!

فادْعُ -يا "درويشُ"- هِمَّتكَ... فالطريق لا زالت طويلة... مُنداحَةَ الآفاق... مَهُولَةَ الأمداء... فامتطِ متن عزيمتك... واركبْ جوادَ إرادتك... وإيّاك أنْ تَنْصَب.. وخباءَك وسْطَ الطريق تَنْصِب... وعن عصا ترحالك تتخلّى... فذاك موتُك... فَذاك موتُك...!

٢

يا "درويش"... يا قلبًا ذَابَ حتّى عَذُبَ... يا فؤادًا هَامَ وعشق... يا حزنًا تعالى وتزكّى... والعالـمَ احتوى... والإنسان بكَى... وعلى ضَيَاعِهِ نَاحَ وانتحب...!

يا "درويش"..! يا حامل حيرة الإنسان من قديم الزمان... مَنْ أنا...؟ وأينَ أنا...؟ ولماذا أنا...؟ وتظلُّ وراء الجواب تجري... قطعتَ الفيافي والقفار... وجُبْتَ البحار... وعلوتَ الجبال... وسألتَ الشجَرَ والزهر... والنجم والقمر... وغِبْتَ في غَابِ الأقلام... وَخُضْتَ في مداد العقول والأذهان... فَزِدْتَ ضياعًا... وفِضْتَ حيرةً... فلا أنتَ عرفتَ.. ولا أنتَ

وصَلْتَ...! ولكنَّ صوتًا من ذاتِكَ يأتي: "اِشْحذْ ذِهْنَكَ تَسمَعِ الجواب... وتدركْ مَبْعَثَ السؤال... لك وحدك أستطيع أَنْ أُفضي بجميع مكنونات صدري... لكَ وحدك أفتحُ أبوابَ كنوزي... وبين يديك وحدك، أنثر دُرَرَ علومي ومعارفي...!

~٣~

سمعتُ مَرَّةً "درويش الأناضول" يحدثُ فيقول:

"مِن الطريق تعلّمتُ كيفَ أعيش الخطر... وأمشي على حاجز الموت... آنسًا بهدير العواصف... ومستضيئًا ببوارق الرعود... نابذًا عيش الهامدين... رافضًا سلامة العاجزين... أولئك العَوَّامين فوق الخواء... الناكصين عن مطاولة الأعماق... المشفقين من السباحة ضِدَّ التيار...!

ومِن الطريق تعلمتُ كيف أنقذ روحي من الهاوية... وكيف أخرق بها السبْع الطباق... وكيف أرتقى الأسباب... وأعلو على الأسَى... وأستعذب الألم... لأحظى بالوصل وأنال المراد...!

ومِن الطريق تعلمتُ كيف أخاف نفسي... وَأَفْرَقُ من طغيان وجودي... وأحذر من ربوبية أَنايَ... وأتجنّب خيالات وهْمي... وشطحات فكري... ومزاعم هواي... فلا أرى في الكون غيري... ولا في العالم سواي... وكأني أنا الفِكْرُ والمُفكِّرُ والمُفَكَّرُ به... ولا شيءَ غير ذلك..! وهذه هي الطامة الكبرى!

وعلّمَتْني الطريق إذا كبوتُ نهضتُ... وإذا تأخَّرتُ تقدَّمتُ... وإذا فَتَرتُ هجتُ... وإذا خمدَ لهيبُ روحي أَوقدتُ... وإذا نِئْتُ بقيدي كسرتُ... وإذا احتجبتُ خرقْتُ... وجهلي قهرتُ... وسفينتي أطلقتُ...

ونفسي في هادر الروح قذفتُ... وربّي ناديتُ... أيّدني -يا ربُّ- وثبّتني... وعلى معرفتك أعنّي... وعنك لا تبعدني... وبالقرب منك أبقني... وزدني صحوًا ووعيًا... ومسكنةً وفقرًا... فكيف تبارحني الحياة وأنتَ حياتي... وكيف يخونني حزمي وأنتَ حزمي وقوتي...؟!

٤

ألفَ مرَّة... في اليوم والليلة... أموتُ في العشق وأحيَا... أُوجَدُ وأفنَى... يا رماد قلبي المحترق... اِجمَعْ ذَرَّاتِك... وقُمْ من جديد... فؤادًا فتيًّا... عاشقًا أبديًّا... واقطع مسافات الوجود... وَاضْوِهِ تحت جناحك... وعُدْ إلى نفسك، منقّبًا عن جواهر علومك... وارتفع ثُمَّ ارتفع... لتصبح نزيل علوم السماء... وأسرار الأرض...!"

سريتَ حيثُ سَرَتْ بك دروب "الأناضول"... طرقتَ أبواب الجامعات غير هياب... واعتليتَ أسوار المدارس والمعاهد... وجُبْتَ الأسواق... واقتحمتَ المقاهي والمطاعم والمعامل... فأثرتَ استغرابًا واستنكارًا... وألْفُ سؤال وسؤال دار في الأذهان... ما رأينا في الدراويش درويشًا كهذا... ماذا يفعل عندنا... ولماذا يخترق صفوفنا.. ويقتحم علينا مجتمعاتنا...؟ يا ويحه... يا ويحه...!

٥

ويأتي من بعيد صوت... اِنْتَبِهْ يا "درويش"!... فالليل سَاجٍ... والنّجمُ في الأُفُقِ باكٍ... الْبَسْ جَناحَ الليل... وبجلْبابه تَجلْبب... ثُمَّ قُمْ تضَرَّعْ... وألطافَ اللهِ تَشَرَّبْ... فالْمَلأُ الفرعونيُّ بكَ يأتمرون... ليُبْعدوك، أو ينفوك... وخارجَ التُّخُوم يقذفون..!

تجرَّعْ يا "درويش" سُمُوَّ أَحزانِك... واعْتَنِقْ طُهْرَ آلامِك... واستمطِرْ بَرَكاتِ غُربتك... فقد انكسرتْ أَقْفال العقول... وتحطَّمَتْ أَغْلالُ النفوس... وانكشفَ المستور... وسطع النور... وانفجر الينبوع... وأشرق سَنَاءُ "الكتاب المهجور"[٢]... من "القلب المبعوث[٣] رحمةً للعالمين"...

[٢] المقصود: القرآن الكريم.

[٣] المقصود: الرسول ﷺ.

الصوت والصدى

١

في "تركيا" اليوم صوتٌ متفرد بين الأصوات، ليس كمثله صوت؛ قوي من غير شِدّة، نافذٌ من غير حِدَّة، عالٍ من غير صخَب، هامِسٌ من غير ضعف. في كلماته جمال وجلال، وفي نبراته لهفةٌ واشتياق، وفي ثناياه ذهن يتوقد ذكاءً، وفكر يتلهّب سناءً.

إنه ذلك الصوت المضيء الآتي من قبل الظلمة اليائسة، والطّالعُ من سُويداء العَتَمات الهالكات. أفكاره مضيئة وإنْ لم تَمْسَسْهَا نار، وسانحاته مغدقات بالمعاني المبتكرات. إنه يدعونا لننفض عن أنفسنا سواد الليالي الحالكات، ونغسل عن أرواحنا وهَن السنين اليائسات، ويهتف بنا لنؤمن بأننا طاقة من طاقات القدر، وجند من جنده، ابتعثنا لتغيير الإنسان وتشكيله من جديد.

٢

لقد نفخ "فتح الله كولن" في صور القيام، فقامت الشبيبة من غفلات نومها، وفاضتْ وديان قلوبها بصدى النفير، ولم يعد أحد منهم يحس بالرغبة في العودة إلى النوم، وقيل "هلمّوا يا شباب..! هنا يُصنع الإنسان من جديد، وتتخلّق طاقاته، وتبعث آماله...".

لقد أثبت "كولن" بالملموس ومن خلال الأعمال التي تكاد تبلغ حَدّ الإعجاز عند هؤلاء الفتيان، أنّ العمل الإبداعي لا يعرف هذا الفاصل الموهوم بين المادة والروح؛ فالمادة عنده خامة روحانية يشكلها الروحانيون كما يشاؤون، وأما الروح فهي القوة التي تعطي مَوات المادة

التشكّل والحياة والإعجاز.

لقد بقي فتْياننا جاثين على عتَبات الأغراب ضعافا هزالا... وعندما سمعوا النداء، وبلَغهم الهتاف، قاموا أبطالا خارقين يسابقون الأيام، ويتقحمون الأزمان دون خوف أو وَجَل، ولم تعد حياتهم سؤالا مؤلما لا يجدون جوابا عنه، بل وجدوا الجواب، ورفعوا النقاب، ومضوا مع طاقاتهم الدافعة يشقُّون الطريق، ويقطعون المسافات ليرمموا المتصدّعَ ويقيموا المتهدّم.

٣

لقد وجد هؤلاء الفتْية الظامئون في ينابيع الإدراك التي فجّرها "كولن" في نفوسهم ما يروي ظمأ أرواحهم، ويسقي جفاف عقولهم، بعد عقود من السنين كانت فيها أرضهم تعاني أوجاع مخاضات عسيرة، ثم لا تلد في كل مرة إلاّ مسوخا فكرية غير قادرة على إيقاف نزيفهم الروحي. فمضى "كولن" يمسح جراحاتهم، ثم يشحذ قواهم الفكرية والروحية، ويستنفرهم للنزول إلى ميدان الفكر متيني البنْيان لا يُخرَقون، ومنارات هدى لا يُطَالون، وذوي ثقل في موازين الرجال لا يُجارَون.

وقد أتْقن "كولن" فنّ خطاب الروح الإنساني وراهن عليه، وظلّتْ آماله معقودة على صحْوته مهما طال زمن غفلته؛ فنجاح الدعوات مناط باستكشاف أسراره، وعلى قدر معرفتنا به يكون نجاحنا في التعامل معه.

٤

إن أصداء أفكاره في عقول الآلاف من الفتيان ردّ حاسم على أولئك الذين كانوا يرون أنّ مجتمعاتنا الشبابية قد تفسّخت ودبّ فيها الفساد، ولم يعد ينفع معها لا الأدواء ولا الدعوات. وقد خلُصَ الأستاذ من خلال

تجاربه الدعوية إلى أنّ افتقار هؤلاء الفتيان إلى العاطفة الصادقة التي تتفهم أوجاعهم ومشاكلهم وما يعانونه من إحباطات، هو الذي يحول دون إصغائهم لمخاطبيهم مهما أوتوا من بيان وقوّة إقناع. وقد دفعه ذلك إلى الإنصات إليهم، ومشاركتهم آلامهم وآمالهم، والانكباب على دراسة مشاكلهم. فلمّا أحسّوا منه صدق التّوجه إليهم، آثروه بالإصغاء، واختاروه معلّما ومرشدا.

٥

لقد أطلق "الأستاذ" الشبابَ من حبوسهم النفسية والفكرية، وشرّع لهم سبل تصريف طاقاتهم المتفجرة في البناء والتعمير، وتشييد سماوات فكرية وروحية يتّخذونها سقوفا يستظلون بها، ويسطعون نجوما متلألئة في آفاقها، ويحاورون منها الزمن، ويصارعون أباطيله بالكلمة المضيئة، والفكرة المستنيرة، من غير أن يحتاجوا إلى فتيل عضل أو بسطة جسم.

لقد عرفوا الحقيقة وأمسكوا بها وعاشوا لها، ومضوا يبشرون بها مستلهمين روحها العظيم، وذاكرتها الماورائية الخالدة. ولم يَعُد أحد من هؤلاء الشباب يرغب بالعودة كرّة أخرى إلى حبوسه الأولى، حتى إنّ فكرة العودة لأيّ منهم تبدو من المستحيلات، فيستطيع أحدنا أن يُسْلِمَ قياده إلى واحد منهم وهو آمنٌ مطمئنّ.

إنهم تعلّموا من "الأستاذ" كيف يخلعون عن أنفسهم بأنفسهم نير أنفسهم، فإذا بهم يتسابقون إلى المعالي وكأن في أرجلهم أجنحة صقورية قوية يطيرون بها طيرانا، وفي دمائهم نشوة مغتبطة بالحياة. وإن بساطا جذلا يمضي معهم حيث يمضون، وينشرونه حيث ينتشرون، ولغبطة الحياة بهم فإنها منحَتهم مفتاح قلبها ليلجوا إليها، ويفهموا عنها الومضات

والإيماءات والآيات الدالات على خالق الحياة ﷻ.

٦

إن أصداء الأفكار العميقة والواسعة قد تكون أقوى أثرا وأعظم نفاذا في النفوس من صوت الأفكار نفسها... فكل صوت وصداه يُسجّل على صفحات الهواء في الفضاء العريض. حتى إن الجبال الصمّاء نفسها كانت تهتزّ طربا متجاوبةً مع أصداء تضرعات داود عليه السلام كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾(سبأ:١٠)، وكأنها تريد أن تظهر مبلغ حدَبِها على أصداء صوت داود عليه السلام الشجي، وأن هذه الأصداء ستكون في رعايتها وكنفها حتى تلقى الله تعالى بها يوم القيامة.

وإننا لنعجب كيف استطاع هؤلاء الفتية أن يصونوا قلوبهم من التلوث بلوثات العصر، ويحتفظوا بها طاهرة نقية وكأنها قلوب ملائكية لا تقرب الدنس ولا يقرب الدنس منها. وإننا لنقرأ ذلك الطهر في وجوههم الصريحة المشرقة، وابتساماتهم العامرة بالإيمان. هذه الابتسامات التي فيها الشيء الكثير من براءة الطفولة وشفافية الإخلاص.

إنهم مخلصون، ولا يستطيعون أن يكونوا غير مخلصين؛ لأنهم يدركون أن هذا الإخلاص هو من لوازم الإيمان الذي لا يصحّ إيمان امرئ منهم من دونه.

ومع هذه اللطافة التي تكاد تبلغ حد الرقّة، فإنهم ينطوون على قوة روحية خزينة في نفوسهم، يبدو بعضها ويختفي معظمها. حتى إذا جدّ الجِدّ وناداهم الواجب، تواثبوا إليه وتقحموه وتنافسوه وتزاحموه حتى ينجزوه، فإذا أنجزوه اختفوا ونسب كلّ واحد منهم فضل ذلك الإنجاز لأخيه، ثم توارى عن الأنظار فلا يكاد يعرف له مكان في هذا الواجب

المنجز، ولم تعد تعرف أيهم المتقدم منهم والمتأخر. فيصدق عليهم ما كان يصدق على الرعيل الأول من المسلمين: "يقلّون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع"[1].

٧

وصدى الصوت الذي كان مجرّد موجات يحملها الهواء إلى الآذان، فإنها سرعان ما تتشكل عقلا بشريا يمكن أن نقرأه ونحاوره ونأخذ عنه أو نردّ عليه. فإذا كان منبع هذا الصدى فكرا جوهريا أصيلا استطاع أن يحرك الوجدان على بعد آلاف الأميال، لأنه ذاتي المصدر، نقي المعدن، غير مشوب بما في واقع الحياة من شوائب طامسة للأصالة والذاتية. وبذلك وحده يغنى الفكر ويخصب الروح ويرهف الحِسُّ والشعور، ويصبح المؤمن مؤهلا لاستقبال المدركات الروحية والعقلية العالية. وهذا هو ما يصبو إليه صاحب كل صوت فكري بين الأصوات...!

[1] كانَ النبي ﷺ إذا أشْـرَفَ على بني عَبْدِ الأَشْهَل قال: «والله ما علمتُ، إنّكم لتَكثرون عند الفَزَع وتَقِلُّـون عند الطمع»(الفائق في غريب الحديث والأثـر)؛ وأنه ﷺ قال للأنْصار: «إنَّكم لتَكْثُرون عندَ الفَزَع وتَقِلُّون عند الطَّمَع» (النهاية في غريب الأثر).

فتح الله كولن وشتاؤنا الحضاري

١

نجتاز -نحن المسلمين- اليوم، أصعبَ أيام شتائنا الحضاري المجدب، فلا زلنا نعاني من صقيع فكري، وخواء روحي، وعُرْيٍ ثقافي فاضح، حتّى غدونا طلاّب أفكار، ومستعيري ثقافات، بعد أن كُنّا -لقُرون عديدة- صُنّاع أفكار، ومنشئي ثقافات، نجود بها على فقراء الفكر حيثما كانوا من هذا العالم الفسيح.

وعلى الرغم من صقيع شتائنا الحضاري، غير أنّنا لا زلنا نملك حِسًّا نقديًا يحفّزنا لكي نرفض بشدة ما يُقَدّم إلينا من غطاء فكري ظاهر الدفء، يُرَادُ منه أن يشعرنا بامتلاء فكري كاذب، مِمّا يشيع فينا المزيد من الكسل والاسترخاء والجمود.

وامتلاء فكري كاذب من هذا النوع يَضُرُّ أكثر مما ينفع، لأنه فكر تسكيني وتخديري، يجعلنا نشعر بأنّنا على أحسن ما يرام من الصحة العقلية والروحية بينما تبقى العلل تتآكلنا من الداخل دون أن نفطن إليها، فمن ألعن المفكرين مخادعة هو مَن يهدهدنا بأفكاره لنستغرق في النوم ونوغل في السبات ساكنين مطمئنين، بينما أخطار الأفكار المناوئة تجتاحنا من كل جانب.

فالمفكر الذي نحتاجه في هذه الحقبة البائسة من حياتنا ليس مَن يُربِّتُ على عقولنا لتزداد هجوعًا، بل مَن يقلق نومنا بوخزات قلمه، ويوجعنا بقوارص فكره، ويمسح عن أبصارنا النعاس والكسل، ويلقي على عقولنا نارًا لا ماءً، ويسقي أرواحنا لهبًا لا بردًا، أفكاره عواصف داوية في الرأس،

إذا هزّ قلمه أرعدَ وأبرق، وأيقظ النائم، وحرّك الساكن، وأقلق المطمئن، وأنهض الروح الهاجع، وبعث الرواء في الإيمان الذاوي، والحياة في العقل الميت.

وأستطيع القول: إنّ أكثر ملامح هذا الفكر الموصوف آنفًا يمكن تلمسها بين ثنايا مؤلفات الشيخ "فتح الله كولن"... فمؤلفاته ليست بالنمطية ولا بالتقليدية، بل هي استثناء فكري متفرد الخصائص، ومن أهم خصائصه أنه ليس بفكر "صالوني استرضائي" يقرأه المترفون في جلسات استرخائية على أرائكهم الوثيرة وهم يحتسون الشاي، بل هو فكر يقلب موازين الأفكار، ويشعل ثورة في الأذهان، ويطيِّر من عيني قارئه النوم، ويحمله على البقاء يقظًا متحفزًا إزاء التيارات الفكرية التي تجتاح العالم، وتنهضه لكي يعلم ويعمل، ويبني نفسه، ويُقَوِّم فكره... وهو فكر محتشم يفرض احترامه على العقول، غير أنه مترع بالمشاعر، مفعم بمحبة الإنسان، يشيع في القلب هزة مؤلمة، ولكنها ملذة في وقت واحد.

وما مِن أحد يُتاحُ له النظر في إرث هذا الرجل الفكري إلاّ ويجد نفسه فجأةً على مشارف أعاصير فكرية يتفطر عنها قلبه، وينشق عنها رأسه... إنه ليس من روّاد الأفكار الرقيقة الناعمة التي يتمخض عنها رحم فكري مؤنث، ولا مِن أصحاب الريح الرخاء التي تأتي بالهدوء والسكينة، بل هو من عشّاق العاصف الفكري الذي يعصف بالعقول الرخوة. والأرواح الهشّة، ليس من أجل الإجهاز عليها، بل من أجل أن تتعلم منه القوة والعزيمة، فتستأنف النهوض، وتواصل المسير.

وهو -أي "فتح الله كولن"- يجعل المسلم يفقد إحساسه بالرهبة وهو يلج هياكل الرواد الأوائل من مفكّري الغرب، الذين بنوا بأفكارهم قوائم

حضارة اليوم... فهو -أي المسلم- عنده في دينه من مستلزمات مجاراتهم وربما التفوق عليهم من الطاقات الانبعاثية ما يمنحه قدرة على البناء كما بنوا، وكلّ الذي يحتاجه المسلمون -في رأي "كُولَن"- لكي يبنوا حضارتهم، هو استئناف تصعيدهم الروحي والعقلي حتى يبلغ درجة التوتر الدائم، وأن يوقظوا في أنفسهم صحوة ذهنية تغيب الصحوات كلها وهي لا تغيب، ويبتعثوا هِمَّةً قعساء يلين الحديد وهي لا تلين... وهذه كلها مِمّا تستنهضنا إليها كتابات "فتح الله كولن".

ويرى "كولن" أنّ الوحي مصدر إلهام المسلمين، غير أنّ بركة الوحي تنقطع عندما ينقطع المسلمون عن التبليغ عنه، والدعوة إليه، و"متى ما ينقطع مصدر الإلهام في التفكير والتفكر، يبدأ التراجع والتقهقر حتى في العلوم المادية التكنولوجية".

ويمضي فيقول: "وقد غدا قدرًا مقدورًا لا يتبدل للمسلمين المحرومين من بركة الوحي احْتياجهم إلى غيرهم في كلّ الميادين والساحات، حتى غدوا شحاذين سَأَلة على أبواب الآخرين، يرقبون ما في أيديهم... وفي الحقيقة إنّ بداية التقهقر والانحطاط تتزامن مع انهيارنا الداخلي"[٥].

٢

لقد حاول "كولن" في كتاباته المؤالفة بين قوى الدين من جانب، وقوى الطبيعة والكون من جانب آخر، ونجح في ذلك أيّما نجاح، واستطاع أن يثير اهتمام قرّائه بهذه المؤالفة حتى ألفوها وأصبحتْ من بديهيات التفكير عندهم؛ فغدا الوجود لديهم إيجابًا عريضًا يستبعد النفي، ويقصي النقائض. فهو يوحِّد ولا يشتِّت، ويجمع ولا يفرق، فإذا الكثرة في الواحد،

[٥] انظر: طرق الإرشـاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ترجمة: إحسـان قاسم الصالحي ص:٤٨.

والواحد في الكثرة، والفناء في الوجود، والوجود في الفناء، والحي ميت، والميت حي، وكلٌّ في فلَك القدرة يسبحون.

إنّ مؤلفات "كولن" تبلغ من القوة حدّ النفاذ إلى أمداء أجيال قادمة، وليس على مدى جيل واحد، لأنها تملك من المفاتيح ما يعينها على فتح أية مغاليق دينية اليوم أو غدًا، وتملك من الوصفات ما يعين الأرواح المشلولة على النهوض، والنفوس الميتة على القيام.

لقد صَبَّ "كولن" كُلَّ ما في نفسه الكبيرة مِن قوى روحية وفكرية في مفاصل كتاباته، فسرْعان ما تمتزج بأجزاء نفس قارئه، وتجري مع روحه ودمه، فتغلبه على نفسه، وتظاهره على ذهنه... ففكره قادر على ابتعاث الأفكار في الأذهان، وتحريك الأفهام، وله من السَّعَةِ والمرُونة ما يجعله منفتحًا على كلّ ما تأتي به التجربة الحضارية من نجاحات لا تعارُض بينها وبين روح الفكر الإسلامي... فالمسلم الحي المشبع بروح الإسلام، كما أنه ليس بامكانه أن يعاند القوى الكونية المهيمنة على كل شيء، كذلك ليس من شأنه أن يدير ظهره لإنجاز حضاري مجرَّب أجمع على صحته جملة من رواد الفكر، وإلاّ عُدّ فاقد الأهلية العقلية.

٣

إنّ مَن يقرأ "كولن" ينتابه شعور بأنه كان ميتًا منذ زمن بعيد، وأنه إنما بُعث من جديد بعد هذه القراءة، وأنّ شعوره بالانهزام العقلي يكاد ينتهي... فأصعب ما كان يمر به المسلم إحساسه بأنه مريض في النفس والعقل في عالم يبدو وكأنه يتمتع بغاية صحته العقلية والروحية، فهذه الشكوكية عندما تلازم المسلم، تتحول فيه إلى هاجس يلازمه، ثم في آخر الشوط يدمره. وهذه الشكوكية المدمّرة هي التي حاولت الأقلام

في الداخل والخارج أن تحشرها في أذهاننا خلال عقود من السنين... وقد حاول "كولن" أن يعين المسلم لكي يتخلّى عن موروثاته الشكوكية والانهزامية، ويأتي خاليًا منها ليبدأ حياة إيمانية جديدة.

٤

وظلّ "كولن" يوحي إلى قرّائه الاعتقاد بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك، وأنه من الممكن فعله إذا صحّت العزائم وصدقتْ النيّات، وقد بلغ ذلك الاعتقاد عنده درجة اليقين الذي لا يزعزعه شيء.

غير أن هذا العالَم الإيماني الجديد الذي يبشّر به "كولن"، قد يبعث على شيء من الخوف عند الراغبين في دخوله لأوّل وهلة، لأنه يكلف صاحبه جهدًا تصعيديًّا يعلو به من بين أشلاء هبوطه الذهني والروحي، ويحمّله مسؤولية القبض بيدٍ من حديد على فكرة تحرير نفسه والعلو بها من كونها نفسًا معطّلةً غير فاعلة، إلى نفس فاعلة قادرة على الإتيان بجلائل الأعمال.

فالإنسان -عند "كولن"- إرادة فاعلة، وإن كانت تابعة للفكر عادة غير أنها قد تسبق الفكر في أحيان كثيرة، كما أنّ الإنسان ليس شيئًا ثابتًا لا يتغير، بل هو "كيان" قابل للتغيير والانتقال من حال إلى حال... ولئن كان طموح المسلم اليوم متواضعًا إلى درجة الانكفاء على النفس، غير أنه من الممكن أن يأتي ذلك اليوم الذي يستطيع فيه دخول العالم بثقة، والتعامل معه كواحد من بناة الحضارة والمساهمين في رفدها وتجديدها.

محمد فتح الله كولن... هذا الحضاري الكبير

١-قارئ فكر

منذ قدومي إلى "إسطنبول" قبل سنوات وأنا أقرأ ما تُرجم إلى "العربية" من كتب الأستاذ "فتح الله كولن"، وأصغي بمزيد من الانتباه إلى تلامذته ورواده وخلصائه، وهم يستذكرون فيما بينهم ألمع أقواله وأفكاره، ويستشهدون بالكثير من أحداث سيرته فيما بينهم. فشغفهم به، وتعلُّقهم بفكره، يكاد يجاوز العادي والمألوف.

فخطبه ومحاضراته المسموعة منه شفاهًا أو المسجّلة على أشرطة "الكاسيت" تشكل مصدرًا من مصادر المعرفة الإيمانية عندهم، ونبعًا ثرًّا دائم الدفق والعطاء، يروون منه ظمأ أرواحهم وأذهانهم.

ولا أزعم -وأنا الغريب وطنًا ولغةً- أني قد أحطتُ بفكر الرجل الإحاطة المطلوبة، أو فهمتُ عنه الفهم الذي يغريني بالقول عنه دون التوجس من الإفراط هنا أو التفريط هناك، ومع ذلك أجد في نفسي دافعًا يدفعني لكي أحاول جهدي أن أرسم بعض ملامح فكره مهْما بدت هذه الملامح قاصرة أو دون الغاية المرجوة.

٢-حضارة مهجورة

وإن أنا أردتُ أن أصفه بكلمات قليلة أحرص أن تكون صادقة ومعبرة أقول: إن هذا الرجل إنما هو لسان حضارة مهجورة ومغيبة تبين عن نفسها بواسطة قلمه، وإن فكر هذه الحضارة، وعقلها الباطن، وعالم وجدانها، وزمانها المفجع والموجع، كلُّ هذه الصور يمكن مشاهدتها منعكسة في

كتاباته ومقالاته وخطبه ومحاضراته، وهو يرى أن ما بين الجوهر الإنساني النقي وجوهر هذه الحضارة ارتباطًا حميميًّا ومصيريًّا، بحيث إذا مات أحدهما مات الآخر، فهما يحييان معًا ويموتان معًا.

٣-آلام العبقرية

و"فتح الله كولن" عبقرية غلاّبة لا شك في ذلك، ولكنها عبقرية حزينة بعض الشيء غير أن حزنها عذْبٌ وبنَّاء ومعطاء؛ فأي يقظة ذهنية إذا ما اتّسعت وأخذت أعظم مدياتها صاحبتها آلام روحية وجسدية عانى منها "فتح الله كولن" السنين الطوال. ومع كل هذه الآلام فإن تفكيره في ارتفاع دائم، وشعوره بالقوة والحيوية لا يوصف، ومغالبته لأوجاعه وآلامه أمر يكاد لا يُصَدّق... فحيويته العظيمة ناجمة من غبطته بإنجازاته في الفكر والحياة، وشعوره بأنه يستنهض حضارة من تحت ركامات القرون، وأنه يبعثها بقيمها الروحية الجديدة على ما هو سائد في هذا العصر من قيم.

لقد كان من همِّ أرباب الفكر والقلم بالأمس واليوم تشخيص أمراض هذه الحضارة وبيان أسباب ما أصابها من ضعف وهزال، أما "فتح الله كولن" فقد كان يعرف أن قوة عظيمة موجودة في أعماقها، وأنّ مِن واجبه وواجب كل صاحب قلم أن ينبش التاريخ ليبحث عنها ويستخرجها من بين مدافنه إلى نور الشمس والحياة.

٤-هذه الحضارة

وهذه الحضارة التي ينشدها "كولن" ويبشر بها، جديدة كل الجدّة على السلوك الإنساني المعاصر في تنكره لعملية "الخَلْقِ والخُلُق" في مصدرهما الإلهي، فهو -أي هذا السلوك- غارق في الحسيّات إلى حدّ

مخيف مما يشكل نوعًا من الحجر على انطلاقات الفكر والروح إلى ما وراء هذا العالم، بينما لا يرى "كولن" حدًّا فاصلاً بين المعرفة بالإنسان والطبيعة وما وراء الإنسان والطبيعة، وهو يرى أن علماء الطبيعة مرشحون دومًا ليكونوا في طليعة المستجيبين لنداء الروح والإيمان إذا ما صدقوا مع أنفسهم وأصغَوا جيدًا إلى فطرهم. ولن نكون مغالين إذا قلنا: "كولن" صوت حضاري يبشر بقدوم عصر حضاري جديد يتربّع على القمة منه فكر إيماني، يسعى "كولن" اليوم لترسيخه في الأذهان فيما يكتب ويقول.

ويرى "كولن" أننا نموت مرتين، مرةً عندما يحين أجَلنا المقدَّر والمكتوب، ومرة أخرى عندما يموت أيُّ معلمٍ من معالم حضارتنا الإسلامية، فيموت معه جانب من جوانب الوجدان الديني في دواخلنا، فنزداد بؤسًا عقليًّا وافتقارًا حضاريًّا.

إن اللهب الحضاري الذي كان يتعالى ويتألق في آفاق الدنيا، أطفأته -للأسف الشديد- نفخات هائلة ومتتابعة من أفواه كثيرة من الداخل والخارج، فأقفرت هذه الحضارة من المعاني الكبرى والعظيمة التي كانت تزخر بها وتفيض بها على الآخرين... فالعقلانية الحضارية لا يبعثها من مواتها من جديد فينا إلا بارق روحي حارق وخارق يزلزلها ويبتعثها من عالمها الدفين.

٥-العقل السليم

و"العقل" الذي تمدّه الروح بطاقات التفكير، هو الذي يصنع "العلم"، لأنه هو وحده يستطيع أن يستكشف ماهية الأشياء وعللها ومن أجل هذا "العقل السليم" ومن أجل الإشراف على تربيته وتدريبه على التفكير... تبنّى

"كولن" مشروع بناء حاضنات لهذا العقل، وهذه الحاضنات هي المدارس التي يشجّع على إنشاء الكثير منها في "تُركيا" وخارجها، ولكنه يأبى لهذا العقل المسلم البِكر أن يُطعَّم بعتيق من أفكار ما يُسمى بـ "عصر التنوير" الذي يضع حدًّا فاصلاً بين الدين والعلم، بل لا بد لهذه الحاضنات أن تبدأ مع هذا العقل بداية جديدة كل الجدّة. فتزوّده بنظرة شمولية ترى في الدين والعلم وجْهين لعمْلة إلهية واحدة لا تنقسم... وعلى هذا المفهوم يريد "كولن" أن يُقام صرحنا الحضاري الآتي:

٦-الإسلام والانبعاث الحضاري

و"كولن" يعتبر الإسلام مصدرًا من مصادر التنوير الفكري فضلاً عن كونه دينًا من الأديان؛ وأنه انبعاث حضاري، لأن من أعظم خصائصه تدريب المؤمنين به على التفكير بالعالم واستقرائه واستبطانه كشاهد على الله تعالى. وليس كالمسلم أحد يدفعه تدينه إلى مناقشة الطبيعة والكون لإدراك مراميهما والفهم عنهما، فصِلاتنا بهما -كمسلمين- عملية مستمرة يأمرنا القرآن بعدم الانقطاع عنهما ما دمنا ندرج على هذه الأرض.

و"كولن" يريد من وراء ما يكتب أن يعطي "نفس المسلم" شكلاً معينًا ومتميزًا ومرنًا، بحيث لا يجد حرجًا في التناغم مع روح أي فكر حضاري يمكن أن يقدم البشرية خُطًى إلى الأمام من دون أن يَمَسَّ أصول عقيدته ودينه، فلا يغدو في نظر الآخرين روحًا غامضة شبحية تثير التوجس والرعب والاستنكار من قِبَلهم... إنه يخاطب أهم جزء فينا، ألا وهو الجزء الخلّاق الذي تعطل عن العطاء منذ زمن بعيد لتجنّبه العذابات

الذهنية المؤججة للأفكار، والباعثة للإرادات.

كما أنه لم يتوقف لحظة عن السعي من أجل توطيد مفهوم "اللانهاية" و"الخلود" في الأذهان القلقة والمترددة من الذين سقطوا في هاوية فوضوية روحية مفجعة.

٧-التاريخ عند "كولن"

فالتاريخ عند "كولن" ليس بمجرد أحداث ووقائع، بل هو نوع من أنواع التربية الروحية والسلوكية، يحتاج المسلم أن يتعمقها ويتعقلها ويعتبرها... فالاستعانة بتجارب الماضي ليس من أجل الإشادة به فحسب، بل من أجل البرهنة على أن الإنسان هو المحراب الكبير الذي يتعبد فيه التاريخ لخالق الزمان، وأن ما يعانيه المرء من محدوديات عقلية وروحية يمكن التخلص منها بتحوله إلى رحالة جَوّال في لاَنِهائيات العالم والتاريخ، فيزداد خصبًا وسعة وإدراكًا. فالنفاذ في هذه اللاَّنِهائيات تعينه على تلمس عمل الأقدار في رسم خارطة الزمان البشري على هذه الأرض، وهذا هو ما حاول "كولن" البرهنة عليه من خلال كتبه.

فالتاريخ -عنده- ليس من صنع الإرادة البشرية وحدها، بل لا زال "فلاسفة التاريخ" يتلمسون من خلال أحداثه الكبرى أصابع القدر وهي تعمل في الخفاء جنبًا إلى جنب مع هذه الإرادة، فلا يستطيع رصدها إلا أصحاب الأرواح الكبيرة من كتّاب التاريخ... كما أن الحضارة لا تدرك الهوة التي تردّت فيها إلا عندما تكتشف قصورها المعيب في الحفاظ على إنسانية الإنسان من الهجمات التي تتعرض لها من أصحاب الهمجيات الفكرية والروحية التي تعيث في الأرض فسادًا.

٨-المستوى الإدراكي لدى المسلم

إن إدراكاتنا الذهنية تظلُّ في مستويات من التسطح والضحالة ما لم نتعلم كيف نلازم الأفكار السامية التي ينهضنا إليها الدين.

ففكْر "كولن" بمجمله محاولة جادّة من أجل إعادة بناء الهيكل العقلي والروحي للمسلم الجديد. إنه يريد تأهيله ليصبح الطليعة المرتقبة للزحف الحضاري القادم. فبذَل جهدًا كبيرًا ليُعرّف المسلم بنفسه التي عمل الآخرون على إخفائها عنه، وتغييبها في "المحدوديات" و"الحسيات"... بينما يريد منه "كولن" أن يكون وثّاب العقل والروح، فلا تشدّه الحواس، ولا تستنزفه "العاديات" من الأشياء.

لقد أقفر فكر المسلم وتسطح عندما انكفأ ليعيش في أضيق زوايا وجوده، ولم يعش بشكل جيد وجوده العريض المضاهي للوجود الأكبر في امتداده وحيويته واتساعه واحتوائه على عوالم فكرية وفضائيات روحية لو عاشها كما ينبغي لسابق الزمن وسبقه، ولارتقى على كل فانٍ ومحدود، ولأتى أبواب الأبدية والخلود.

ف "كولن" يرى في التأكيد على الذات، والكشف عن الهوية الحضارية للأمة، مفتاح كل عمل نهضوي، وكل جهد فكري من دونهما باطل ووهم وخداع... فهو ينبّهنا إلى أننا نعيش في خطر عظيم حين نُدفع إلى خضم فكرٍ موّاجٍ لا يقودنا إليه رجل حضاري ورساليّ في الوقت نفسه ليكشف لنا عن مستويات من الهدفية الإلهية أعمق وأوسع بكثير مما عرفناه عنها، ومن أجل هذه الهدفية التي تشعرنا بمغزى وجودنا، لكي نُصْهر في بوتقة التطهير الإدراكي لنتشكل من جديد كطلائع حضارية قادرة على تحمل مسؤوليات التغيير الحضاري المنتظر.

٩-التغيير المنتظر

غير أن "كولن" يرى أن التفكير العقلي الخالص ليس بكافٍ وحده لإجراء هذا التغيير المنتظر، بل لا بد من الإيمان بأننا -نحن البشر- ننتمي إلى نظام كوني محكم ودقيق، وأننا جزء لا نتجزأ منه، وإلا سهل وقوعنا في مصائد من يريد أن يسلبنا شخصيتنا ويفرغنا من هويتنا، فكما لا يستطيع أحد أن يسلب الكون شخصيته المتفردة، أو يفرغه من هويته الإلهية، هكذا ينبغي أن يكون المسلم مستعصيًا على أي عمليات استلابية يمارسها الآخرون تجاهه.

لقد عشنا حقبًا كثيرة من تاريخنا ونحن نعاني من لصوصيات فكرية تعمل على استلاب جوهرياتنا الإيمانية والإنسانية حتى أُفْرِغنا من ثقلنا الإسلامي الذي كان يحسب له العالم ألف حساب لقرون عدة، وصرنا -للأسف الشديد- هشيمًا تذروه رياح التغيير من أينما هبّتْ وفي أي مكان صبّتْ. وإنه لأمرٌ بالغ الخطورة أن نبقى نعاني من غثيانات روحية لعدم قدرتنا على تنقية الأجزاء الأعماقية من وجودنا مما تراكم فيها من نفايات العقول وغسلين الأرواح الميتة.

١٠-الجبال البشرية

إن الجبال البشرية ذات الامتدادات الكونية، هي الأوتاد النورانية التي تمسك الأرض من أن تصاب بـ"هستريا" "اللاّمبالاة"، وتمنعها من الانفلات والذهاب في الفضاء إلى غير غاية. فالأرض قد تبدو جنونًا محضًا إذا هي خلت من هؤلاء الأوتاد الذين يأتون بالدرجة الثانية بعد الأنبياء عليهم السلام، فعليهم تعول البشرية في تصحيح مساراتها والتأشير إلى أخطائها،

وحلّ عقد مشاكلها وإبقائها على قيد الحياة العقلانية المنضبطة.

وإني لأظن أن "كولن" واحد من هؤلاء الأوتاد في "تركيا" اليوم، ولا أزكّيه على الله، فالله تعالى هو المزكي وهو الأعلم بمن يأتمنه على دينه ورسالته ليؤديها كاملة غير منقوصة إلى العالمين. غير أن تأثري بعظمة روح الرجل -وبيني وبينه مسافة آلاف الكيلومترات- أشدُّ وأعمق من تأثّري بكتاباته. لقد كنت أتابع حركة روحه من خلال الأسطر والكلمات وأتلمس ما يحدثه هذا الروح العظيم من أثر في كياني الروحي، فأجدني منجذبًا إليه انجذاب الساقية الضحلة إلى البحر الكبير والعظيم...![٦]

[٦] أحيل القارئ الكريم إلى كتابيه العظيمين " ونحن نقيم صرح الروح" و "ونحن نبني حضارتنا"، فقد كان تعويلي عليهما في كتابة أفكار هذا المقال.

الفكر البطولي

كنت قبل أن ألْتقي "فتح الله كُولَن" في كتبه، أشعر بحزن وقلق من خلوّ ساحة الثقافة الدينية من بطولة فكرية، تلْفت الأنظار بقوّة، وتقتحم الأذهان، وتبرق في سماء الأرواح، وتستثير هواجع الإرادات، وتحفّز القوى والطاقات...

وإذا كانت "البطولة" -أيّ بطولة- تعني الاستثناء والتميّز والتفرد، وخرقًا للاعتيادي والتقليدي والمكرور المملول، فإنَّ فكر "كُولَن" يمكن أن نطلق عليه صفة "الفكر البطولي" لاحتوائه على العناصر البطولية التي أشَرنا إليها آنفًا...

ففكْر "كولن" استثنائي بكل المقاييس، وانطلاقي آفاقي يسعى إلى إطلاق النفوس من حبوس الزمان والمكان. وهو مهتمّ بالتمهيد إلى إنشاء معرفة كونية قرآنية الأصول بلا حدود، تكون قاعدة انطلاق للأفكار الدينية والعلمية. وهو فكر لا يريد تغيير الإنسان من الأدنى إلى الأعلى فحسب، بل تغيير زمان الإنسان وتحويل مساراته. وهو يكافح ويبلو البلاء الحسن في كفاحه ضدَّ الخمود العقلي، والبرود الروحي، والشلل النفسي، والنكوص الوراثي، والهبوط اليأسي، والتردّي الأخلاقي، والفراغ الثقافي والمعرفي... هذه الآفات التي تنهك الشعوب، وتقضي على حيويتها، وتعطّل طاقاتها، وتبدّد آمالها...

إنه يصوغ عقولنا، وينشئ فيها نزوعًا علميًّا، وفضولاً معرفيًا، وشوقًا "ماورائيًا"، وبحثًا عن المعنى والمغزى والجدوى فيما نرى ونسمع ونحس ونشعر.

فمدرسة "كولن التربوية" تدرّب الإنسان على استمرارية التطلّع الوثّاب الذي لا يقف عند حد، وإشعال فتائل الانفعالات الذهنية والنفسية لكي لا تميل للكسل والراحة والدَّعة التي هي قُبور للفكر ولُحود للرّوح.. فبطولة المربّي الكبير تسري إلى المتلقّين عنه، فإذا بنفحات من بطولته تمسّهم، فينزع بهم نازع بطولي يقلب حياتهم رأسًا على عقب، فيغدون أبطالاً فيما يمارسون من أعمال، فلا يرضون من أعمالهم إلا ما كان قد بلغ مرتبة الإتقان العالي غير العادي، وبذلك ترتفع -حتى أبسط أعمالهم- إلى المستوى البطولي المقصود.. كما أنه يشحذ بصائرنا لنتحسّس بها خفايا ذواتنا، وأعماق أرواحنا، لنرى الجوهر الإنساني على حقيقته وطهره ونقائه، وننظر الكينونة البشرية بفطرتها الخالصة الصفاء قبل أن تتلوّث بأوساخ الدنيا، وقبل أن يعتريها الفساد، فنتّخذ من هذه اللباب الأعماقية أسس بناء كياناتنا الإيمانية والبطولية...

فالبطولة بالمفهوم الذي عرفناه، مِن لوازم الشخصيات الدينية العظيمة.. وإلاّ فقدتْ هذه الشخصيات قوى التأثير في الجماهير، هذه الجماهير الجائعة إلى نماذج بطولية تتخذ منها أمثلة تحتذيها في صحة الإدراك وفي السبيل إلى الفهم الجوهري للدين، لأن الدين بطبيعته يتعامل مع جوهريات الحياة، ومع جوهريات العقل، وجوهريات الحس والشعور؛ فمِن غير تفاعل الدين مع هذه الجوهريات يغدو الدين معتقدًا جافًا ينحصر في بعض الطقوس التي تؤدّى بشكل بارد لا حرارة فيه...

فالعبادات -التي هي جوهر الدين- هي طاقات نفسية انْدفاعية تفجّرها حرارة المعتقد، وتطلقها من أسارها رغبة القربى من المعبود... فما لم تؤدَّ بهذه الروحية العالية، تفقد الكثير من عظمة معانيها، وتغدو عملاً آليًا

يؤدّيه المتعبِّد من دون استشعار جلال الألوهية وعظمتها، فيجر ذلك إلا الكسل الروحي الذي كثيرًا ما يمنعنا من التركيز الذهني الذي به يصبح التعبّد عملية تجديد للنفس وللعقل.

ففضْل فكر "كولن" يتمثل في قدرته على تحريك قوى البطولة غير المرئية عند الإنسان، وجعله يفكّر جدّيًا بتغْيير نفسه إلى الأعلى دائمًا، لأنه يَمُتُّ بصِلة ما إلى الجوهر الصافي والعنصر الأصيل للإنسان المفطور -في أصل خلقته- على الانجذاب إلى نور الحقيقة أينما أبصر شيئًا من أقباسها، فضلاً عن أنه شغوف بمعرفة سر العظمة الإنسانية وعوامل سموّها وتفوّقها أينما الْتقاها.. كما أنَّ هذا الفكر يعيد إلى "عالَم الروح" الأذهان الشاردة في أبعادها الضلالية، ويحوش إليه ما تفلّت من عقاله من أجزاء النفس، وينقذها من دوامة التفاهات الخانقة للفكر والروح...

إنَّ أيَّ فكر يغوص إلى مثل هذه الأعماق الامتدادية في النفس البشرية، فهو بالضرورة "فكر بطولي" تحتاجه حقبتنا الزمانية الحاضرة، وربما حقب زمانية أخرى.. فهذه البغتة العظيمة التي تبدو على أوجه قرّاء "كولن" وعلامات الاستفهام التي ترتسم على محيّاهم، إنما هي دليل آخر على أنهم يواجهون "بطولة معرفية" مثيرة، تملك معاقد الفكر من أذهانهم، وتستولي على أرهف مشاعر أرواحهم، حتّى لكأن روح الوجود يستأذن لكي يزور أرواحنا ونحن منهمكون في قراءة كتابات هذا الرجل...

الانفجار الفكري الكبير

يعزو كثير من الباحثين في تاريخ العرب الحديث، إشعال فتيل الانفجار الفكري الكبير لدى العرب والمسلمين، إلى شرارات مدافع "نابليون" وهو يدك أسوار الإسكندرية غازيا. فعقل عالم الإسلام المتمثل آنذاك في الجامع الأزهر كان يغط في نوم عميق وثقيل، ولم يكن غير دوي المدافع وأزيز القذائف بقادر على أن يهز هذا العقل، ويفتح منافذ سمعه وبصره على العالم الجديد الذي جاء نابليون -ابن أوربا- يحمل طلائعه إلى العرب والمسلمين من غير قصد.

وهذا الانفجار المدوي، ترددت أصداؤه في أجواء الفضاء الفكري والثقافي الذي كان المسلمون قد ألفوه واستناموا إليه، وتبع ذلك انفطارات وانشطارات في عقول النخب من المثقفين والمفكرين؛ فازدادت الشكوك، واضطربت العقول، وعمَّت الفوضى، فلم يعد أحد يعرف صواباً من خطأ وحقًّا من باطل.

وقد نجم في خِضمّ هذه الفوضى المعرفية عقولٌ كبيرة حاولت أن تعيد التوازن للذاهبين بعيدًا في مجافاة الدين من المتشكّكين والناقدين والقادحين... وحتى الذين انسلخو عنه وأنكروا وجوده تعالى، متّخذين من العلم إلهًا يتعبَّدون له من دون الله تعالى.. ونادت بأن على الأمة أن تلتمس الهداية من ذاتها، وأنه ليس من الصواب في شيء أن نشكّك في ملكات هذه الأمة، وفي عظمة ما يكتنزه تراثها الفكري والروحي من قيم عالية، قادرة على إحياء مواتها من دون الحاجة إلى استعارة ذلك من خارجها، وأن القرآن نفسه يحثّ أمته على التفكر في النفس والتفكر

في الكون ثم التفكر في الأرض التي نحيا على ظهرها، كما أن الرؤوس الكبيرة التي لا تنفك تطل على المسلم من بين سطور تاريخه، تمدُّ هذا الذهن بطاقات الحركة والنهوض.

فالنشاط الذهني ملكة نفسية لا زالت تنتقل بين أجيال المسلمين جيلا من بعد جيل، وإن الذي يقعد المسلم عن اللحاق بالركب الحضاري ليس بقصور في الملكات بل هو قصور في الهمم والإرادات. كما أن الهاوية السحيقة من الألم والعذاب الذي يتردَّى بها المسلم اليوم مسؤولة إلى حد بعيد عن إنهاك قواه الإدراكية والذهنية.. فنظرة عابرة إلى عابر سبيل من المسلمين تجعلك تلمس أيَّ هموم ينوء تحتها حتى لكأنه قد خرج للتو من تحت أطباق التراب، علما بأنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أن ملكة المسلم العلمية كانت ملحوظة في كل تاريخه، وهي من قبيل النمو الطبيعي الذي يلازم حياته في أدوارها كلها.

ولعلَّ أكبر هذه العقول التي تصدَّت للهرطقات اللادينية عقلان كبيران كان لهما الأثر العظيم على عموم رقعة الإسلام. وإن أول هذين العقلين هو جمال الدين الأفغاني، وثانيهما محمد عبده تلميذه المخلص وساعده الأيمن.. كان الأفغاني يناضل من أجل حفز وجدان المسلم وابتعاث جيشان الحياة الجديدة فيه، ودفعه إلى معسكرها الذي كان منزويا في مكان قصي عنها.. وأما الثاني فهو رجل العقل والعلم ورافع راية التحضر، والناعي على العقلانيين لغَط عقولهم، وثرثرة ألسنتهم، والمنافح عن الإسلام باعتباره قمة حقائق الوجود، وأنه القوة الحية التي ما لامست عقلاً إلا بعثت فيه من قوى الإدراك ما يحفزه للنظر والتأمل والعمل.. لقد استطاع محمد عبده أن يقدح بشعاع فكره زناد جم غفير من الأذهان، فانبعثت أفكارها وتجددت حيويتها.. ولا نكون مغالين إذا قلنا إن قوة

الفكر مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته تمتزج بالنفس وتجري مع الروح؛ وإلى قوة هذا الفكر نعزو ما تلاه من المفكرين من أمثال رشيد رضا وحسن البنّا والنورسي وإقبال والمودودي وفتح الله كولن... هذه النجوم الوضاءة في سماء العالم الإسلامي والتي لا زال بريقها وألقها يصنع العقول والنفوس ويفتح الطريق للمزيد من الإبداع والتجديد.

فما من أحد من هؤلاء الأفذاذ وضع حول عقل المسلم قيودا تمنعه من الحراك نحو غدٍ أفضل وفكر أكثر إبداعا من أفكارهم وفهم أشمل من أفهامهم مستعينين بتلك الإرادات الصالحة التي تهرع دوما لمساعدة الإنسان الذي يبتغي الصلاح ويريد التقدم إلى أمام.

أما الذين يريدون أن يفرغوا الإسلام -وهو حياة كله- من الحياة، أو ينظرون إلى الإنسان ككيان حيواني خلو من الإنسانية وتشكيل جسدي خلو من الروح، إنما يريدون أن يقلبوا الموازين ويزيفوا الحقائق ويمتهنوا الإنسان.. فهؤلاء هم أخطر أنواع البشر على البشرية بل البشرية منهم براء.. فالذكاء الذي أراد هؤلاء الأقطاب من المفكرين أن يبعثوه في أذهاننا من جديد أثار الكثير من التوترات الداخلية في أعماق نفس المسلم. وهو على كل حال إرهاص يدل على يقظة طال انتظارها. ولكي يكونوا أكثر واقعية فقد نشروا أمامنا سجلاً حافلاً بأمراضنا الروحية والعقلية التي نعاني منها، لكي نعمل على معالجتها والخلاص منها.. لقد أفهمونا أن حشودنا البشرية حشود نملية يمكن أن تكون مواطئ أقدام الآخرين إذا نحن لم نرتقِ بأذهاننا إلى مستويات عالية التفكير نعلو بها عن أن نكون مداسات للآخرين.. إنه الضد الفكري الذي يرتفع بهذه المجتمعات النملية إلى ما فوق مواطئ الأقدام.

لقد قاوموا الخمود في الأذهان والأرواح، واعتبروا المسلم يساوي في

كفتي ميزانه ما كان وما هو كائن الآن.. جمود عقلي ينبغي أن يربأ المسلم بنفسه عن الوقوع فيه، فهو يتجاوز غيره بقوة ما يمتلكه من رغبات في إدراك الجوهر الديني في دواخله وفي دواخل الأشياء، ففي صميم ذهنيته ينقلب كل معلوم أو مشهود إلى سؤال كبير يجب البحث عن جوابه في النفس والكون والحياة. وهذا الجواب هو مفتاح كل المعارف والعلوم التي تكاد تغرق الإنسان المعاصر وتهلكه في دوامتها المرعبة!

فبارقة إلهامية لدنّية واحدة إذا ما برقت في سماء النفس، تساوي جميع الأفكار التي حاول الآخرون حشرها في أذهاننا خلال سني أعمارنا.. فما من فكر عظيم إلا وهو قدْحة من قدحات هذه اللدنّية الإلهية لتعيننا في ضعفنا على مصاولة أهوال الحياة، غير أننا بسوء فهمنا وشدة غرورنا نظن أننا بنينا الحضارات، وأقمنا المدنيات بقوة أفكارنا وشدة سواعدنا من غير معين أو دليل.. وهذا الظن هو الكفران بعينه الذي ينخر بأسس الحضارات وبأسس حضارة اليوم... فقوة أفكارنا ليست إلا مظهرا من مظاهر اللدنّية الإلهية وعظمتها، ومن هنا تتوضح أمامنا حقيقة قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾(الكهف:٦٥) فتأتينا على موج فكري موصول الجريان بيننا وبين عقل الوجود الأقدس، فيعطينا منها على قدر ضئالة عقولنا وقصور أفهامنا، وهي رغبة قدرية دافعة للإنسان لكي يشارك الأقدار في صنع عقل الإنسان ورسم مصائره في هذا العالم.

ففي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح كما جاءت في القرآن الكريم مصداق هذه المشاركة الحميمية بين القدر والإنسان في صنع الوقائع والأحداث.. فالعبد الصالح كان يد القدر في خرْق السفينة وقتْل الغلام وإقامة الجدار، فوُجوده في قلب الحدث رمز وإيماء إلى أن وجود الإنسان في هذا الكون مهمّ لا غنى عنه لما يمثل على هذه الأرض من فصول

التاريخ البشري.!

فمن دون الإنسان لا يبقى أرض ولا مسرح ولا تمثيل ولا ممثلون ولا مأساة ولا ملهاة ولا تاريخ.!

فنفس هذا المسلم المثالي الطموح إذا ما تثقفت بالإسلام، وترقت واستنارت، علتْ على التوافه والصغائر، وطمحت إلى البطولة في الفكر والسلوك والعمل، فصارت محصنة عصية على الاقتحام، عصية على الاستلاب، فلا يمكن أن تهوي من هذا الشاهق البطولي إلى أي درك من دركات الهبوط.

فحقيق بصاحب هذه النفس أن يحرص على وجودها معه، فلا يفقدها أبدا، لأنها ستظل ملازمة له حتى دخوله عالم الخلود، لأنها هي النفس التي خاطبها ربّ النفوس بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر:٢٧-٣٠).

فتاريخ هذه النفس على هذه الأرض إنما هو سجل حافل بوقائع كفاحها البطولي للخلاص من الفناء المطلق للعودة من جديد إلى ذروة الوجود المطلق، من البصر إلى البصيرة، ومن عينين محدودتي النظر إلى عينين روحيتين مطلقتي النظر، من المادي إلى غير المادي، من التقليدي إلى الإبداعي، من التسطح إلى التعمق، من سكونية الشواطئ إلى فوران الأعماق، من غلاظة الحس إلى رهافته، ومن تشتت المشاعر إلى توحدها... هذه هي النفس العميقة والشمولية التي يحفها الجلال ويغشاها الجمال، وهي وحدها الجديرة بالخطاب الرباني آنف الذكر.!

فكر الأستاذ فتح الله كولن بين الحقيقة والخيال

كنت في جلسة حوار مع أحد الأصدقاء، حدّثته فيها عن أفكار الأستاذ فتح الله كولن، وعن سعة هذه الأفكار وعمقها وأبعادها العالمية والكونية، فقال بشيء من التهكّم: لعلك تريد أن تقول إنَّ أستاذكم يريد إصلاح العالم؟

قلت: نعم، أستاذنا ونحن معه نريد إصلاح العالم..

قال: إذن، أنتم تحلمون...

قلت: وما العيب أن نكون حالمين.. فـ"الحلم" كان ولا زال مفتاح كل الحقائق والوقائع الملموسة.. وكل ما نشاهده اليوم من مكتشفات ومخترعات كانت بالأمس القريب أحلامًا وخيالات، فإذا بها اليوم حقائق قائمة بين ظهرانينا.. فالإنسان الذي لا يحلم، لا يستطيع أن يفكّر؛ فالحلم أو الخيال هو أولى درجات الحقيقة والإنجاز..

لقد سعى "كولن" في كل ما كتبه أو قاله إلى تهيئة جيل عظيم قادر على أن يكون عقل العالم حين يُجَنُّ هذا العالم ويفقد عقله، وأن يكون الميزان الذي يعيد للعالم توازنه حين تختل به الموازين، وأن يكون الحق الذي يدفع أباطيل العالم فيزهقه، وأن يكون هو الصواب حين يخطئ العالم، والضمير الحي حين يموت ضمير العالم.

ليس من العيب أن تكون هذه أحلامنا، ولكنَّ العيب أَنْ نظلَّ نحلم، أو أن نبقى في دائرة الحلم ولا نتجاوزها إلى العمل الجاد لتحقيق هذه الأحلام.. فالواجب أن نشحذ هممنا، وأَنْ نزيد في قوى إراداتنا وأن نعمل ليلَ نهار، ونبذل كل طاقاتنا الفكرية والعملية من أجل الوصول إلى هذه

الأهداف العظيمة، حتى نراها قائمة بين أيدينا واقعًا ملموسًا نلمسه بأيدينا ونبصره بأعيننا ونعايشه في حياتنا..

فإرادة الوصول إلى الهدف هي التي ستقرّبنا منه.. فالإرادة هي الحياة، فمَن لا إرادة له، فهو ميت، وإن كان يمشي على رجْلين بين الأحياء... إن الأرادة العبقرية تصنع الأعاجيب، لا مستحيل يحول بينها وبين أهدافها، إذا كنت "رجل إرادة" فأنت رجل حياة، فعظماء البشر هم عظيمو الإرادات، وهي التي تصنع التاريخ، وتصنع مجد الشعوب والأمم، بل أمضي فأقول: إنَّ الإرادات العبقرية تحرّك الجبال، وتخرق الصعاب..

ويمكن تلخيص أفكار الأستاذ فتح الله بالآتي:

١. تحريك سواكن عقل المسلم وقلبه.
٢. استنهاض قواه الجوّانية والذاتية.
٣. إشعال فتائل الإيمان المنطفئة من جديد.
٤. مدّ الجسور بين عقل الإنسان وعقل الكون.
٥. الاعتقاد بعالمية الإسلام.
٦. العمل على جعْل راية "لا إله إلا الله" ترفرف في أرجاء العالم.
٧. تعزيز الشعور بمسؤوليتنا عما يجري في العالم من انحراف عن العقدة الصحيحة.
٨. تعزيز الإيمان بأننا عقل العالم الحصيف لعقل العالم إذا ما أصيب بالجنون.
٩. تقوية الإدراك بأننا الينبوع الصافي لقلب العالم الظامئ إلى الإيمان.
١٠. الشعور العميق بأننا ميزان العدل إذا اختلّت الموازين.
١١. إقناع العالم بأننا رجال أمن وسلام لا ينبغي للعالم أن يتوجس خيفة منّا.

الكلمة والفكر عند الأستاذ فتح الله كولن

"الكلمة" عند الأستاذ "فتح الله" كائن روحي، ووجود ذهني، وحياة يتمخض عنها الوجدان، وينهضها من العدم الإبداعُ... والكلمة عنده -بعد ذلك- لهبٌ نوراني يضيء دياجير الفكر والروح، وهي منبر يمكن أن يقود العالم ويهديه سواء السبيل.

والأستاذ "فتح الله" رجل دعوة وفكر، وهو -بعد ذلك- كاتبٌ حصيف ألمعي، ذو ضمير يموج بالإيمان، وروح مليءٌ باليقين... إنه اليوم في "تُركيا" مِلءَ العين والقلب، ولا شكّ أن جلجلة كلماته، وبروق روحه، وصفاء ذهنه، وقوة عارضته، ستبحر عاجلاً أو آجلاً إلى ما وراء آفاق هذه البلاد وحدودها، ولاسيما إلى العالم العربي الذي لا زال يجهل الكثير عن علماء تركيا ومفكّريها، ورجال الفكر والدعوة فيها.

ورسالته الفكرية والدعوية هي إنقاذ "الإيمان" من محنته، ومحو ما خَدّدتهُ أقلام الفسقة من آثار على أذهان المسلمين المستعبدة، وهو لا ينفك يعمل على استنهاض الهمم وإنقاذ الساقطين في لجج اليأس، من الذين تاهت أصوات استغاثتهم في عواء عاصفة الكفران.

إنه كاتبٌ يتلوّى بأصدق الآلام وأشدّها مِمّا آلَ إليه أمر المسلمين من فقر إيماني وبؤس حضاري، ولا زال يتصدى في كتبه ومقالاته وخطبه لأولئك الذين يريدون أن يدنسوا قداسة الإسلام، ويمسحوا عنه مسحة العظمة الإلهية... اختاره القدَر ليحمل في هذه البلاد شعلة الإيمان المتوهجة بعدما كادت تخبو وتنطفئ... إنه يحمل في كيانه عنادًا إيمانيًا، وإباءًا استعلائيًا على كل أنواع المغريات الدنيوية. وها هي خطوات فكره

المسهد تذرع اليوم آلاف الرؤوس والعقول.. وكم من عقول مستعلية بكبريائها الثقافي سقطتْ صرعى تحت قهر معرفته الإيمانية.! وكم من أرواح تفوح منها رائحة العفونة اغْتسلتْ بينابيع روحه، وتطهَّرت من عفونتها بأشعّة شمس فكره.! وكم من روح حازها الى روحه.! وكم من قلب ضمَّهُ إلى قلبه.! وكم من عقل لجأ إلى غِنى عقله.! وكم من معدم في الفكر والدين وجد في دفءِ وجدانه أمنًا فكريًّا ويقينًا دينيًّا.! وكم من جحيم تتسعَّر ناره في النفوس أطفأها بأنفاس روحه..!

لقد رفع الرجل علَم الرجاء في حومة اليأس المحيط، وسرعان ما التفّ حوله أصحاب القلوب الحية، والأرواح الفتية وكأنه يناديهم ويهتف بهم: إليَّ يا رجال الإيمان..! وثبًا وثبًا يا فتيان..! ركضًا ركضًا يا شجعان..! هذا الإسلام، روحكم، مجدكم، تاريخكم، فؤادكم النابض، وجدانكم الحي... ها هو ساقط يتلوى ألمًا، لا شيء أفجع على نفوسنا من هذا، ولا شيء أكثر إيلامًا لأرواحنا من أن نرى "القرآن" وحيدًا في حومة النضال يناضل -بالحفظ الإلهي- عن أبنائه، بينما أبناؤه يغطون في نوم عميق.

* * *

هذه بعض ملامح ولوامع فكره الخصب، وروحه العظيم، قبستها على عجل، ما استقصيت ولا تحريت، ولكني أشرتُ وأومأت، تاركًا لمَنْ يريد الاستقصاء والتحري حرية اختيار أيٍّ من كتبه ليرى بنفسه مصداق هذا الذي أشرنا إليه.

وإنَّ مما يثلج الصدر، ويطمئن الخاطر أن ألتقي هنا بعض الإخوة من خيرة الأساتذة منكبين على ترجمة آثار هذا الرجل الفكرية والدعوية إلى العربية. وهذا -بلا شك- عمل عظيم يؤجرون عليه، وخدمة كبرى يؤدّونها

للإسلام والمسلمين.. وهم إذ يفعلون ذلك إنما يضعون لبنات في بناء جسور التواصل واللقاء الفكري والدعوي بين رجال الفكر والدعوة هنا، ورجال الفكر والدعوة في العالم العربي، ليتعرف بعضهم على بعض... والمعرفة تأتي بالودّ، والودّ يأتي بالمحبَّة، والمحبة بين المؤمنين أعظم ما يطمح إليه كل صاحب دين وإيمان.

رسالة إلى صديق الفكر والروح الأستاذ فتح الله كولن

بسم الله الرحمن الرحيم

١

يا صديق الفكر، وشقيق الروح والوجدان...!

سلام من الله عليك ورحمة منه وبركات، وأقرَّ الله عينك بأحبابك مِمَّن قرأَ لك أو استمع إليك...!

وبعد:

ما كان ليستهويني من الرجال في هذه الدنيا، إلاَّ ذوي الأفكار العالية، والنفوس الصافية، والأرواح السامية.. فهم الينبوع والمعين الذي تنهل منه روح البشرية إذا ما جفَّتْ وعطشتْ، وهم النور الذي يقبس منه عقلها إذا ما ضَلَّ وأظلم.

عَرَفْتُكَ من قريب، وأُتيح لي أنْ أقرأَ روحك، وأستجلي قلبك، وأستشرف فكرك فيما تُرْجِمَ منْ كتبك إلى العربية، فأيقنت أنك بمداد الروح تكتب، وبدم القلب تخُطُّ بيمينك. فقلَمك يَنُثُّ نُورًا، ويمتح من نور، للقلب والعقل على حدٍّ سواء. أصغيتُ مليًّا لـ"ترانيم روحك وأشجان قلبك"[٧] يا رجل الألم العظيم، ألم عظماء الروح حين يَمُضُّهُمْ عجز الآخرين عن فهمهم، وأسى رجال الفكر الذين يؤلمهم ألاَّ تجد أفكارهم مكانًا في بعض الرؤوس.. ولمستُ "صرح الروح"[٨] وأنت تبْنيه بصبْر وجلد من حنايا روحك، ومن شطر فؤادك، وهو يزداد علوًّا وشموخًا يومًا من بعد يوم.

(٧) إشارة إلى كتاب: ترانيم روح وأشجان قلب، للأستاذ فتح الله كولن.

(٨) إشارة إلى كتاب: ونحن نقيم صرح الروح، للأستاذ فتح الله كولن.

ومضيتُ معك أتابع خطاك وأنت ماضٍ إلى "النور النبوي الخالد"[٩]، فإذا بك تترشف رشفات من هذا النور، وإذا بماء الحياة النبوية يسري في كيانك كله، ويسقي منك الشغاف، وإذا بمشاعرك تتماوج وتتمازج لتكون شعورًا واحدًا، هو شعور المحب الوامق لمحمدٍ الحبيب، حتى لكأنك وهِبْتَ حياة جديدة وَوُضِعَ في صدرك قلب جديد ليس لغير محمد ﷺ مكان فيه، وإذا بك تتعلم منه ومن سيرته صلوات الله وسلامه عليه ما تواجه به محن الزمان، وخطوب الأيام.

٢

لقد أودع مُصَرِّفُ الأقدار نَفْسَكَ -أيها الصديق- مَنَارَ هدى يمور بأضواء الأمل والرجاء، وهاهما يشعان من بين كلمات ما كتبتَ وسَطَّرْتَ، فما من أحد يستطيع أن يخفي حقيقة روحه، وما تمور به من أفكار.. وقد آن للمسلمين -كما ترى- أن يولدوا من جديد، وأن يخرجوا من أحشاء اليأس القاتل، قاصدين شاطئ الأمل، عرايا من كل لبوس إلا لبوس الحق والإيمان بالآتي من الأيام.

فما طوته السنون من أمجاد هذا الدين لا يقوى على بعثها من جديد إلاّ أصحاب التمكين الإيماني، الذين يحشدون طاقاتهم كلها لتفجير نهر الزمن، والأخذ بزمام مجراه نحو مَوَاتِ تاريخنا، ليبعثوا فيه الحياة من جديد.

٣

والحياة لا تمنح نفسها بكل خصبها وعنفوانها إلاّ لأصحاب القلوب الذكية، والعقول الواعية، الذين يأبون أن يمضوا مع قوافل الوجود في طريق الرحيل قبل أن يتركوا بصمات سجودهم على أجنحة الليالي.. أما أخدان

[٩] إشارة إلى كتاب: النور الخالد.. محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، للأستاذ فتح الله كولن.

المخادع، وسُكَارى الفُرُشِ، فأولئك أثقل من الجبال على ظهر الأرض، وأشد كربًا وحزنًا لأهل السماء، ولأهل الإيمان على هذه الأرض، إنهم العار الذي تخجل منه البشرية وتتمنى لو لم يكونوا من أبنائها.

٤

إنَّ شيئًا ما يتوهج في قلبك -يا سيدي- ويكاد يعصره مرارة وألمًا، لهذا الذي تراه من ترديات لروح الإنسان صنيع الله تعالى، ولكونه صنيع الله فلم يخامرك اليأس منه أبدًا مهما كان شأنه وشأن تردّيه، لذلك لا تني تبحث تحت قمامات روحه عن سره المخفي وعن كنز جوهره الإنساني الإيماني.. إنك تؤكد -من خلال كتاباتك- أنَّ نجمًا هاديًا لا يغيب في قبة سماء الروح، يمكن أن تجلوه من جديد واضحًا متألقًا من بين ما يغشاه من سواد الآثام، ومن ضباب الضلالات... وهذه هي رسالتك التي نذرتَ نفسك لها أيها الأخ الحبيب.

٥

منذ زمن بعيد وأنا جائع ومتعطش لرجل مثلك -يا سيدي- ولمثل أفكارك النيّرة ذات الأبعاد الحضارية. وسُلَّمُ الارتقاء الذي نحاول صعوده هو السلم نفسه الذي تركتَه بين أيدينا لكي نجرب الصعود مثلك من خلال درجاته، ولكنَّ الوهن الذي أصاب أرواحنا، والعجز الذي شلَّ إراداتنا هو ما نحاول جاهدين أن نغالبه ونغلبه لتُواتينا العزيمة في ارتقاء بعض درجات سلّمك. شربنا من نبع روحك ولم نزل ظامئين، وأتينا أبواب قلبك ولكننا لم ندلف إلى الشغاف منه بعْدُ، ولا زال البعض مِنَّا ينشد أجوبةً لما يتردد في أنفسهم من "أسئلة محيرة"[١٠] قبل أن يُقبلوا عليك

[١٠] إشارة إلى كتاب: أسئلة العصر المحيرة، للأستاذ فتح الله كولن.

سالمي الصدور، مطمئنّي العقول.

٦

إنه ما من شيءٍ يستطيع أن يهزَّ هذه الأمة ويوقظها من غفلتها، وينفذ إلى أعماقها ليحرك سواكن ذاتها، مثل الصرخات المؤمنة التي يطلقها المخلصون من رجالها..! فما أكثر ما حَذَّرتَ في كتبك من أولئك الدخلاء الذين ما فتئوا يعيثون فسادًا في إيمان الأمة، وتخريبًا في عقلها.. وهمهم أن يقطعوا تلك الخيوط النورانية التي تصلها بعوالم الغيب، حيث تتلاقى تخوم الأرواح، وتتجاور أوطان النفوس المطمئنة السامية، التي ترى في الأبدية مطافها الأخير.

٧

إني طامع بكرم أخلاقكم وبسعة صدركم لكي تتجاوزوا عن جرأتي في الكتابة إليكم -يا أستاذ فكرنا- وما ذلك إلا استجابة لدافع خفي غامض لا أعرف سببه.. ولكني أحسب أن الدافع إلى ذلك إنما هو استغراقي في أفكاركم ومشاعركم التي ملكت عليَّ نفسي، وأصبحت هاجسي في نهاري وليلي وعند نومي.. ولا أكتمكم فقد وجدت فيها رافدًا عظيمًا يرفد أفكارنا، ويخصب خيالنا، وإني لأتخيل شبابنا الغض وهم يهوون مندفعين من علٍ إلى هدف مجهول ومخيف، وإذا بك تقف إزاءهم عملاقًا بإيمانك وبفكرك وتحول بينهم وبين هذا الانحدار الرهيب، بهذا الإيمان الذي يتحطم على صلابته أعظم الأفكار غطرسةً واستعلاءً.

وفي الوقت الذي أكبّركم وأُجِلّكُم سويداء قلبي، أرجو أن تفسحوا لي مكانًا في قلبكم، والسلام.

ضمير الفكر

لا يفتأ الأستاذ "فتح الله كولن" -بين وقت وآخر- يُقَلِّبُ صفحات فكره، ويعرض مكنونات صدره على الملأ بصراحة ووضوح حين يلتقي مندوب صحيفة، أو رجل فكر، أو أيَّ إنسان آخر يريد المزيد من العلم بأحواله وأفكاره من دون أنْ ينتابه أدنى شعور بالضيق أو الحرج.. فهو يضع نفسه وفكره، بل حتى أخصَّ شؤونه الأسرية تحت أنظار الناس ليروا ويسمعوا ويحكموا.. فليس لديه ما يخْفيه أو يحرص على كتمانه.

إنّهُ يحاكم نفسه وفكره، ويحتكم إلى الآخرين فيه... ولا يهمه أنْ ينشر طوايا ذاته كما هي مجرّدةً من أيِّ تجميل أو تزويق؛ فهو داعية "الكلمة الحُرَّة" يقولها ويريد من الآخرين أن يقولوها فيه صادقةً خالصةً مُبَرَّأةً من الظلم والغِلِّ والحقد والحسد.

ومنذُ خَبرَ الحياة ووعى رسالته فيها، وهو يعمل دائبًا من أجل قيام فكره على أَعْمِدَةٍ من "الحب الإنساني" و"التسامح الفكري" و"التعاون الحضاري".. فالإنسان عنده -أيُّ إنسان- طاقة خَلاَّقية إعجازية ينبغي التعامل معه بإيجابية فاعلة لكي يستطيع أنْ يعطيه أفضل ما عنده، ويأخذ منه أفضل ما عنده.

وهذا الاهتمام الشامل للبشرية جمعاء، وتحميله نفسه واجب المسؤولية الأدبية والأخلاقية عن أفكارها وعقائدها، والتنبيه إلى انحرافاتها، نابع من فكر عالمي شمولي النظر، يتبنّاه "الأستاذ" ويدعو له من منطلقات عالمية الإسلام نفسه، ولأنّ المسلمين جزء لا يتجزأ من هذه البشرية يؤثر بهم صلاحها أو فسادها.

فالخشية من فناء أفكار الحق والعدل والخير والجمال في هذا العالم يوجب على المفكر التوكيد عليها على الدوام، وتحميل "ضمير البشرية" واجب صيانتها والحرص عليها كإرثٍ إلهي لا ينبغي التفريط به.

فخلود هذه المعاني في ضمير البشرية هو الذي يعطي لنضال الإنسان من أجلها معنًى لحياته، ويبقى الإنسان مخلوقًا باهتًا وهَشًّا ما لم يُحْكِمْ ارْتباط وجوده بوجود الله صاحب كل معنى جميل وجليل في هذا الوجود.. فيأخذ منه أسباب وجوده وديمومية هذا الوجود، وعندئذٍ يستطيع أن يقول مفتخرًا: "ها أنذا موجود لا أشك بوجودي.. أُسَامِتُ السماء، وأُناطح الكون، وأخوض بحار الوجود بثقة واعتداد..."

فضمير الفكر -عند الأستاذ- أعظم من الفكر نفسه.. لأنّ هذا الضمير هو الذي يعطي الفكر أحقّيته، ويمنحه مصْداقيته.. فهو نور الإنسان الداخلي، وهو الفرقان الذي يفرق بين ما هو زائف من الفكر وما هو أصيل متوافق مع الحق الذي ينشده الإنسان وينشده العالم.

فضمير الفكر هو الذي يدفع الأستاذ إلى خوض غمار الإنسان للكشف عن جوهره الإنساني ذي النفخة الإلهية... فترسيخ فكرة "الوجود" و"الخلود" في ضمير الإنسان يفتح آفاقًا عالية وواسعة في الفكر والحياة.. ومن هنا دعا الأستاذ إلى فهم محمد ﷺ كظاهرة إعجازية عظيمة المصداقية، وكونية في أبعادها، وإنسانية في انتسابها، وإلهية في استمدادها؛ والتعامل مع القرآن كطاقة تنوير، وقوة تغيير... ومن ثمة حاول أن يجيب: لماذا محمد ﷺ والقرآن دون سواهما من كتب ورجال...؟!

والإجابة على هذا السؤال هو محور ما كان يدور عليه "ضمير الفكر" عنده.

الدين والتاريخ في منظومة الأمة الفكرية

١

هذا الدين صَنَعَ أُمَّة، وشكَّل تاريخًا، وأَقام حضارة، وأَنشأَ أخلاقًا وسلوكًا، وجمالاً وأذواقًا، ووجدانات رفيعة، وعقولاً حصيفة، وخيالاً واسعًا، وشعرًا وأدبًا، ولغة صافية مهذّبة.

فالتاريخ عند هذه الأمة هو بعض نفسها، وجزء من روحها وقلبها وفكرها... تتراءى في مرآته، وتتجلّى على صفحاته.. ودينها كذلك يتراءى أكثر ما يتراءى في البطولي والإعجازي والأخلاقي من تاريخها.

فالتاريخ والدين وجْهان لهذه الأمة، يحضران معًا، ويلتقيان في أقلام الكاتبين عن دينها، والكاتبين عن تاريخها؛ لأنه لا يُفْهَمُ دينها إلاَّ على ضوء تاريخها، ولا تاريخها يُفْهَمُ من غير دينها، فهما متداخلان متنافذان، ووجودان يشكّلان وجودًا واحدًا... وقد كان هذا الاندماج بين الديني والتاريخي سببًا في نشوء واحد من علوم القرآن باسم علم "أسباب النزول" الذي يُعْنَى بأسباب نزول آيِ القرآن الكريم.. وارتباط هذا النزول بوقائع وأحداث حياتية وتاريخية للأفراد والجماعات والأمم للاستعانة به على فهم القرآن الكريم والإحاطة بِمَدلولاته ومقاصده في الآية الواحدة أو الآيات الكثيرات، وإنْ كان الاعتبار الأول لعموم اللفظ وليس لخصوص السبب كما يقول علماؤنا.[11]

---

[11] على سبيل المثال لا الحصر:

* ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾(الفيل: ١-٥)

وأودّ أن أشير هنا إلى أنَّ هذا التاريخ على امتداده وسعته قاصر عن استيعاب متطلبات دين هذه الأمة التي تتجاوز كُلَّ حدود، ولا تقف عند حدود. ففي قدرة هذا الدين أن يصنع تاريخًا جديدًا برموزه ورجاله وأبطاله عندما يخلو أيُّ زمان من أزمنة هذه الأمة منهم.

فتاريخ هذه الأمة مصنوعُ دينها، ولمّا كان مادة أيّ تاريخ هو الإنسان، ولمّا كان الإنسان ليس بكيان ثابت غير متغير، بل هو مشروع تجربة وتغيير في كل حين.. لذلك فإنَّ إنشاء هذا التاريخ بإلهامات الدين في هذا العصر أمر ممكن إذا توفّرت الإرادة والفكر التجديدي القويم، لاسيما وأنَّ في داخل كل إنسان طاقة دافعة باتجاه التغيير والتجديد.

وقد التفت الأستاذ "فتح الله كُولَن" أحد مفكري هذا العصر إلى هذه الخاصية في هذا الدين، فدعا ولا زال يدعو إلى أن تكون للجماعة المؤمنة في هذا العصر أبطالها ورموزها ونماذجها، ليس بالضرورة من أجل أن نُدير ظهورنا لرموز تاريخنا وأبطاله الماضين، بل استجابة لحيوية هذا الدين التي لا تتوقف عند زمان دون زمان، بل لا بدّ لكل زمان من "تاريخ مصغّر" له أبطاله ورموزه ونماذجه التي تضيء وتتألق وتكون للأجيال من خلفها حافزًا وملهمًا، حيث يمكن معاينتهم على الطبيعة، ومقاربتهم

* ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قُرَيْش:١-٤).
* ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾(الْمَسَد:١-٥).
* ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾(الرُّوم:١-٣)
* ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال:٦٧).

والإحساس بهم كبشريّين من لحم ودم يتحركون بيننا، وليس كأشباح يطلّون علينا من بطون التاريخ البعيد.[١٢]

و"كولن" إذْ يضع أُذُنَهُ على قلب الجماعة المؤمنة يحس بنبضات هذا القلب وتطلعاته إلى استمرارية تدفق هذا التاريخ في جميع الأزمنة.. فلا يتوقف عند حقبة من حقبه، ومهما تكن إمكاناتهم متواضعة غير أنهم راغبون بأن يجعلوا من أنفسهم جسورًا يعبر التاريخ من فوقها ويتّخذ منهم أبطاله ونماذجه ورموزه لهذا العصر، وهم إذ يفعلون ذلك يبلغون أسمى أهدافهم في خدمة دينهم وتاريخهم على حد سواء.

إنَّ من أكثر الأقلام أمانةً هي الأقلام التي تكرّس نفسها لتنشيط هذه الأمة وتحفيزها وتحريك طاقاتها، والأخذ بيدها لتحتلّ موقعها الحضاري بين حضارات العالَم، وموقعها الفكري بين أساطين مفكّري الدنيا... وذلك من خلال تعميق إدراكها بالمعنى الإلهي للحياة ولغاية الوجود كما يراها دينها.. وهذا المفهوم الإلهي للحياة والوجود وإنْ كان في ظاهره يعني هذه الأمة دون غيرها، غير أنه في المحصلة النهائية يعني كذلك قضية الجنس البشري برمته.

فالاستمتاع بالحياة ومعايشتها بكافة أبعادها، والاحتفاء بها، واحترامها، والنظر إليها بعين القداسة، من ركائز دين هذه الأمة... وهي بذلك تخالف

---

(١٢) "إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تُشرح ويتم الوقوف عندها بشكل جدي.. فَقَدْ قررت فئة قليلة ملك الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعًا في وقت لم يخطر هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشق خدمة الإيمان لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وآلامَ فراق الأهل والأحبة... قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم... وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريّو الرسل: خُضْنا دروب الحبّ، فنحن مجانين...". (من مقال: "حركة نماذجها من ذاتها"، للأستاذ فتح الله كولن.)

المفهوم المأساوي والإحباطي الذي يدين به رجال الفكر السّوداويّون.. فرجال هذه الأمة حتّى أولئك المضطجعون في قبورهم تفصح آثارهم على أنهم عاشوا في قلب الحياة الفوّار والموّار بقوى الخلق والإبداع والتجديد، وأنهم نسجوا خيوط مصائرهم بأيديهم، فبلغوا من العظمة الإنسانية حدًّا غدا مناط تقدير رجال الفكر العالميين.

فعلينا أن نكون على وعْي بأنَّ "المسلم" هو طاقة زمانية ساكنة، وأنه يمكن أنْ تتفجر في كل مرحلة من مراحل الزمن، إذا هي وجدت مَنْ يحسن إشعال فتيل تفجيرها.. وعندها سوف يصبح الكون نفسه أضيق من أن يستوعب وثبات ذهنه، وانطلاقات روحه مسجّلاً بهذه الوثبات والانطلاقات مرحلة من مراحل تاريخ العالم، فيظلُّ المؤرخون يحسُّون بحرارتها عبرَ الأجيال جيلاً بعد جيل.

إنهم الصفوة المستنيرة، والطليعة الوثّابة، تقذف بها إلى شاطئ الإمكان أمواج الزمن لتمسك بزمام إحدى مراحل تاريخها، ولترسم واحدة من صور البطولة المعيشة على أرض الواقع، ويكونون بذلك شهودًا على مرحلة من مراحل تاريخ أمّتهم، وهم جديرون حقًّا بميراث أمّتهم الديني والتاريخي لقدرتهم على جعل هذا الميراث يؤتي ثمارًا جديدة. فعظمة أيّ تاريخ إنما هي من عظمة الروح التي تحرك أحداثه ووقائعه، وتدمغها بطابع الأبد؛ وسيّئات أي تاريخ إنما هي سيئات الجسد وقصر النظر، التي أحلامه لا تتجاوز الساعة واليوم والشهر والسنة.. فما نحتاجه اليوم للخروج من محبس الزمن الخانق إلى طلاقة الخلود، إنما هو شهامة في القلب، وجذوة في الروح، وذكاء في العقل، وهمة قعساء، وإرادة شمّاء، وغيرة على الحق، وتشبث بالعدل والخير والجمال.

عودة الروح

يمكن تلخيص فلسفة "فتح الله كولن" الإصلاحية، من خلال قراءتنا لكتبه ومقالاته، واستماعنا لخطبه ومواعظه بكلمة واحدة وهي: سعيه الحثيث لعودة روح الأمة إليها من جديد.

ففي هذا الروح تكمن -كما يرى الأستاذ- بطولات الأمة وعبقرياتها وفتوحاتها في مناحي الفكر والحياة.

ومن غير هذا الروح تبقى الأمة في ضياع، وتظَلُّ واهنةَ النفس، جامدة العقل، جافَّة الوجدان، هزيلة الخيال.. لا تبدع ولا تبتكر.. تطلّعاتها متواضعة، وآمالها قميئة.. تَرضى بالدُّون، وتقنع بالقليل.. لا يحفزها المجهول.. تخاف التحدّيات، وتخشى الاقتحامات، وتتجنّب التضحيات، وتَفْرَق من المغامرات.. فكْرها بين الأفكار ضحل، وقامتها بين قامات الأمم قزمة.. بعيدة عن روح العصر، لا تدرك أبعاده، ولا تفهم لغته، ولا ترى قواه المحركة، وكأنها في غيبوبة عن كل ما يحيط بها، وفي غيابَة جُبٍّ لا يمكن الخروج منه.

فالأستاذ "فتح الله" يستحث هذا الروح العظيم للعودة إلى جسد الأمة من جديد، لتدبَّ بها الحياة تسري في عروقها وأعصابها ودمها، وإلاَّ فإنَّ تضحياتها التي قدمتها عَبْرَ القرون السالفة ستذهب سدًى، وتجري متثاقلة إلى متحف التاريخ دون أنْ تجديها نفعًا.

فاندلاع شعلة الروح ساطعةً كاشفة، هي التي تحرّك الأدمغة الكبيرة لكي تستولد من الأفكار ما يدفع الأمة إلى اعتمادها في شق طريقها الحضاري الجديد.

فهذا الروح إذا ما عاد ليستقرَّ في فكر الأمة ووجدانها وثقافتها، فإنها ستكون قوية بما فيه الكفاية على مقاومة مخاطر التردي والهبوط التي تهدد وجودها من كل جانب.

ومن جانب آخر يرى الأستاذ "فتح الله" أنَّ منجم الأمة العظيم هو ذاتها، وهذه "الذات" تخفي كنوز الأمة متجوهرةً في أبعاد غير مرئية من أغوارها.

فهذه "الذات" هي تشكيلة أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمن، حيث كانت مَصَبًّا هائلاً تصبُّ فيه الأمة شؤونها الروحية والفكرية والأخلاقية والبطولية.. فهذه الذاكرة لا يعتورها النسيان أبدًا حين تريد الأمة الاستذكار والاعتبار. لذا صار الكشف عن "الذات" والحفر عن كنوزها -في رأي الأستاذ- هو أولى درجات الارتقاء في سُلَّم النهوض المرجو.

فذات الأمة هي المرآة التي تعكس صورًا من روح الأمة في نضالها الارتقائي عَبْرَ العصور. فالروح والذات، هذان المصطلحان كثيرًا ما يأتيان في كتابات الأستاذ بمعنى واحد، أو يعبر أحدهما عن الآخر، أو يردف أحدهما الآخر ويقويه ويسنده.

فالروح إذا عاد ليحتلَّ مكانه الأرفع من فكر الأمة، وصار العمود الأعظم من أعمدة ثقافتها، فإنها ستقوى على مقاومة التفكك والانحلال في الثقافات الأخرى، وستمتلئ ثقة بأنَّ هذا الروح هو مُدَّخر القدر لصلاح الأمم وإنقاذها من مفاسدها.

فالتعرف على هذه الأمة بتميزها، وبعلاماتها الفارقة بين الأمم، يتم من خلال استكناه ذاتها. وهذا الاستكناه يظل ناقصًا من دون التعرف على روحها الذي يمدُّ هذه الذات بالخصب والحياة. فـ"الذات" و"الروح"

كلاهما يستعصيان على عوادي الزمن، فلا تستطيع الأزمان والأحقاب أن تغيرهما أو تزيد عليهما أو تنقص منهما. وهذا هو سرّ إخفاق كثير من المحاولات في إحداث تصدعات وشروخات ذات أثر كبير في روح الأمة وفي ذاتها، على الرغم من معاول الهدم التي لم تتوقف منذ عُرِفَ دين هذه الأمة، وعُرِفَتْ الأمة بدينها.

فالتنكر لهذين الأصلين من أصول الأمة ومجافاتهما، إنما هو محاولة لنفي الأمّة بعيدًا خارج سياقها التاريخي والإصلاحي، والحكم على مصيرها بالدمار والهلاك.. فهذان الأصلان هما المفتاحان اللذان يفتحان أبواب الأفكار في عقل هذه الأمة، وبدونهما تظلُّ تحدق في عين الخطر دون أن تفعل شيئًا لتجاوزه.

وقد يكون الإعياء الذي نهك الأمة خلال مآسي عصورها، سببًا في انهيار عزيمتها وإقدامها ولاَمُبالياتها، وهذا هو الذي كان يؤرق الأستاذ "فتح الله"، ويعمل على علاجه كما هو مشاهد في منظومة فكره.

رجل الإيمان والدنيا[13]

ذهنه بأفكار إيمانه فَوَّار... وقلبه بمشاعر اليقين مَوَّار... ليله قيام... ونهاره صيام... وإذا جَدَّ الجد فهو مقدام مغوار... والدُّنيا دُبُرَ أُذُنه... وتحت قدمه... هي عنده تراب فوق تراب... منْزل للمارين.. ومحطَّة للمسافرين... الكُلُّ يغادرون... ويمضون... وعلى شيءٍ لا يلوون... مَنْ أحبَّها بحبها قتلَتْه... ومَنْ هام بها هَوَّمَتْه... وحيّرته... وفتنَتْه... وبجمالها الخادع كبَّلته... وقيدتْه... وعبدًا لها جعلتْه... والعسلَ بالسُّمِّ سقَته... لو كرَّعَتْهُ بحارها... وسقته أنهارها... ظامئًا يظلّ روحه... وعَطِشًا يبقى فؤاده... نيران وَجْده لا تنطفئ... وحرقات أشواقه لا تبترد... وناي حنينه لا يني يرسل الأنين... ويبعث الدمع السخين... أشجانه تملأ آذان الليل حزنًا وأسًى... وزفرات هَمِّهِ تشعل النار في سدول الدُّجى... وأذيالِ الماشين في الظُّلَم..!

أُوَّاهُ يا دنيا... بأكواب الموت تذيقينا مراشف الحياة... ومن سرابات صحاراكِ تسكبين في حلوقنا جمرات الرمال... ومن قعور بحاركِ تَبُلّين شفاهنا بالملح الأجاج... فكيف إليكِ نطمئنّ... وبكِ نثق... وعليكِ نتكل... وإلى كنفك نؤوي..؟! فيا فجيعة مَنْ أسلمَ إليكِ نفسه... وأسلس لكِ قياده..! ويا خسارة مَنْ باعَكِ وابتاع منك..! ويا بؤسَ مَنْ طلب المراع منك... والخصبَ على يديك..!

السائر إلى الله كيف إليك يتلفت... ونحوك يتشوف... وأخبارَك

[13] مستلهما من شعر الأستاذ فتح الله كولن المعنون بـ"الدنيا"، من ديوانه "المضرب المكسور" باللغة التركية.

يتسقط... مهما بالزوابع والعواصف فرشتِ طريقه... وحاولتِ تثبيطه... فشَوْقه العاصف لا توقفه العواصف... فعَنْ هدَفه لا يحيد... وعن ربّه لا ينكص... فخنْقه حتى الموت لا تستطيعين... وعقْله لا تشلين... وإرادَته لا تقاومين... وروحه لا تسجنين... وعنقه بالأغلال لا تثقلين... إنه سيد نفسه... لا سيد عليه غير ربِّه... فهو إليه ذاهب... وبعفوه راغب... وإلى رحمته آيب..!

التجديد الدعوي عند الأستاذ فتح الله كولن

١- علم وفن

في كتاب "طرق الإرشاد في الفكر والحياة"[١٤] تبدو شخصية المؤلف محمد فتح الله كولن كواحدٍ من أبرز المنظِّرين للفكر الدعوي في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين.. والكتاب ينمُّ كذلك عن عقل منظم، ودراية عميقة بالإنسان الذي هو المبتغى من الدعوة والدعاة.

فالدعوة عند الأستاذ "فتح الله" ليست مسألة مزاجية يزاولها الداعي قبل أن يُعَبّأ لَهَا فكريًّا ونفسيًّا وروحيًّا. ومن دون ذلك يمكن أن يؤدي عمله العشوائي والمزاجي إلى العكس من المَرجُو من هذه المهمة النبيلة.

فالدعوة -عنده- "علمٌ وفَنٌّ"[١٥]. فما لم يكن الداعية على علم مُعَمِّقٍ بالذي يريد قوله، وما لم يكن على دراية بأقصر الطرق الموصلة إلى روح الإنسان ووجدانه، فإن الإخفاق سيكون من نصيبه. وهو يعتقد أنَّ آمادًا بعيدة وشاسعة ما زالت تفصل بين الدعاة وجوهر الإنسان... وإلى هذا يعزي فشل أي داعٍ في كسب المخاطب إلى صفّ دعوته.

فما لم يكن بوسع الدعاة الوصول إلى هذا الجوهر الذي يقوم عليه كيان الإنسان، ثم إزالة ما تراكم عليه من صدأ كي يتألق من جديد ويبيّن عن معدنه النقي النفيس، فإنَّ الإخفاقات ستتوالى بدون انْقطاع.

---

[١٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، الترجمة عن التركية: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، مصر.

[١٥] انظر: كتاب: طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فصْل: أصول التبليغ في الإسلام، النقاط: ٨، ٩، ص: ٢١٠.

ومن خلال دراستي لهذا الكتاب واستقصاء أفكاره، أستطيع أنْ أُقرر وأنا مطمئنّ إلى أنّ فلسفة الدعوة عند الأستاذ فتح الله كُولن يمكن صياغتها وتلخيصها على النحو الآتي: "إذا كان الانسان جزءً مهمًّا من هذا الكون، فينبغي ألاّ نسمح له بتدمير نفسه، وسحْق روحه؛ لأن دمار هذا الجزء المهم من الكون قد يسبّب دمارًا للكون كله... لذا فنحن مسؤولون كونيًّا وأخلاقيًّا عن هذا الجزء وصيانته من الإنهيار، ولن نسمح له بأن يكون المستثنى الوحيد من التوافق الكوني والطبيعي المدين بدين الله.. فدمار الكون بدمار الإنسان قضية أكدها القرآن، وأشار إليها الأثَر النبوي الذي بَيّنَ أن الساعة لا تقوم، والكون لا ينهار، إلا على شرار النّاس".

والأستاذ "فتح الله" يريد من الدعاة أن يعوا هذه القضية كُلَّ الوعي بأبعادها الكونية والإنسانية، وأن يرتفعوا إلى مستوى المسؤولية، وذلك بإخصاب أرواحهم، وإذكاء أفئدتهم، وشحن أذهانهم، وموازنة حياتهم، وتعميق رؤاهم الإيمانية، وأن يدوروا مع الزمن حيثما دار، ويجروا مع الحياة حيثما جرتْ، ويركضوا وراء الإنسان حيثما مضى، وإلى أي عالم كان انْتماؤه، وأي ثقافة كانت ثقافته ولغته.

وفي عصر "العولمة" هذا، أصبح لـ"العقل الجمعي" قوة تأثيرية أوسع وأسرع مِمّا تستطيعه العقول بجهدها الفردي.. فقيادة العالم وإحداث التغيير فيه نحو الأسوأ أو الأفضل -وكما ترغب العقول من وراء ذلك- يمكن أن يكون أكثر فاعلية إذا مارسَتْ هذه العقول نشاطاتها الذهنية والمعرفية من خلال المؤسسات، سواء كانت هذه المؤسسات اقتصادية أو ثقافية أو سياسية. وببعد نظره، وانفتاحه على عصره، أدرك الأستاذ "فتح الله" أبعاد هذه الحقيقة، وجعلها نصب عينيه، فشجّع على إنشاء المدارس

والجامعات في مختلف أنحاء العالم، وصار للصحفيين والمحررين في "تركيا" مؤسسة تحظى اليوم باحترام وإعجاب من قِبَلِ كلّ العاملين في الصحافة، ودعا إلى إقامة دور للترجمة والنشر والطباعة، كما دعا الصحف والمجلات إلى أن تأخذ بنظر الاعتبار المستويات العمرية والثقافية للمسلمين... غير أن روح الأستاذ وعقله ظلّ يجد في هذه المؤسسات طاقات تحريكية للمجتمع.

والأستاذ لا يرى شيئًا أكثر خطورةً على المسلمين من السكون والاسترخاء والدّعة والاستسلام للنوم والأحلام... فـ"السكونية" عفونة روحية -في رأيه- تقتل المواهب، وتحطم الرجولة، وتخنق البطولة، وتكتم أنفاس العبقرية.

وإذا كان العالم قد استنزفته اليوم قوى الغرب وقيمه وأخلاقياته وسلوكياته النفعية، وأفرغته من كثير من قيم الإيمان؛ فإنّ هذا يحتّم على المسلم أن يبادر بنفسه لكي يعيد لإنسان اليوم عمق الهدفية الإلهية في نفسه.

ومنذ ماتَ النازع الحركي في المسلمين، وتوقفوا عن الهجرة والانسياح في أرجاء الأرض حاملين دعوتهم إلى العالم، منذ ذلك الوقت توقفت إبداعاتهم، وغاب فهمهم، ونَجَمَتْ في أوساطهم إشكالات فكرية موهومة، وخصومات مذهبية جدلية، وانشغل بعضهم ببعض، وربما قاتل بعضُهم بعضًا، متناسين مهمّتهم الدعوية الأساس التي ندبهم الله تعالى إليها.

والأستاذ يريد من المسلمين أنْ يضطلعوا هم بهذه المهمة كفرض كفاية يقوم بها بعض المسلمين، وإلاّ أثِمَ المسلمون جميعًا... وبأموال

المسلمين يمكن إنشاء المدارس في مختلف أرجاء المعمورة، وجعلها مراكز للتربية والتعليم، وربما يكون هذا أسلوبا جديدا غير مسبوق في تعريف الشعوب بالإسلام. وقد أثبت نجاحه حيث استطاع أن يوصل صوت الإيمان إلى أصقاع قصية لم تكن قد سمعت باسمه في شرق العالم وغربه، وشماله وجنوبه، وكافّة قارّاته.

وبانفتاح هذه الدعوة على معطيات العصر في العلوم والفنون والأفكار والثقافات أكسبها المزيد من الاحترام من أوساط واسعة من المثقفين والمفكرين في "تركيا" وفي خارجها... لقد أراد "الأستاذ" للمسلمين أن يكونوا هم الأرقى والأفضل بين العقول، وأن يحتلّوا كرسي الأستاذية التي يرجع إليها المثقّفون في أمور الثقافة والحياة.. إن أيّ إنسان منصف وموضوعي لا يَجرأُ على اتّهام الرجل بالانكفاء والانغلاق والبعد عن المعاصرة.

إن العقلية الحضرية ظلت رافدًا من روافد تشكيل العقل الدعوي عند المتتلْمذين على أفكاره وآرائه، إلاّ أنها لم تستعبدهم يومًا، وما كانوا أبدًا سجناء نظريات وآراء، بل أحرارًا يقبلون منها ما له مَلمَحٌ إيماني، وينكرون ما ليس له مثل هذا الملمح.. وهم لا يعرفون هذا الصراع المؤلم بين ما يقرأونه فكرًا ويحيونه عملاً.. الفكر عندهم هو الحياة، والحياة عندهم هي الفكر... حتى أنّ واحدًا مِمّن خالطهم وعاش معهم وراقبهم يقول في وصفهم: "إنّ حياة هؤلاء الدعاة الملائكية تكاد تبلغ مرتبة "الإحسان" الذي ورد وصفها في الحديث الشريف: «أن تعبد الله كَأنّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فهو يراك»".

٢- طبيعة الإسلام الحركية

إن الدعاة إذا ما ساحوا وهاجروا إلى أي مكان في العالم وضربوا جذورهم فيه، فإنّ الشجرة لا بدّ أن تنبت عن قريب وأن تورّق وتثمر.. وإنّ تاريخًا جديدًا للإسلام سيبدأ يتشكل في المكان الذي زرَعوا أنفسهم فيه.. ولكن أكان في وسع الأستاذ أنْ يُشَرّق ويُغرِّب بدعوته لولم يستوح هذا التشريق والتغريب من طبيعة الإسلام نفسه الذي يأبى السكونية والهمودية، ويأبى المحدودية، ويسعى إلى الأممية.. ولو لم يستوح ذلك من مهاجرة المسلمين الأوائل، وهم يجرون في العالم حيث يجري بهم الإسلام.. ولو لم يكن هو عبقرية دعوية فطنة يندر وجود مثلها في هذا العصر، إنّ الأستاذ نفسه "ظاهرة دعوية" توجب الاهتمام.

إنَ عبقرية الرجل شكّلت تاريخ دعوته؛ فجاءت مطابقة لما رسم لها وخطط، وهكذا نَما ما كان فكرًا في الرأس ليغدو واقعًا في الحياة، وما كان حلْمًا بعيد المنال صار حقيقة في متناول اليد، وما كان مادة دعوية صغيرة في خطبة أو وعظ أو كتاب، أصبح صرحًا دعويًا شاملاً وكبيرًا، وما كان جزءً صار كُلاً.

كل هذه الوقائع في حياة الدعوة شيء منظور وملموس... أما الشيء غير المنظور وغير الملموس، فهو العناية الإلهية التي كانت تقود مسيرة الدعوة خطوة بعد خطوة في ظلّ إخلاص الرجل، واستعانته بالله، وتوكّله عليه.

٣- الجفاف الروحي والجدب الفكري

إنّ معالجة الجفاف الروحي والجدب الفكري لدى شباب الإيمان كان من أبرز مهماته، كما أن تفجيره لقواهم ولطائفهم وإطلاقها من معاقلها

استنزف الكثير من الوقت والجهد... لقد عمل على إثارة اهتمامهم بمشاكل الوجود الإنساني، وتحفيزهم للتعاطف معها، وإعمال أذهانهم في البحث عن حلول عملية لها، وكان يرى أن جهلنا بالإنسان يجعلنا نقف حائرين تجاهه، لذلك اهتمّ هو شخصيًا بالدراسات البيولوجية والسايكلوجية، وشجّع بعض الدعاة للتخصص بهما لكي تتوفر للدعوة معلومات أكثر عن كينونة الإنسان وكيفية التعامل دعويًا معها، مما جعل هؤلاء يتعمقون الأشياء ويحاولون الكشف عن غير المرئي فيها... وأكثر من تنبيههم إلى الفوضوية الروحية التي تجتاح العالم اليوم، والتي تستدرُّ العطف والإشفاق من أصحاب الغيرة على الإنسان.

وفي صلواته وتضرّعاته وتهجّداته كان يعلّمهم بأنّ قليلاً من الإخلاص في التوجّه إلى الله تعالى يجعلهم يشعرون بأمواج الأبدية وهي تصطفق على شواطئ أرواحهم، وأن كل واحد منهم ليس واحدًا في هذا العالم بل هو كل بإخوانه. وكان كثيرًا ما يشير إلى بعض شخوص حضارتنا التي أصابها الدمار والتدهور هنا وهناك من أرجاء العالم، ويذكّرهم بمسؤولياتهم كطليعة إسلامية بواجبهم في الحفاظ عليها، وإقامتها من وهدتها من جديد، وإنّ "الغرب" ما لم ينتقل من محدودياته المادية إلى "اللامحدوديات" الروحية، ومن وثنيّات المال والاقتصاد إلى وحدانيّة الربوبية والألوهية، فلا أحد يستطيع إيقاف عجلة تدهوره وسقوطه عاجلاً أم آجلاً.

٤- الصمت والعمل

إن الروح العظيم الذي تملكه هذه الدعوة هو أكثر صمتًا، إلاّ أنه أكثر عملاً، وهي تملك قوى هائلة من إمداد الله تعالى تجتذب إليها جماهير

واسعة من أذكياء الناس ومن ذوي الكفاءات العقلية والعلمية، وحتى أولئك المنسحقون تحت عجلات معايشهم من ذوي النفوس الهشّة يمكن أن يقوموا من بين رماد أنفسهم لو مسّتهم جذوة من جذوات روح هذه الدعوة... إنّ سرّ قوّتها هو في تطابقها مع قوانين النفس البشرية.. والذين سئموا من التحليق حول جيف الدنيا سيجدون في أجواء هذه الدعوة ما يتُوقون إليه من الطهر والنقاء.. والقلقون من أصحاب الذهنيات المعذّبة، والنفوس المحترقة فسيرَون واحتهم البَرودَ في صفوف هذه الدعوة... أما أولئك الذين يتهيبون الإسلام ويخافون منه، فسيلمسون ألاّ شيء أكثر أمْنًا وأمانًا وسلامًا من الانضواء تحت لوائه، وأن المعرفة كُلّ المعرفة فيه، وأنّ مَن لا يعرفه فإنّه لا يعرف في الحقيقة شيئًا... وسكارى الأحزان، ومسحوقوا الأوجاع سيجدون في صيدلية هذه الدعوة البلسمَ والشفاء.

لقد تعلّم شباب الدعوة من أستاذهم كيف يغمسون ألسنتهم في رحيق الروح إذا تكلّموا، وكيف يذوبون في دعوتهم ويسيلون في مفاصلها، ثم يصّعدون إلى أعلى لينزلوا بعد ذلك قطرات ندى فوق النفوس العطشى والأكباد الحرّى... إن طهرهم ونقاء سريرتهم قادرٌ على أن يغطّي العالم كله.. إنهم عالمٌ من البَسمات يعوم في بحر من الدموع، وصراخ الإنسان المفجوع بروحه يجد صداه في أرواحهم فتجيب: "لبيك... لبيك... آتون إليك... قادمون نحوك..!". أما الآذان الجائعة إلى كلمة الحق، فستجد في كلماتهم أشرف ما نزل من السماء من الحق على بني الإنسان.

لقد فضّ الأستاذ فتح الله خاتم الصمت عن روحه، فانطلقت أشواقه تلهب روح كُلّ مَن يلتقيه أو يستمع إليه أو يقرأه... إن نور الجلال بقدر ما هو صاعق إلاّ أنه ينطوي على جمال مؤنس، وما بين اسميه تعالى "الجليل"

و"الجميل" وتجليات أنوارهما في الكون والحياة والإنسان تتقلب قلوب أصحابه... فجلال الدعوة يبني حولها سورًا يحجبها عن مطمع كُلّ طامع، «نُصرتُ بالرّعب من مسيرة شهر»[١٦] أو كما قال عليه الصلاة والسلام... والجمال هو الأنس واللطف والود والرحمة والرقّة واللين، فهي بهذا توطئ أكنافها لكُلّ مَن يأتيها برغبة صاقة، وإرادة خالصة.. إنها مستعدة أن تذيب حشاها في حشاه، وتطعمه فؤادها، وتسقيه ماء عينها.

٥- إكسير الدعاء

الدعوة والدعاء -عند الأستاذ فتح الله- شيئان متلازمان لا ينفكّان... فالدعوة عبادة، ومخ العبادة الدعاء كما ورد في الحديث الشريف... فنستطيع أن نقول دون حرج: إنّ الدعوة كُلّها دعاء، وليست شيئًا آخر غير الدعاء؛ دعاء بلسان الحال أو بلسان المقال، وبين الحال والمقال ترتفع الليالي مثقلة بالتهجدات، موقورة السمع بالتضرعات، نضّاحة بدمع القلوب، صرّاخة بوجد الأرواح... ورَكْبُ الدعوة يمضي في طريقه مُشَرّقًا أو مُغربًا، صاعدًا أو نازلاً، يقوده صواب المنطق، وتحدوه فطنة الحكمة، ويأتيه المدد الإلهي من كل جانب، وتواكبه العناية الربّانية حيثما مضى، وأنّى ألقى عصا ترحاله.

* * *

شباب الدعوة هؤلاء أفواههم مترعة بشهد ذكر الله... إنّ توجههم إلى الله تعالى فطرة وسجية، شيء تلْقائي من دون تكلّف، يغمرك أحدهم بأفضاله، فإذا قلت له: إنك عاجزٌ عن شكره، وعن مجازاته.. يبتسم ويقول

[١٦] البخاري، كتاب الصلاة، رقم الحديث: ٤١٩.

لك: إنك تستطيع ذلك...

تقول متلهفًا: وكيف..؟

يقول: ادْعُ الله لي... ادْعه ليرضى عني...

ما هذا...؟ أهؤلاء ملائكة في إهابٍ بشري؟ لا أدري...

مرةً الْتقيتُ بعضَ شباب الدعوة على مائدة الإفطار في رمضان، سألت أحدهم: "هل أنت متزوج..؟"

ابتسم ثم قال: "لا..!"، ثم أردف يقول -ظانًا بي الصلاح-: "ادْعُ لي..!".

فظَنَنْتُ أنه يريد دعائي لكي يسهّل له الله أمْر زواجه...

وعندما بدأ هؤلاء الشباب بالانصراف واحدًا إثر آخر، إذا بصاحبي يودّعني ويهمس في أذني: "أدعُ لي..!".

قلتُ: "الله تعالى يرْزقك ببنْت الحلال..!".

ابتسم بحزْن ثم قال: "ليس هذا ما أريد..".

قلت: "ماذا تريد إذن..؟"

قال: "أن يشملني الله تعالى برضاه..!".

أكبرتُ همّة هذا الشاب... كُلّ شباب الدعوة من هذا الطراز، هِمم عالية، همُّهُم الذي يعيش معهم في ليلهم ونهارهم وفي كل وقت أن يقْبلهم الله في كنفه، ويشملهم برحمته ورضاه.

تذكرتُ... إن الله تعالى يرحم عباده يوم القيامة بدعاء بعضهم لبعض، وبترحم بعضهم على بعض... ما زلنا للأسف الشديد نقع في شِباك الكلام.. يمطرك أحدهم بوابل من كلام ميّت لا ينبض بالحياة، ثم إذا عصرته لم تجده شيئًا، وربما يغطي عنك وجه الله ووجه الآخرة... أما هؤلاء إذا رأيتَهم ذكرتَ الله... ذكرتَ الآخرة... ذكرت الرحمة الإلهية.

٦- العالم الأحجية

العالمُ الأُحجية لم يعد عندهم أحجية... أخرجوه من قُمُطه... كشفوا عن أسراره... العالم عندهم خَلقٌ وخالق... خَلْقٌ في دعاء مستمر لا ينقطع بلسان الفقْر والعجز والضعف والحاجة.. وخالق قادر مقتدر غني قوي، يتكرم ويتلطف ويجود ويترحم: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾(الفرقان:٧٧) ومما سيبقى مرتسمًا في مخيّلتي لا يمحوه الزمان ما رأيتُه -في شريط فذيوي- من حال الأستاذ فتح الله شيخ الدعوة وهو يعِظ؛ إنه إذا ذكر الله قام فوقَف، وإذا ورَد اسْم محمد ﷺ على لسانه قام ووقف، دامع العينين، يزفر زفرات الحسرة على أمّة غافلة عن دينها، فتطرّق إلى ما لاقاه ويلاقيه من خصوم الدعوة، ومن تهديدهم ووعيدهم، فقام من مكانه ورفع يديه إلى السماء في تضرع... وظلّ يردد جملة: الله كافيني... الله كافيني... كرّر هذه الجملة ما يقرب من عشر مرات بتوجّع وألَم ودمع غزير، حتى سقط على كرسي الوعظ مغشيًّا عليه.

انذهلتُ أيما انْذهال... لم أر من الدعاة مَن يبلغ به إخلاص الدعاء هذا الحد، إنه لا يبكي لنفسه، إنه يبكي لدعوته. ويبكي إشفاقًا على هؤلاء الخصوم الضُلاّل، ليس ببكاء الضعفاء والمهزومين، بل هو بكاء الأقوياء الواثقين من صدق دعوتهم... هؤلاء الذين إذا بكَوا هزّوا العالم، وأيقظوا فيه نخوته وشرفه وأريحيته، وكلّ خباياه من قوى الحق والصدق والخير والجمال.

* * *

إنه يكتب ويعظ ويخطب ليبعث العزائم في خَورِ النفوس، ويستنهض الروح الإيماني الخارق للطبيعة البشرية.. هذا الروح الذي لا يعرف

الإحباط مهما كانت صعوبة الظروف التي تحيط به... وإذا ما زاد الظلام حلكة أشعل روحه لكي تضيء له ولغيره الطريق، بمثل هذا الروح تناط مسؤولية إنهاض بيت الإيمان والإسلام من بين الأنقاض من جديد. إنه يهيب بالمسلمين أن يخلعوا هذا الثوب المخزي من الخذلان المشين، وأن يقطعوا كلّ شريان يريد أن يغذوهم بدم فاسد يودي بحياتهم الإيمانية.

إن الدعاة الذين تتلْمذوا على آراء الأستاذ هم الروح الجديد الساري في مفاصل المجتمع، والدم النقيّ الذي يسقي فؤاده... إن مسؤولية تشكيل المجتمع على شاكلتهم مناطة بهم، وبسواعدهم شرعت محركات الروح في الدوران.. إنه يحذر من الهلاك الروحي المخيف، والسقوط في هاوية الانحلال النفْساني الداخلي.. إنه لا ينفكّ يدعو أولئك الذين يريدون الخروج من مستنقع الوحل ولكنهم لا يعرفون السبيل إلى ذلك.. إنه يدعوهم إليه لينخرطوا في صفوف الإيمان.

٧- الكتاب المفتوح

والأستاذ فتح الله بعد ذلك كتابٌ مفتوح؛ كُلُّ صفحاته وسطوره مقروءة ومكشوفة، ليس فيه صفحات مطوية عن العيون، أو صفحات مكتوبة بالحبر السري. وكما كان رسولنا الحبيب ﷺ سِفْرًا مفتوحًا يقرأه مَنْ يريد، من تاريخ ميلاده إلى يوم انتقاله إلى الرفيق الأعلى... هكذا ينبغي أن تكون حياة أصحاب الدعوات وأفكارهم.. حياة كلها نهار لا ليل فيها، وضحى واضح لا لَبْسَ فيه، وظاهر لا باطن له، لا أسرار ولا خفايا... إنه لم يزاحم أهل الدنيا على دنياهم ولن يزاحمهم. إن الدنيا نفسها لو جاءته تسعى لعزَف عنها وأدار إليها ظهره. إنه مشغول بدعْوته، بإنقاذ إيمان الناس...

إنّ إنقاذ إنسان واحد من وهدة الضلال هو خير له من الدنيا وما فيها.. وإعادة إيمان غائب إلى قلب إنسان هو أعظم ما يطمح إليه.. وإيصال صوت الإسلام إلى أسماع مَنْ لم يسمع به، هو غاية الغايات عنده. هذا هو فتح الله كولن، وهذه هي دعوته، يعلنها على رؤوس الأشهاد، لا يكتم منها شيئًا، ولا يخفي منها شيئًا.

* * *

إنَّ سِرَّ قوة هذه الدعوة يكمن في علانيتها ووضوحها وعموميتها، وفي المرونة التي تؤهلها لمحاورة الشخصيات المعنوية الكبيرة في الدولة والمجتمع، ومن نفاذ بصيرتها لترى في الآخرين مهما بدا بُعدهم عنها، ومجافاتهم لها، عرقًا فطريًّا خفيًّا ينزع بهم نحو الاقتراب منها، أو على الأقل عدم معاداتها والنفور منها.

إنه يرى أنّ قضية الإيمان قضية تتعلق بالكون كتعلقها بالإنسان، وأن صلاح الكون بصلاح الإنسان، وفساده بفساد الإنسان.

وفي كتبه يحذر العالم من العبث بالإيمان، أو مناصبته العداء، أو الاستهانة به... فالإيمان هو جوهر الكون، والمساس به هو مساس بجوهر الكون، وأي عبث به يثير غضب الكون، ويحفز ثورة الطبيعة... وقد آن الأوان لكي تنتبه البشرية إلى بعض علامات الثورة الكونية التي تسبق الدمار والانهيار العام وقيام الساعة.. ومن علامات هذه الثورة الكونية الزلازل والبراكين، وتلوث الأجْواء والبحار، وغور الينابيع والأنهار، وكثرة الأمراض، وتفشي القتول والحروب، والقحط والجفاف والتصحر الذي يضرب مناطق واسعة من شتّى قارات العالم، وملايين الجوعى الذين لا يجدون ما يسدّون به الرمق... فما لم تعد البشرية إلى احترام

الإيمان وحمله على محمل الجدّ والاهتمام به كأعظم حقائق الوجود قاطبة، فإنّ الآتي من الأحداث سيكون الأعظم والأخطر والأفجع.

٨- فن القيادة

استطاع الأستاذ فتح الله أن يقود الدعوة بكثير من المهارة والدراية، وبالمزيد من الحكمة والفطنة، وأن يجنبها ما استطاع المخاطر والمزالق والمآسي. فالدعوات الإلهية جديرة بأفئدة العظماء من الرجال، من ذوي العقليات المرنة، والأمزجة التفاؤلية المستبشرة. أما أصحاب الأمزجة السوداوية التي تسبغ ثوب المأساة على أتفه الأحداث، فينبغي ألاّ تتبوأ أيّ منصب قيادي، لأنها لا تجد راحتها إلاّ في الشكوى والتبرم والنواح بعد أن تكون قد صنعت بيدَيها دواعي هذه الشكوى وهذا العويل والنُّواح.

إنَّ الإنسان ينبغي أن يكون قويًّا ومتفائلاً -كما هو الأستاذ فتح الله- مهما بلغت درجة الإحباط والتثبيط من حوله. إنَّ استشعاره بحقيقة كونه نفخةً من روح الله تجعله يختال استبشارًا، ويمتلئ حبورًا... وإني لأعجب للإنسان الذي يستشعر هذه الحقيقة بقوة وعمق كيف لا يقفز قلبه من بين ضلوعه فرحًا.. وكيف لا يطفح الحبور من جوانب نفسه.. وكيف يطيق العيش لضيقَ الأرض.. وكيف لا يزاحم الملائكة في السماء.. وكيف يستسلم للحزن والقهر.. وكيف لا يحوز العظمة.. وكيف لا يلد ضَعْفُهُ قوةً.. وكيف لا ينظر إلى بشريته بشيءٍ من القداسة.. وكيف لا يرى أنه كُلُّ شيءٍ، وكُلُّ شيءٍ من حوله لا شيءَ أمامَ جبروت هذه النفخة الإلهية السارية في كيانه.

إن الروح العظيم يُحَدِّقُ في عين المخاطر ليس من أجل أن يقع تحت

تأثير سلطانها، بل من أجل أن يقهرها، ويسود عليها، حتّى لتغدو هذه المخاطر مفاتيح تفتح الأفكار، وتحفز طاقات التحدي، وتثير النفخة الإلهية لكي تأتي بأعاجيبها، وتخلق معجزاتها.

٩- ماذا تعني الثقافة؟

إلاّ أنّ ثقة المثقفين بما عندهم من ثقافة، واكتفاءهم بها عن ثقافة الروح هي إحدى مضحكات هذا العصر، وكأنَّ الثقافة يمكن أن تقوم مقام الدين فتغني الرّوح من جوع وتؤمنه من خوف..!

وإذا كانت الثقافة تعني في مجملها زيادة في إدراك الإنسان، فإنّ الدين نفسه هو أعلا درجات الإدراك وأشمله.. والثقافة تفقد معناها ساعة تزعم أنها قوة إدراكية مستقلّة ومكْتفية بما عندها عن أيّة إدراكات أُخر، لأنه لا يوجد في الحقيقة وجود ثقافي مستقل لا يرتبط بمعارف أُخَر سواء كانت من خارج الإنسان أو من دواخله... فمعارف الضمير وإدراكاته الجوّانية العميقة شيءٌ لا يمكن إنكاره، وما لم يكن هذا الضمير عنصرًا فاعلاً من عناصر أي تكوين ثقافي، فإنّ مكتسبات الإنسان الثقافية يمكن أن تكون عامل تدمير له بدلاً من أن تكون عامل بناء وإعمار.

هكذا كان الأستاذ "فتح الله" يخاطب المثقّفين، ويستمع إلى ما يعنّ لهم من آراء وأفكار، ويناقشهم فيها، ويصغي إلى تساؤلاتهم وإلى إشكالاتٍ يبحثون لها عن حلول في قضايا الإيمان والإسلام.

كان يغوص معهم في سعة الإنسان، وفي عدد طبقات كيانه التي تمتدّ من سطح "أنا" إلى الأعماق النهائية التي تنكشف في خاتمة المطاف عن النازع الإلهي فيها.. ويدعوهم إلى المضي مع هذا النازع الذي تنبع منه

أفكار الروح، وثقافة الوجدان.. ويطلب منهم أن يستيقظوا من كابوس تاريخ "أنا"، لأنه ليس هو التاريخ الحقيقي لجوهرية الإنسان، إنه يطفو على السطح، بينما التاريخ الحقيقي يكمن في الأعماق حيث يمتدُّ زمانه من الأزل حتى الأبد: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١).. إنه يدعوهم للنهوض من قبر "أنا"، لينفضوا ترابه عنهم، ويسارعوا للتعرّف على تاريخهم في مرآة الهاتف الإلهي في الأعماق، لأنه هو حقيقة تاريخهم.

إنّ أيّة لحظات زمانية يدعها المسلم تمضي بعد أن يكون قد أترعها من عصارات روحه وفكره هي التي تشكل أنصع فصول تاريخه على الأرض وفي السماء، وهي ستبقى مفعمة بالحياة لن يطالها الموت حتى تصير جزءً من يَمّ الخلود فيما وراء هذا العالم.

إنّ حياة المثقف المقفرة من أمثال هذه اللحظات الخالدة إنما هي حياة مرعبة وموحشة. صحيح أنّ الثقافة قادرة على صياغة الأذهان، لكنها عاجزة عن صياغة الأرواح... والذهن يحيا ويموت، وهو أسير النسبيات؛ في الوقت الذي يظل الروح يجوب عوالم المطلقات... وما بين هذه المطلقات والنسبيات يتردد الإنسان، ويقوم تاريخ ويموت تاريخ، وتستيقظ حضارة وتندثر أخرى.

١٠- الكائن الروحي

إنّ الدعوة -عند الأستاذ فتح الله- كائن روحي في إهابٍ بشريّ، شخص معنوي ذو ذاتية مستقلة لكنها منفتحة على جميع الذوات، وذو إدراكٍ عالٍ غير أنه ملزمٌ بمخاطبة جميع الإدراكات... وإذا كانت دعوة الإسلام قد غيرت وجه العالم القديم، ورسمت خارطة جديدة لفكره

الديني، فهي اليوم مرشحة كذلك للقيام بالدور نفسه في عالم اليوم.

إنّ حدسه قلّما يخطئ، وفراسته لا تكذب، وإنّ المسألة كلها مسألة وقت، ومسألة زمن قد يطول أو يقصر.. إلا أنه قادم بمشيئة الله لا ريب في مقدمه.

إن مستقبل الإيمان في هذا العالم منوط بهؤلاء الأطهار من شباب الدعوة... وبإحساسهم بعِظَمِ المسؤولية عن الدعوة وهي تشقُّ طريقها.. إنها تدور حيث يدور روح العالم، وتتحرك على إيقاع نبضات قلب الكون.. وهل روح العالم شيءٌ غير القرآن، وهل قلب الكون أحد سوى محمد ﷺ..؟!

إنّ دعوة يكون القرآن روحها، ومحمد ﷺ وجْدانها، لا يمكن أن يحول شيءٌ بينها وبين أداء رسالتها، ولا يمكن أن تتوقف عن المسير إلاّ حيث يقف قلم القُدرة أو ينكسر قلمُ القدَر... فلا قلم القدرة يقف، ولا قلم القدر ينكسر.

١١- اختبار الأقدار

وعلى الرغم من روح التفاؤل والاستبشار التي تطبع حياة طلاب الأستاذ فتح الله، إلا أنه لم يغفل -وهو الداعية الحصيف الذي عرف الألم وخبر المحن- ما يمكن أن تخبئه الأقدار من امتحان ومحن له ولطلابه... فالألم واحدٌ من عناصر الطهر والتطهير للدعوة والداعية، وواحد من قوى النضال الروحي الذي تخوضه الدعوة في جهادها المعنوي. إنّ الحالة الذهنية المضطربة التي يعيشها الآخرون، وإحساسهم بالدوار، وشعورهم بالخوف من الانهيار في أية لحظة، ربما يدفعهم في لحظة يأس إلى

مناكفة الدعوة وإشهار سيف العداء في وجهها إلى حدّ الموت... هذه سُنّةٌ جارية عرفناها في كل الدعوات كما تشير إليها الآية الكريمة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة:٢١٤). لذلك فقد هيّأ أذهانهم لهذا الأمر مسبقًا.

وفي كتابه آنف الذكر يقول الأستاذ فتح الله:

"إنه لا مفاجأة ولا عجب لصاحب أي دعوة كانت مجيء البلايا ونزول المصائب، بل هي منتظَرة، لأنه لم يحدث خلافه لحد الآن. ذلك لأن هذا العمل من المهام الجسيمة، وما لا يتحمله إلا أولو العزم من الرجال، وما لا يقدر على جزائه إلا الله سبحانه وتعالى... وستعلو بهم هذه الأمور العظام ليكونوا مع أولئك العظام، ولكن سيتعرّضون هنا للبلايا والمصائب التي هي ملازمة لأولئك العظام، وما عليهم إلاّ التجمل بالصبر اللائق بأولئك العظام"[١٧].

ويمضي الأستاذ فيقول: "يبين الرسول الكريم ﷺ في حديث شريف أهمية هذه الوظيفة الجليلة إذ يقول: «خِيار أمّتي بين جُهَلائهم في بَلاء وجِهاد»[١٨] وحديث آخر يؤيد هذا الأمر: «المسلم إذا كان مخالطًا الناس ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[١٩]..."[٢٠].

ويمضي فيقول: "نعم، القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في

[١٧] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٥٧.

[١٨] الفردوس، للديلمي، ١٧٤/٢.

[١٩] الترمذي، القيامة ٥٥؛ ابن ماجه، الفتن ٢٣؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٤٣/٢.

[٢٠] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٥٨.

مجتمع فاسد آسن، عبادة أفضل من انكفاء المرء على نفسه متفرغًا للتعبد في زاوية قصية بعيدًا عن المجتمع.. ولو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من العبادة الشخصية لكان الرسول الكريم ﷺ لا يغادر بيته، ويمكث منشغلاً بالفيوضات والتجليات الربّانية، وما كان يخالط الناس قطّ... وكذا لو لم تكن هذه الوظيفة أفضل من غيرها من الأعمال، ولاسيما اعتزال الناس لَما خُوطب بـ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾(المدثر:١-٢)"[٢١].

من مجمل آراء الأستاذ فتح الله كما وردت في كتابه "طرق الإرشاد في الفكر والحياة" نستنتج أنه يريد من الداعية أن يكون كيانًا إنسانيًا مشعًّا لا يتوقف عن بث شعاعه.. فكما أنّ بعضًا من عناصر الطبيعة المشعة لا تستطيع أن تكُفَّ نفسها عن الإشعاع حتى لو أرادت، وكما أنّ الشمس لا تستطيع التوقف عن إرسال ضوئها إلى الأرض، والقمر لا يقدر أن يحرم الليل من نوره، والكوكبَ الدّرِيّ في أجواز الفضاء لا يخفي لمعانه عن كبد السماء، هكذا الإنسان الداعية لا يمكنه أن يحبس نوره عن الآخرين، أو يستر ضياءه عنهم... لأن الدعوة لهب يشعل ذرّات دمه، وضياؤه يموج في حنايا ضلوعه، فهو يضيء في أيّ مكان يحلُّ فيه أو يرتحل عنه.

فلو انْهار الكون فجأةً، وتناثرت كواكبه، واصطدمت أجرامه، وسقطت السماء على الأرض، وكادت القيامة تقوم، وفي يد الداعية فسيلة نور، فإنه لا يعدم قلبًا يزرع فيه فسيلته، قبل أن يغدو العالم رمادًا تذروه رياح العدم، فلا شيءَ يذهب سُدًى. ولأنّ العطاء عنده صار طبيعة وسجية، فهو لا يستطيع أن يتوقف عن العطاء، دون أن ينتظر شيئًا مقابل هذا العطاء، إلاّ الرضى من الله تعالى... لذا فإنّ دائرة مستمعيه في اتّساع، وصوت دعوته

---

[٢١] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٥٨.

في ارتفاع.. إنّ الداعية الحق إنما هو عمود من نور يصل ما بين الأرض والسماء، ويظلُّ القلم العلوي يرهف سمعه ليلتقط كلمة من فم الداعية، ليخطَّها على صفحة الكون، ويودعها الكتاب المبين.

يقول الأستاذ فتح الله في هذا الصدد: "إن الإنسان الكامل الوارث للنبي ﷺ لا يفلت منه نورٌ يفاض عليه من الفيض الأقدس، حتى كأنه مركز استقطاب كبير لابتلاع الأشعّة المنبعثة من الشمس. فلا يهدر ولو ذرّة من كل فيض مقدس يرده بتجليات الأحدية، وينتقل إليه بتجليات جمالية لطيفة تلاطفه بإسباغ الرحمة، فتكون جميع أركان قلبه في نشاط مستديم وفعالية دائمة، ساعيًا ليكون مرآة عاكسة لهذه الفيوضات..."[22]

١٢- الفتح القريب

إنّ الدعاة إلى الله تعالى، هم بحدّ ذاتهم إعلانٌ سارٌّ عن نصر منظم للإيمان، وعن فتح قريب للإنسان... إنهم إخوة البشر، وأشقاء الإنسان، لأنهم يمتّون بنسبٍ إلى كل قلب... يَرْثُونَ للأرواح السليبة من النور، وللقلوب المجدبة من فجر اليقين... إنهم أطبّاء القلوب. وكما تنبجس الحياة من الموت، هكذا -وبلمسة منهم- تنفجر الحياة في موتى القلوب، لذلك صاروا مثابة يَؤُمُّهمْ الجَمُّ الغفير من أخيار الناس طلبًا للنجاة والشفاء... هؤلاء هم الدعاة العالمون والعاملون، أما أولئك الذين يعلمون ولا يعملون، فيقول عنهم الأستاذ فتح الله: "...فهُم كالثقوب السوداء لا تعكس نورًا إلى شيءٍ، فلا يستفاد بشيءٍ من طاقاتهم الضوئية."[23]

ثم يمضي فيقول: "إنّ عمَل المرء بما علِم تعبير عن توقيره لعلمه، إذ

[22] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٦.
[23] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٦.

عدم القيام بالعبودية لمن عرف ربه هو عدم توقير له، وعدم اكتراث، بل بلاهة وعمى وصمم.. ولاسيما من تولّى عناء خدمة الإيمان وتكاسل عن العبودية، فهذا أمر مخيف أكثر من مخافتنا للعدو الخارجي.. والحالة التي يتقمص بها الغربيون حينما يرون غير الملتزمين من المسلمين، وما يتفوهون به له دلالة لهذا الحكم، إذ الكلام أو الشهادة من الخصم له دلالة خاصة."[٢٤]

والطاقة الأخلاقية الخلاّقة هي سلاح الكفاح عند رجل الدعوة. والعمل البطولي الذي يمارسه في دعوته شيءٌ يملأُ حياته بالقيمة والمعنى. فالعمل البطولي -أيًا كان- إنما هو كفاح "المعنى" ضدّ "اللاّمعنى"... وكم تكون حياة المسلم خاوية وعديمة النّفعِ عندما تكون مقفرةً من البطولة، كما يرى الأستاذ فتح الله.

فالنفوس البطولية لا تُهزَمُ أبدًا، وهي إذا خَسِرَت بعض معاركها إلاّ أنها سُرعانَ ما تعاود الكفاح ولو من منطقة الصفر... إنَّ الداعية البطل ثابت الجأش، متماسك النفس، قوي الإرادة، صاحب رصانة علوية، نبيل الفكر والروح، دائم التوثب، لا يخفُتُ حماسه، ولا ينطفئ وَجْدُهُ، لا يعْيَا ولا يكلُّ، ينخلع عن نفسه إذا خَذَلَتهُ، أو أغْرَتْهُ بالقعود... في دمه تحيا دعوته، وفي روحه تسكن أمجاد أُمة، وتاريخ إيمان، وفجر الأبد، ويقين الخلود... إنهُ عالَمٌ متينٌ من القوة التي لا تعرف الضعف أو الانهزام.. تَدْهَمُهُ بوارق الحِدّة إذا انتُهكت حرمة من حرمات الله، وتترعه أنداء الرأفة على أولئك التائهين الضالين من بني الإنسان.. وعلى وفرة رجولته، ورجاحة فضله، جَمّ التواضع.. صَوّامُ اللسان إلاّ عند الضرورة، لا يثيرُ ضجيجًا، ولا يُقيم

---

[٢٤] طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٧.

مَناحةً.. لا يَتَفَجّعُ ولا يَتَشكى.. إنه يدور مع القدَر حيث دار، ومع القدرة يستمدّ منها القوة، ويطلب منها المدد... هذا وصف طالب الأستاذ، أو بالأحرى إلى هذا يدعو الأستاذ طلبته ومحبّيه، لأنّ: "عمل المرء بما يعلم تعبير عن توقيره لعلمه"[٢٥].. ويقول: "إن مجتمعا لا يعرف دينه، ولا يعرف ربه، ولا يفهم عن كتابه، وليس له من المظاهر ما يجلبه إليه كيف يلتحق به الغربي؟ فهو ينظر أول ما ينظر إلى الواقع العملي، وإلى بناء قلب المسلم وعقله. إذ يهتم بأناس تتماوج في آهاتهم الحسرات حبًّا للإنسانية وإشفاقًا عليها، يقضون لياليهم بالتهجّد والقيام لله، وألسنتهم رطْبة بذكر الله، لا يهدرون الوقت ما استطاعوا، بل يشغل كل منهم كل آن من وقته بما يفيد وينفع.. نعم إنهم يهتمّون بأناس مشحونين بمثل هذه الطاقات"[٢٦]. إلى أن يقول: "فإذا ما تمكن الذين يمثلون الإسلام أن يصبحوا على هذه الشاكلة فسيهرع الغربيون إلى الإسلام ويدخلونه أفواجًا. ولكن لأن الحالة معكوسة، تجلّت النتيجة معكوسة أيضًا، فابتعدوا عنّا حاليًا"[٢٧].

١٣- مشاعر المحبة

في قلوب هؤلاء الدعاة والأطهار تزدهر الشفقة والرحمة، وفيها تنمو مشاعر المحبّة. وما يشغل قلوب الآخرين من أمور لا صلة لها بحقيقة جوهرهم يعرضون عنها، ولا يلقون إليها بالاً. إنهم يتجنّبون زحام الأباطيل ما يسعهم ذلك، ويشعرون بالانسحاق الروحي في زحمتها. فالروح الحصيفة الواعية تعاف أنشطة أولئك الذين يمارسون سلوكياتهم

---

(٢٥) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٧.
(٢٦) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٨.
(٢٧) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ص:٩٨-٩٩.

بالجزء اللاّواعي على حقيقة وجودهم. إن عظماء الدعاة مشغولون دائمًا بأقدس الأفكار وأطهرها.. إنهم واحة خضراء وسط صحراء السطحية الغبية.. إنهم يتحرون عن إرادة الله في أنفسهم، وفي الفهم عنه.. وهم يرون سعادة أرواحهم في مرآة هذه الإرادة، وتمام حياتهم في حياة أخرى وراء هذا العالم الفاني.. وهم يراقبون أنفسهم ويسارعون في ترميم ما ينهار من عزائمهم، وما ينصدع من إراداتهم باللّجوء إلى كتاب الله والاستمداد من نور رسول الله ﷺ. واغترابهم الروحي ميزة عالية ينجذب إليها مَنْ يرى فيها استعلاءً على تفاهات البشر.. وعلاقاتهم الحميمة مع "جنس الإنسان" تفتح لهم منافذ الاتّصال بالعالم.. وما يلاقونه في سبيل الدعوة مِن عقبات ومناكفات وتعاسات -صغيرة كانت أو كبيرة- لا تثبط هممهم، ولا تقتل رجاءهم... إنهم أذكياء اللُّبّ، شهماء الأفئدة، على قلوبهم مدوناتٌ نورانية من عالم الغيب.. فقلوبهم في جيَشان دائم لا يتوقف، وصدورهم تنطوي على رغبة في اعتناق كل البشر.. إنهم بشَريون حقًّا، ولكنهم في قلوب ملائكية، وآدميون تُرابيون، إلاّ أنّ أرواحهم تسبح في الملأ الأعلى.

١٤- الفصل الأخير

وفي الفصل الأخير من كتاب "طرق الإرشاد في الفكر والحياة" يتناول الأستاذ فتح الله بعض الملامح العامة والصفات التي يجب أن يعرفها رجل الدعوة، ويتّصف بها، ويتحقق بها عمَليًا في حياته ودعوته.. وأكتفي هنا بإيراد العناوين التي تغني عن أيّ تعليق: ١-الشفقة، ٢-التضحية، ٣-الدعاء، ٤-المنطق والواقعية، ٥-التسامح، ٦-رهافة الحس، ٧-عمق

العالم الروحي، ٨-الشوق والاشتياق، ٩-صفاء القلب ورقّة الروح.

والنتيجة التي يمكن أن يخلص إليها قارئ هذا الكتاب، يلخّصها الأستاذ فتح الله على النحو الآتي:

١. التبليغ والإرشاد أقدس وظيفة من وظائف المسلم، فقد بعث الله سبحانه المصطفين الأخيار -وهم الأنبياء والرسل- بهذه الوظيفة.

٢. على الرغم من أن التبليغ فرض كفاية في الظروف الاعتيادية، فإنه في يومنا الحاضر لكونه من المسائل المُهمَلة قد أخذ موقع أفرض الفرائض، فلا يجوز إهماله قطعًا.

٣. مَنْ مات مهملاً لهذه الوظيفة، يُخشى عليه النِّفاق، حيث قد ترك وظيفة جليلة أهمّ من الفرائض الشخصية وأجزل ثوابًا منها.

٤. المجتمع الذي يؤدَّى فيه التبليغ في ذمّة الله تجاه البلايا السماوية والأرضية، حتى لو كان الذين يؤدون هذه الوظيفة المقدسة بضعة أشخاص... وبخلافه تنقلب النتيجة أيضًا، أي قد يُهلك الله قومًا لا تؤدَّى فيهم هذه الوظيفة الجليلة.. وما هلاك أقوام لنا ببعيد..!

٥. تؤدّى هذه الوظيفة المقدّسة ضمن منهج الأفراد والأمم والدول؛ إذ المسلم عنصر أساس في نظام العالم، فكما لا نظام في عالم ليس فيه مسلم، كذلك لا إرهاب ولا فوضى في المواضع التي يوجد فيها مسلم... وهذا منوط بقيام المسلم بوظيفته وأدائها حقّ الأداء.

٦. القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعار الإيمان، وعزل هذه الوظيفة عن الإيمان غير وارد إطلاقًا. فقد عدّ القرآن الكريم المؤمنين بعضهم أولياء بعض، مشيرًا إلى العمدة الأساس الذي يديم هذه الولاية؛ بينما المنافقون ليسوا أولياء بعضهم بعضًا، فهم ينكرون

المعروف ويأمرون بالمنكر.

٧. لقد تعهد الله سبحانه بحفظ دينه، بيد أن هذا الحفظ الإلهي مرتبط بهمّة المؤمنين والمؤمنات جميعًا، وتولّي قسم منهم لنصرة الدين، والإشارة الواضحة لهذه النصرة أداؤهم وظيفة التبليغ بحقها.

٨. العلم والعمل والتبليغ وجوه ثلاثة لحقيقة واحدة. لا يمكن فكُّ الواحد عن الآخر؛ فالعلم شرط أساس للتبليغ، والعمل حياته.

٩. ينبغي أن يعرف المبلّغ حقائقَ الإسلام معرفة جيدة، وكذا العصرَ الذي يعيش فيه؛ فمَن لا يعرف عصره الذي يعيش فيه يمضي حياته في دهليز ويحاول سحب الآخرين إليه لأجل تفهيمهم، وهذه غَيرَةٌ بائسة.

١٠. تنظيم معايير قلب المبلغ وفق القرآن الكريم.. فمَن لم ينسّق قلبه مع القران، يصعب أن يتكلم باسم الإسلام.. أما إفهام حقائقه فغير ممكن.

١١. الطريقة التي يتبعها المبلّغ لا بدّ أن تكون مشروعة، إذْ الوصول إلى هدف مشروع ليس إلاّ باتّباع طريق مشروع، وهذا هو طريق رسول الله ﷺ، وليس الطرق التي تسلكها المنظمات التي تبرر كُلّ وسيلة لأجل البلوغ إلى الغاية. فيلزم في الوقت الحاضر أن يسلك المبلغون مسلك الصحابة الكرام، فلا يلجِون سبيلاً إلا أن تكون مشروعة في كل جزء من جزئياتها، وهؤلاء هم الذين ينصرون الدين وينشرونه في الآفاق.

١٢. المبلغ يحيا بما يقول، وخلافه النفاق الذي يتجنّبه المؤمن كثيرًا؛ فكلمات المبلغ تنعكس أولاً في حياته، وإلاّ فهو كالهشيم المحتضر،

يلتهب ثم يخبو وينطفئ بسرعة.

١٣. المبلغ يحافظ على تواضعه وإنكاره للذات، وهو طور النجباء الأصلاء. أليس الإيمان هو الأصالة والنجابة بذاتها؟! لذا يتصرف المبلغ تصرف الأصيل كأي مؤمن صادق حتى يجعل هذه الأخلاق سجية وملكة له، وهي أخلاق الرسول ﷺ.

١٤. المبلغ لا صلة له مع أركان الدولة أو ما يسمى بـ"الطبقة الأرستقراطية" فيما عدا وظيفة التبليغ والإرشاد.. فهو شديد الحساسية في هذا حفاظًا على عزّته وكرامته.

١٥. المبلغ يكون مصرًّا في تبليغه، وهو تعبير عن توقيره لدعوته.. لذا يعظّم ما عظّمهُ الله، من المسائل... وإلاّ يكون كاذبًا فيما يقول.

١٦. المبلغ لا يعارض قوانين الفطرة، ويتصرف دائمًا على بصيرة... فليس صوابًا قط التغاضي عمّا في الإنسان من نواحي الضعف والميل، بل الأوجب تغيير مجرى هذه النواحي إلى ما هو أجمل وأفضل.

١٧. المعاناة قدَرُ المبلغ، لا يتبدل.. وعليه إبداء الرضى في أوائل الطريق.

١٨. المبلغ رجل الرحمة والشفقة، لا يرِد في ذهنه قطعًا التشبث بوسائل البطش والقوة لإحقاق الحق.

١٩. التضحية من أهم خصائص المبلغ. فعليه أن يتصف بصفات الحواريين، بل مَن لم يكن من نعومة أظفاره على صفة الحواريين، لا يترك الحياة على صفة المبلغ الجيد، وهذا يقتضي التضحية قبل كل شيء.

٢٠. المبلغ إنسان متكامل بالدعاء الذي هو أساس الإخلاص.

٢١. المبلغ إنسان منطقي وواقعي أيضًا، يوفَّق في الأعمال بمقدار عمله بأسس المنطق.

٢٢. المبلغ شديد الحساسية تجاه إيمان الناس، يتمزّق فؤاده حين يرى حوادث الكفر والارتداد.

٢٣. المبلغ يُسَيِّر وظيفته ضمن الشوق والعشق، فلا يمكن أن يوفَّق إن لم يكن عاشقًا للتبليغ متيّمًا به.

٢٤. الإيمان العميق، أي عمق عالمه الروحي، صفة لا تنفكّ عن المبلغ.. وهذا يعني بلوغه اليقين، ومن بلغ اليقين فقد جُهّز بالفضائل كلها.

٢٥. في أثناء قيام المبلغ بوظيفته، عليه أن يحمل قلبًا سليمًا معافًى، وروحًا رقيقة نقية.. ولكي يرى الله والرسول ﷺ ظهيرًا له في عمله، لا بدّ أن تكون حياته صافية كصفاء دعوته في الأقل. وهذا لا يتحقق إلا بصفاء العيش.

فتح الله كولن:

داعية الإيمان ورجل الأمن والسلام

"فتح الله كولن"، مفكر تركي معاصر؛ رفيع الفكر، وَضَّاء الروح، سامي الضمير، يقظ الفؤاد، مَوَّار الذكاء، خصب العطاء، ذو روحية دينية عميقة وواسعة، غير تقليدية ولا نمطية... ترتفع مصعدة حتى تلامس أصفى ما في سماوات التصوف من نقاء، ثمَّ تعود لتتسلق أعلى درجات الفكر، وأسمى ما وصل إليه العقل عن علاقة الإنسان بالكون والطبيعة والحياة. إشعاع قواه النفسية والفكرية إلى مَن حوله يزيدهم ثقةً به، والتفاتًا إليه، وتقربًا منه؛ وعلى الرغم من أنَّ أعماقه فوَّارة بالأسى على حال المسلمين غير أن فكره يفيض دومًا بالضياء الهادئ الجميل ليصبح أنسَ الخائفين، وهديَ التائهين، وقوتًا لجوعى الأرواح، واصطلاءً لمقروري الأنفس، ونورًا لديجور القلوب، وفجرًا لليالي العقول..

ذو ملكة إيمانية تملك عليه أقطار نفسه، وجوانب فكره، تجدها ظاهرة واضحة الظهور في كتاباته إذا كتب، وفي أقواله إذا قال، أو تحدث أو وعظ... إننا نستطيع أنْ نتخيله مجردًا من كثير من خلائقه، ولكن يستحيل علينا أَنْ نتخيله مسلوبًا من ملكته الإيمانية، لأنها جزء من نفسه، وقطعة من كيانه، وشطر من قلبه، وفلذة من فلذات روحه، مفطور عليها، ومولود بها، تصحبه ويصحبها.. إذا حزبه أمر، ونزلت به النوازل، وادلهمتْ عليه الخطوب، آوى إليها، وبها اعتصم؛ فإِذا به رابط الجأش، واسع الصبر، قوي الاحتمال، مع إمعان نظر، وعِظَم ثقة، وطيب نفس، وبسمة أسف

وأسى.. ركين لا تهزه العواصف، ولا توهنه الأزمات.. عنه يأخذ الآخرون العزائم، فيشدُّ عضدهم، ويزيد من صلابة إراداتهم.

في طوايا روحه قوة خافية لا تنكشف إلاَّ عند الحاجة إليها، إنها قدرة وقوة محيرة، فلا نعرف أيَّ أنواع من القدرة هي، أهي قدرة على الخلق والإبداع، أم قدرة على العزيمة والمَضاء، أم هي قدرة جَذَّابة تجذب البعيد حتى يقترب، وتطوي القريب حتى يلتحم؟! وهي في كل الأحوال تشي بعبقرية الرجل، وتنبّئ عن عظيم إنسانيته.

والأستاذ "كولن" شمولي الفكر، وسيع النظر، عميق الإدراك، مستقبلي التوجه، عظيم الرجاء.. يرى في "الدين" لبَّ الحقائق كلها، وعصارة روح الكون، ونبضات قلب الوجود، ومرايا لعرش الله تعالى.. إنَّ من حق هذه الحقيقة على الإنسانية -وهي بهذا الشأن العظيم- أنْ تلزم الكفاح من أجلها، والدفاع عنها، وإحاطتها بالقداسة والتعظيم، وأنْ تجعل منها نبراسًا ومنارًا يهديها إلى الحق ويأخذ بيدها إلى الصراط المستقيم، والطريق القويم.

فما مِن أحد غالب اليأس مغالبته إيَّاه، وما من أحد ابتعث أسباب الرجاء ابتعاثَهُ لها... لا يُساوِمُ ولا يُسَاوَمُ، يُجَدِّدُ ولا يُجَدِّفُ، لا يرفو المعثوث، ولا يرقِّعُ المخروق، بل يصهر الإنسان في بوتقة فكره ثمَّ يشكل من المعدن البشري المصهور إنسانًا جديدًا هو فوق الإنسان، ودون الملاك.

إنَّه إنساني النزعة، يحب الإنسانَ من حيث كونه إنسانًا، ويشفق عليه، ويخدمه، ويبكيه مُرَّ البكاء، ويسعى للتخفيف من آلامه وأحزانه، ويَدُلُّهُ على مناحي عظمته الغائبة عنه، ويربأ به أن يعادي نفسه، ويحطم ذاته، ويشتت شمل فكره.

والأستاذ "كولن" وَقّافٌ عند "النَّص الديني"، لا يغادره حتى يشبعه درسًا وتفسيرًا وتأويلاً... المنقول والمعقول عنده متلازمان، يقيس الغائب على الشاهد، والمعنوي على الحِسّي، وما وراء العالم على شبيهه ومثاله من العالم نفسه... إنَّه يَمُدُّ الإنسانَ بمَجَسَّات جديدة، يَتَحَسَّسُ بها حقائق الأشياء في ذاته، وذات الكون والحياة، وهذا الذي نقوله نلمسه في أكبر كتبه وأصغرها على حدٍ سواء... فقد كان يعالج قضايا غاية في التعقيد، وغاية في الانحراف، غير أَنَّ انفعاله لم يؤثر على اتّزانه العقلي، وعلى ركانة قلمه، ومع ذلك لم يمنعه من انحدار دمعه الذي يحمل من الإشفاق والرثاء للإنسان ما تحمله قطرات البحار من ثراء شجي، وحزن أسيف، على غرقاها من بني البشر.

ففي كتابه الشهير "طرق الإرشاد في الفكر والحياة" يعزو "كولن" غالب إحباطاتنا إلى ضعف قدراتنا على الفهم الواسع والعميق لما ننوي القيام به من عمل... فأيُّ عمل لا يصح ما لم يصح الفهم عنه أولاً، فعسر الفهم يولد عسر العمل، ومن إشكالية ضعف الفهم تتولد أحلام اليقظة المفضية إلى التهويم في غمرة مشاريع خيالية لا تُسمن ولا تُغْني من جوع... وهكذا تتناسل الإحباطات بعضها من بعض، إلى أنْ يأتي اليوم الذي يفقد فيه صاحبها الثقة بنفسه وأنه لم يعد ينفع لفهم أو عمل.

لقد غدا واجبًا على المفكرين -كما يرى "كولن"- أن يستخدم كُلُّ واحد منهم فكره من أجل تنشيط القوة الإبداعية في روح الأمة من جديد؛ ففقْدان هذه القوة يجعل الأمة تفقد رغبتها في الإنشاء الفكري والبناء الإعماري، فيميل أبناؤها إلى الدَّعة والتبطل، والركون إلى التسلية والمجون، فلا يبنون ولا ينشؤون... فالفكر الحق لا يبلغ أسمى أهدافه

إلاً بخدمة هذه القوة الإبداعية وتفعيلها في كيانات الأمة، لكي تستطيع مسابقة الزمن، ومسايرة العصر... فالحياة المَعِيشة ينبغي أن تشكل لنا سؤالاً مؤلمًا وقاطعًا يتطلب منّا جوابًا قبل ممارستنا لأسباب الحياة، وهذا الجواب هو ما يحاول "كولن" الدعوة إليه من خلال كتبه وأفكاره..

فهو يرى أنَّ الأمة التي تخاف تبعات وجودها أمة لا تستحق أنْ توجد، لأنها تظلُّ منكفئة على نفسها، تستذكر الخوالي من أيامها، والأمجاد من ماضيها، دون محاولة منها للإضافة والتجديد... فأيُّ صاحب قلَم إذا لم يكن قادرًا على الإتيان بما يؤجج الحيوية الخامدة في قرّائه فأَولى به أن يكسر قلَمه، ويهريق مداد دواته، لأنه يضر أكثر مما ينفع... فالأقلام التي لا تدفع قرّاءها إلى اقتحام غمرات المجاهيل في الفكر والحياة، والمضي إلى أبعد مناطق الروح، وقارّات النفس، فإنها أقلام مثلوّمة كسْرها أنفع من جبْرها..!

الشيخ فتح الله كولن وسكونية العقل المسلم[٢٨]

١

يأسى "الشيخ فتح الله كولن" لهذه السكونية التي تسكن عقل المسلم وتمنعه من الانطلاق في دنيا الله بما يحمله من إيمان وإسلام. وهو يرى في هذه السكونية نوعًا من الموت الفكري يجب على العقل المسلم أن ينأى بنفسه عنه.

فالسكونية في عالم مضطرب ومتحرك لا يتوقف أبدًا، هي نوع من الانتحار الإيماني، وشلل يُعجِزُ صاحِبهُ عن ملاحقة ما يستجدُّ في العالم من توجُّهات فكرية وروحية.

وقلب الشيخ مفعم بالأسى من أجل الجنس البشري المتلهف لسماع كلمة الحق من أفواه أهل الحق، ولكن هذه السكونية الكسول هي التي أقعدت المسلمين ومنعتهم من السير بكلمة الحق شرقًا وغربًا ليَسْمَعَهَا العالمُ كلُّه.

فالسكونية حالة بائسة مرفوضة من قبل الكون والحياة المبنيين على الحركة والتحول، لأنها على النقيض منهما، فمناكفة الكون، ومعاندة الحياة، تعودان بأشدّ الضرر على صاحب العقل السكوني، حيث يتجاوزه ركب التجديد ويخلفه وراءه منكفئًا على آلام سكونيته بخوائه الفكري وجوعه الروحي.

---

[٢٨] ملاحظة مهمة: الأفكار الواردة في هذا المقال يجد القارئ أصولها في كتب الأستاذ فتح الله المترجمة للعربيـة وهي: النور الخالـد، أضواء قرآنية، الموازين، طرق الإرشـاد في الفكر والحياة، روح الجهاد وحقيقته في الاسلام، ترانيم روح وأشجان قلب، ونحن نقيم صرح الروح....

٢

إنَّ مسؤولية المسلم الأخلاقية والأدبية تُحَتِّمُ عليه -كما يقول الشيخ- أَنْ ينزع عنه ثوب السكونية، وأن يغادر أرائك الراحة والكسل المطمئن إلى غير رجعة، وأن يستبدل بهما شيئًا عظيمًا من القلق والتوتر الروحي إلى آخر مداه، وأن يضرب في الأرض حيثما تقوده قدماه، مفتّشًا عن الإنسان الذي تضنيه قضية الحياة وغاية الوجود، ويعذبه تردده بين الشك واليقين، وأن يسارع إلى مدّ يد الإنقاذ إلى أولئك الساقطين في هوة اليأس، والهاربين من وجه الله إلى غير وجه، والرافضين للحياة، والغائصين في مهاوي العبثية والرغبة في الانتحار، وكأنَّ لسان حالهم يقول: "لماذا نظلّ أحياءً فوق هذه الأرض إذا كان القبر قد فغر فاهه لابتلاعنا في آخر المطاف...؟!"

٣

إنَّ التحولات الإيمانية الكبرى، لا يقوى عليها إلاّ أصحاب الأرواح العظيمة القلقة المؤرقة، التي يقلقها ويؤرقها ثقل المسؤولية التي شرفهم الله تعالى بتقليدهم إياها.

والشيخ "فتح الله" يرى أن جوهر "الحضارة الإسلامية" يكمن في هذا القلق الروحي والأرق الفكري، الباعثان على التغيير على الأرض وفي الوجدان، والمحفزان على الانعتاق من سجن "المَكانية" الثقيل، والتحرر من خناقها على الذهن، والانفكاك من غِلِّها الذي تغلُّ به المسلم وتجعله يخلد إلى عتيق فهمه، ويطمئن إلى قديم علمه، بينما يلحُّ عليه في الأعماق نازع ينزع به نحو ارتقاء عقلي أعلى، وسمو قلبي أرفع.

٤

وإنَّ مِمَّا يثلج صدر "الشيخ"، ويدخل على قلبه الحبور، رؤيته لِثُلَّةٍ من المؤمنين وهم يضربون في معارج الرقي الروحي، ويشكلون بعروجهم هذا مفخرةً لجنس الإنسان، وإكليل مجدٍ فوق جبين البشرية، ولسان حالهم يقول: "خَلُّوا سبيلنا ودعونا نضرب في الأرض"، حاملين ذلك القبس القرآنيّ إلى أقاصي العالم... هؤلاء المؤمنون البسطاء في عظمتهم، الأقوياء في ضعفهم، الأغنياء في فقرهم، إنهم أرسخ قدمًا في دنيا الحق، وأشدُّ توقًا إلى عالم الخلود.. لا يقبلون عنه بديلاً ولا يرضَون سواه موئلاً وملاذًا.

وهؤلاء -كما يؤمل الشيخ- هم القوة التي ستوطد أركان الحقيقة الإيمانية على ظهر الأرض، يحركهم شوق عظيم لا يقاوم، ويُوْرِي زِنَادَ أفكارهم بوارق من عالم الغيب... إنّ فيهم شيئًا إلهيًا لا يني يزور أرواحهم ليديم شعلة الروح ذاكية قوية ليكون بإمكانهم أن يغزوا قلب الليل بقوة وشجاعة.

٥

والعجب كل العجب من هذا الكوكب الأرضي، كيف لا يتلاشى ويتمزق من الغيظ شظايا في الفضاء وهو يرى غدر الإنسان وإدباره عن ربّه وخالقه..! فإذا أقفرت الأرض من العارفين الساجدين فإنها تفقد معنى وجودها ومغزى خلقها، لا بل تفقد الحياة التي تمدها بأسباب البقاء... لأنّ الإيمان حياة، بل هو قلب الحياة، وروح الوجود، ومن دون هذا الإيمان سينتابُ الأرضَ هلعٌ رهيب يقصيها عن أمومتها لنا، واحتضانها لنا، فتتركنا في هوة أتراحنا وعذاباتنا نتجرع مرارة اختفاء إنسانية الإنسان فوق هذه الأرض، لأنّ الإنسان عنصر روحي في قالب ماديّ، فإذا فقد جوهره الروحي صارت حياته خلوًا من الحياة، وصار قالبه الإنساني خلوًا من الإنسانية.

وَإنَّ مِمَّا يؤنس الأرض ويطمئنها على مصيرها، إحساسها بأنّ على ظهرها عبقريات قرآنية تجوب آفاقها، وتبحث في أرجائها عن الإنسان التائه في شعاب "اللاّدينية" المهلكة حيث يجد من أبطال المحبّة -كما يسمّيهم الأستاذ- مَنْ يحنو عليه ويأخذ بيده إلى الطريق القرآني المشرق بالنور والأمل والسلام.

وإذا ما ماجت الروح، وطفحت الأشواق، وتعالى الوجد، واشتدّت وتيرة الإيمان، وارتفع لهب العقل، فلا شيء يمكن عندئذٍ أن يسع المؤمن، ويحدّ من إنسيابه في عروق الأرض وشرايينها، فيأتي الحضارات يدقّ أبوابها، والمدنيات، فيَفُكّ الغازها، والبلدان والأقوام والشعوب، فيخالط وجدانها، ويأتي العقول من أبوابها، والأرواح من منافذها.

أعطني -يا صديقي- ألْفًا من الفتْيان السائرين في الصدق على قدم أبي بكر، والصُّلبين في الحق صلابة عمر، والعاشقين للقرآن عشق عثمان، والمقدمين في الملمات إقدام عليّ رضي الله عنهم أجمعين، أَفْتَح لك قلب العالم، وأُنِرْ لك ظلام الدنيا، وآتيك بالتاريخ طوعًا أو كرهًا، وأزلْزل الأفكار، وأقلب المفاهيم، وأجعل الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، وأصِل ما بين قلب الكون والإنسان، وبين روح الإنسان وروح الله..!

"لذلك نؤمن بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعًا إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان، وتلقيات الإسلام. وشعور الإحسان، والعشق والشوق، والمنطق، وطريقة التفكير، وأسلوب الإفادة عن نفسه، بمؤسساته

ونظمه التي تكسبه هذه الأحوال"[٢٩].

بمثل هؤلاء "السامعين بوجدانهم دومًا أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله"[٣٠]، يمكن للعقل المسلم أن يتحرر من سكونيته، ويخرج من شرنقته.

---

[٢٩] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٢٤.

[٣٠] ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ١٣٢.

من وحي رمضان

(١)

كما لا يُسْبَرُ غَورُ الضوء، ولا يُقَاسُ النُّورُ بمقياس، ولا يَحدُّ الروحَ حدودٌ، هكذا هي صورة رمضان كما تنعكس على مرآة وجدان الشيخ... إنه روح الزمان، وذات الأمة في سُمُّوها الأعلى والأرشد.. فهو يرقى على كل المقاييس والأوزان والحدود عندما يَهِلُّ ويقبل في موكب من النور.. تحفُّ به الملائكة من كل جانب، ويسير متهاديًا في كوكبةٍ من جند الله، فيهبط الأرض بسلام من ربِّ السلام، في موعده من كُلِّ عام، فإذا الأرض سكون وسكينة، وإذا السماء أُنشودةٌ وترنيمة، وإذا النفوس مشاعر عالية، والقلوب ومضات خافقة، والمآقي دموع مغرورقة من نشوة اللقيا، والأرواح شوقٌ وهيام، والفكر نقاء وصفاء، والضمير سُموٌّ وارتقاء.[٣١]

و"رمضان" -كما هو عند الشيخ- لمسة تمسيدية لأعصاب الزمن المتعبة، ونفخة تحريكية لروح الأمة إذا ما حاق بها الجمود والخمود، وهو معراجها للتفوق على ذاتها، وللتحليق وراء أشواقها، وقلَّما يعرف المسلم وقتًا -كرمضان- يلتقي فيه الفكر بالعمل، والنِّيَّة بالعزم، والإدراك بالإرادة.

وعلى شباب الأمة -كما يرى الشيخ- أن يترجموا فكرهم إلى عمل إيجابي في البناء والإعمار، ويكفّوا عن السلبيات وعن إقامة المناحات وذرف الدموع على ما مرَّ عليهم من تجارب فاشلة، أورثت الأمة الكثير من المآسي والآلام والدموع. وخَيْرٌ للأمة أن ترى أبناءها الصادقين

(٣١) للمزيد أنظر: ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن؛ ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

يمسحون العرق والغبار عن جباههم وهم يبنون ويعمرون من أن تراهم قابعين يائسين، يندبون حظهم ويبكون عذاباتهم، دون أية محاولة جادّة للخروج من هذه المحنة برؤية جديدة، وسلوك جديد.

والشيخ لا يني يحذر هؤلاء الشباب المُصْطَفَيْنَ الأخيار من مزالق الأقدام، لأنَّ أتفه الأخطاء قد تكون سببًا في إفساد جلائل الأعمال.[٣٢]

٢

وحين يُظِلُّنَا رمضان، يسارع فيرفع الأغشية عن عين روح المؤمن، فيبصر من قريب جلال عظمته، ويستذكر أمجاد أمته، فيرى "بدرًا" الفارقة بين الشرك والإيمان، وهي تتألق بالنصر المبين، ويبصر "مكّة" وهي فاتحة ذراعيها تستقبل محمدًا ﷺ بشوق عظيم، ومن حوله جنده الميامين.[٣٣]

فرمَضان ينطوي على أعظم معالم الإيمان على وجه الأرض، بل يكاد المسلم لا يشعر بهويته الإيمانية الحق إلاَّ في رمضان، ولا بعمقه الإيماني إلاَّ فيه، ولا بإنسانية عظمته إلاَّ من خلاله... بهذا كلِّه تدق دقائق رمضان، فيشعر المسلم وكأنه يتشرب فيه ما تسكبه سماوات الحق من رحيق العشق الإلهي الذي أثاره محمد ﷺ في وجدان المؤمنين في كل زمانٍ ومكان.

و"رمضان" كائن حي ينبض بحياة الروح والوجدان، وهو مجلببٌ بغوامض الأسرار، وعلى قدر اجتهادنا فيه، وإيغالنا في معانيه، يكشف لنا عن بعض أسراره، يومًا بعد يوم، حتى إذا استضاء الكون بنور "ليلة القدر" فقد بلغ "رمضان" في هذه الليلة قِمَّةَ أسراره، وعظيم عطاياه ومِنَحِهِ.. فإذا بأرواحنا تَصَّعَّدُ في هذه الليلة نحو آفاق نكاد نلمس من خلالها شاطئ

---

(٣٢) للمزيد انظر: الموازين، فتح الله كولن.

(٣٣) للمزيد انظر: النور الخالد، فتح الله كولن.

الأبدية وهو يتألق تحت أنوار "ليلة القدر"، مناديًا قلوبنا أن ترسي سفائنها على ضفّته، فلا تعد تخشى الغرق في بحار الدنيا...

وهذا هو ما يريده رمضان مِنّا وما يريده ربُّ الأيام والأزمان والدهور، وربُّ الإنسان، تعالى شأنه وجلّتْ قدرته.[٣٤]

[٣٤] للمزيد انظر: ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن؛ ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن.

العيد في أدبيات الأستاذ فتح الله كولن

قرينةُ حُزْنٍ... أُختُ شجن...
سَكَّابَةُ دمع... حَمَّالة ألم...
نَزَّافة جرح... وحليفة وَجَع...

هذه هي حال أمّتنا اليوم... حتى إذا غشيها العيد، ذكرتْ واستذكرتْ، ثمَّ استعبرتْ... ذكرت غابرَ مجدها، وماضيَ عِزِّها، وأعيادًا كانت إذا حلَّتْ رفعت الأمة على جناح الفرَح حتّى لتكادُ تعانق السماء وتشركها فيما هي من سرور وحبور... جِلْبابها الطُّهرُ والنقاء... وسربالها الشوق والمحبَّة...

أمّا اليوم، فأعيادها قَفْرٌ يبابٌ... ربيع بلا زهر... غناؤها أنين... ورقصها رقص ذبيح في قلبه سكّين... تتصنَّع البهجة وعيونها دامعة... وتلبس الجديد على مُزَقِ نَفسٍ، وشَتَاتِ وجدان، وظلمات قلب... كيانها مُرَقَّعٌ بألف رقعة ورقْعة، من ألف بلدٍ وبلد... وفكرها ملموم من سَقَطِ مَتاعِ ألفِ عقلٍ وعقل...

غير أن أمَلها لم يَمُتْ بعدُ... فهو يعود إليها مع عودة كُلِّ عيدٍ جديد... وهي لا زالتْ تهفو إلى يومٍ آتٍ، يَشُعُّ فيه نور الحبور... وإلى معانقة العيد بقلبٍ طَرِبٍ، ونفسٍ راضيةٍ مرضية...

وعلى الرغم من أنَّ عيوننا غارقة بالدموع كمطر الربيع -كما يقول الأستاذ فتح الله- إلاّ أننا قادرون على أن نشهد من خلال هذه الدموع سفوح الجنة الواعدة[٣٥] وكأنَّ هذه الأعياد التي تعاودنا كلَّ عام تضعنا في

(٣٥) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١١٦.

"برزخ بين الفرَح والحزن"[36] وهي تنادينا لكي نتخطّى حاجز الحزن إلى عالم الفرح الجديد.

وعلى الرغم من كل هذه الأحزان التي تعشش في قلوبنا، إلاَّ أننا نشهد اليوم على مُحَيَّا الأمة دلائل يقَظة روحية، ونرصد نورًا هاديًا يسري في مفاصلها ويدفعها للنهوض ثانيةً إلى علياء البهجة إذا ما عاودتْها الأعياد.

لقد جَفَّت اليوم -مع الأسف الشديد- ينابيع الجمال في نفوسنا، ويبست معها ينابيع المحبّة التي هي تاج كل جمال على هذه الأرض، ومع الزمن بدأنا نشعر بعجزنا عن أن نحبَّ إخواننا من أبناء جلدتنا، فضلاً عن أبناء بني الإنسان قاطبة... وهل العيد شيء آخر سوى الجمال والمحبَّة، وقلوبٍ وأرواحٍ تسري في قلوب الآخرين وأرواحهم حتَّى قبل أنْ تسكب أيادينا رحيق الوِدّ في أيدي الآخرين حين نشدُّ على أيديهم.

والأستاذ الشيخ فتح الله يأمل أن يتحقق ذلك في يوم ما فيقول: "فكَم تملأني النشوة عندما أشاهد بعين الخيال الأجيال السعيدة القادمة التي وصلت إلى مرتبة العرفان من الناحية المادية والمعنوية، ورهفتْ مشاعرها وتوحدت مع أرواحها، وعانق بعضها البعض الآخر... أتخيَّل جيلاً ملأَ العلم عقله، وملأ الإيمان بالخالق العظيم قلبه... وامتلأ بحب الوجود، ووصل إلى ساحل الاطمئنان"[37]. وما ذلك على الله تعالى بعزيز.

---

(36) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١١٧.

(37) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:١٥٤.

الأغلال المتكسرة

نحن الأجيال الإيمانية الطالعة من أعماق ذات الأمة نرفض -منذ اليوم- أن يُحْكِمَ ذوو الرؤس الكبيرة أغلال أفكارهم في أعناقنا، وأن يحبسونا -كما في الماضي- في قمقم هذه الأفكار في عزلة تامة عن بواطن ذواتنا الإيمانية والتاريخية حتى فقدنا القدرة على ممارسة التفكير الذاتي المستقل، فلم نعد -بعد اليوم- أصفارًا على يسار الفكر، فقد نبتتْ فينا أفكار جديدة وفتية، ذاتية الإنبات، عميقة الجذور، ثابتة الأصول، عالية الفروع، وستنقلب عن قريب إلى حقائق معيشة في حياتنا الفكرية والأخلاقية.

فالذات الساكن ماج بما فيه، والروح الخامد اشتعل وأضاء، وإذا كنَّا نخوض اليوم نزاعًا صاخبًا بين المنظومة الفكرية القديمة والمنظومة الجديدة والجريئة، فبفعل ما أحدثته كتب الأستاذ "فتح الله كولن" في النفوس من تغيير وتجديد... فأعماله الفكرية المبدعة كان لها تأثير ملحوظ على مجاري الأفكار في "تركيا" وفي أرجاء أخرى من العالم.

لقد بشَّر "كولن" منذ عهوده الأولى في ممارسة الكتابة بانهزام السيف أمام الذهن، وبأن قوة الذهن قوة سرمدية في تأثيرها على توجهات مسارات العالم الفكرية والروحية، بينما يبقى أثر السيف قاصرًا ومحدودًا وموقّتًا.

وأمّتنا التي كانت تنهض من النوم كل صباح على فكرة واحدة وهي كيف تستطيع استئناف حياتها الإيمانية من جديد لم تعد تشعر بالإحباط وهي تتلمس طلائع الجيل النهضوي الجديد وهو يحث الخطى نحو هذا الهدف الذي ظلَّتْ أمّتنا تنتظره منذ زمن بعيد.

إنَّ نشاطات "كولن" الفكرية -ومن خلال كتبه ومحاضراته ومواعظه- دفعتنا لكي نأخذ مكاننا في الصف كرجال إيمان نكافح سوية من أجل الارتقاء الديني والإنساني، ودفعتنا كذلك لكي نكون مع الجانب الكفاحي من الحضارة الساعي إلى تغليب الفكر والروح على النوازع الجسدية الطاغية. وللتخفيف من غلواء الانفعالية الغضبية والبأسية التي تهدد البشرية بالمزيد من الدماء والأخزان.

وهكذا استطاع "كولن" أن يجعل "الدِّين" العاطفة الأكثر سعةً والأكثر غلبة على كل عواطفنا الأخرى، فغدونا مع الأيام متوحدين مستقلين لا مثْنوية فينا مع ما نؤمن به ونعمل من أجله.

وهذه الذات "الغائبة الحاضرة" في مفهوم "كولن" مزيج مركب من روح القرآن، وروح الكون، وعقل الإنسان... وهو يرى ضرورة اعتمادها في أي مشروع نهضوي وحضاري كما يشرح ذلك لقرائه على صفحات كتابه القيم "ونحن نبني حضارتنا"، وهذه الذات بهذا التركيب المزجي مهيأة دون غيرها لابتعاث الحياة في روح الأمة وعقلها، ولاسيما إذا ما كان من وراء ذلك إرادة لا تنثني وتصميم لا يلتوي.

وهذه الإرادة وهذا التصميم يشكلان قوة دافعة نحو التغلب على التحديات والمثبطات في طريق النهوض المرتقب.. فتأكيد "كولن" على خصوصية ذات الأمة بالمواصفات الآنفة قضيّة حياة أو موت. وهي تتطلب الخوض من أجلها أشدَّ الصراعات الفكرية مع المناوئين والمناهضين الذين لا يروق لها الْتفات الأمة إلى أرصدتها الذاتية واستخدامها كمنطلقات لوثوبها الحضاري القادم.

إنَّ صاحب هذه الذات لا يقبل أنْ يكون في مقام الفرجة على الوجود

الإنساني من خارجه بغير اكتراث بإشكالاته وهمومه، بل يقذف بنفسه باعتباره معْلمًا من معالم الحق على أباطيل العالم ليزهقها ويبددها... إنه صاحب الكلمة الأخيرة والكلمة الفصل على ما يلغط به الآخرون من كلام... إنه يتمتَّع بشيء من قدرات القرآن على تغيير النفس ومن ثمَّة تغيير العالم، ومن هنا كان "كولن" يكرر أنَّ الإنسان الذي يجهل ما تنطوي عليه نفسه من طاقات للتغيير هو إنسان فاتر الهمة، ضعيف الإدراك، مهزوم الروح، مأزوم الذهن، كثير الوجل، سلبي السلوك.

فالهدف السامي دليل سموّ صاحبه، وعظمته بعظمة أهدافه وآماله.. وأعظم الأهداف هو أنْ يفهم الإنسان نفسه، ويدرك أبعاد ذاته، ويستوعب قدرات روحه وذهنه... وإذا ما ظلت نفوسنا جائعة للمعالي العالية، والمعاني العظيمة، وإلى كل ما هو متفوق وبطولي وإعجازي في أفكارنا ومعتقداتنا، فذاك دليل صحتنا النفسية والعقلية، وإننا مهيّأون لكي نمضي في طريقنا الحضاري إلى أمداء أبعد، ومسالك أوسع، كما يشير "كولن" إلى ذلك في كتابه آنف الذكر، وإلاَّ أدَّى توقفنا عند حاجز زماني معيّن إلى انحلالنا تدريجيًا إلى حد الاضمحلال والتلاشي في قاع الزمن الذي توقفْنا عنده.

إنَّ كفاحنا الروحي والذهني من أجل "ونحن نبني حضارتنا" مهما اعترانا من جرائه من تعب وإرهاق، فإنه يظل المِرآة التي نرى فيها أنفسنا -نحن أجيال الإيمان الطالعة من ذات الأمة- وهي تتسامى على زمن الانحلال والتخلف في محاولة منا لوضْع لبنة في هذا الصرح المؤمل الذي هو في حاجة إلى المزيد من أجيال البناء والإعمار في الآتي من الزمان.

الإنسان وروح العصر

كثيرًا ما يجري على أقلام الكتّاب والمفكرين مصطلح "روح العصر" في معرض بيان التوجهات الفكرية والروحية السائدة في زمن من الأزمان، ولتشخيص الطابع الفكري العام المميز له عن الحقب الزمانية التي سبقته.

ويتشكل "روح العصر" من قوى فكرية تعمل على تغذيته وإمداده بمقومات الفاعلية والتأثير في محيطِه الزماني والمكاني... فقوة أي فكر وقوة تأثيره، تتأتى من قوة صدقه، ومن قوة الحق الذي يحمله. وهذه القوة هي مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته وتجليات جلاله وجماله على الأذهان والأرواح.

وإنه لمن المفزع أن نلمس في "روح هذا العصر" قصورًا معيبًا وعجزًا بينًا عن تغطية الجوانب الروحانية في الإنسان. الأمر الذي غدا من أوجب واجبات المفكر الغيور على شرف الإنسانية أن يسعى إلى إمداد فتيل هذا الروح بالزيت الذي يعيد إليه توهجه الروحي من جديد.

وقد كان "فتح الله كولن" واحدًا من المفكرين القلائل الذين انتبهوا إلى مخاطر انطفاء هذا الروح وموته على حياة البشرية. فمن غير روح عظيم يظلّها ويغار على موروثاتها الدينية والأخلاقية والحضارية تظل البشرية تشعر باليتم الروحي والتأزم العقلي طوال حياتها.

فالتفكير العقلي الخالص -كما يرى كولن- غير قادر على إنقاذ البشرية مما يتهددها من مخاطر الجفاف الديني والأخلاقي. هذا الجفاف الباعث على الرعب من الإنسان وعلى الإنسان، لأنه نوع من الجحيم الداخلي

الذي يلتهم نفس صاحبه ويلفح بنيرانه نفوس الآخرين.

فالنفوس الجرداء والمجدبة غير قادرة على إنجاز عمل فكري عظيم يثري عقل العصر ويمده بأسباب اليقين الإيماني.. فالأستاذ "كولن" ومن منطلق كونه مواطنًا إنسانيًا يسهم مع كل المفكرين الإنسانيين المهمومين بمشاكل العالم، لإنقاذ روح العصر مما يتهدده من مخاطر، وهو يدعو هؤلاء المفكرين أينما كانوا إلى أن يرتبطوا بميثاق شرف إنساني من أجل هذه الغاية العظمى التي لا أنبل منها ولا أعظم.

وقد كان لـ"كولن" شرف المسارعة إلى مباركة التجمع الشرفي لمواطنيه الأتراك من مفكرين وأخلاقيين وأدباء وشعراء وفنانين وفلاسفة وصحفيين وعلماء ورجال دين وتجّار ورجال أعمال، متجاوزين في تجمعهم هذا كل خلافاتهم ومناقضاتهم، ومكرّسين أنفسهم لهدف واحد هو الوقوف مع الإنسان في استعادة مكانته الروحية في هذا العالم.

والتجربة التركية -بحسب المختصين- من أنجح التجارب وأخصبها التي يمكن لأيّة تجربة على مستوى العالم أن تفيد منها وتتخدها نموذجًا يمكن اعتماده من قبل المؤسسات والهيئات المعنية بالشؤون الروحية للإنسان وأخلاقيات ضمير العالم.

فذهْنية العصر المرهقة والمعذَّبة مخيفة إلى حد الجنون، لما يمكن أن تجره على البشرية -في ساعة من ساعات السأم- من مآسٍ وآلام، ومع ذلك فإن هذه الذهنية واثقة من نفسها إلى حد يجعلها لا تقيم وزنًا لمتطلبات إعادة النظر فيما خلّفته من أوجاع للضمير البشري على هذه الأرض، وما تعانيه من "الكسل الروحي" لا يقلقها إلا بمقدار قلقها من فشل تجربة يجريها أحد علمائها على فأر من فئران الاختبار... إنه عقل

فاتر الهمة بكل ما يخص الجانب الروحاني من الإنسان. وهذا هو ما يثير قلق "كولن" ويجعله معنيًّا كل العناية بمشاكل عقل العصر وانعكاساته الخطيرة على معتقدات الناس أفرادًا وجماعات.

فعقل العصر وحده بلا روح يصحبه، ولا قلب يخالطه، قد يهيج كما تهيج الغرائز المتفلتة من عقالها، فيرغي ويزبد ويجدِّف ويدمر، ويثير من الفزع على مثاليات الإنسان الأخلاقية والدينية ما لا يطاق... فالنمو المفرط في الوظائف الذهنية الخالصة من جانب، والضمور الروحي والوجداني المفرط من جانب آخر، هو سبب اختلال توازن شخصية الإنسان المعاصر.

وما بين روح العصر وروح "العظيم" أكثر من نسب وصلة، فينجذب أحدهما إلى الآخر ليتبادلا فيما بينهما القوى الإدراكية والمعرفية عند كلَيهما. فروح العصر قمين بأرواح عظماء الرجال، فكم من عظيم استطاع أنْ يطوي روح العصر في أعماق روحه..!

فعظماء كل عصر هم الذين يحرّكون روح العصر ويصوغون توجهاته الفكرية والروحية من جديد، ويقودونه إلى حيث تقودهم قواهم الروحية الجبَّارة..

فالبشرية وإن اختلفت شعوبها جنسًا ووطنًا وثقافةً وحضارةً، غير أنها تشكل وحدة روحية واحدة، يظلها عصر واحد، ويهيمن عليها روح هذا العصر... فالنظرة الاستنكافية لشعب من الشعوب من أن يكون واحدًا في هذا الجسم الشعوبي الوحْدوي، ما هو إلاَّ استثناءً من توافق إنساني غير مقصود، ووترًا نشازًا في سمفونية التناغم الشعوبي، وتحديًا للمشيئة الكونية ذات الطابع التناغمي والانسجامي... فعذابات الشعوب مهما

كانت أليمة، لا تستطيع أن تؤثر على إراداتها في تعلم أنماط جديدة من السلوك الإنساني بعضها مع البعض الآخر، وإلا تعذّر عليها مواصلة الحياة وتبادل أشلاء الأحزان فيما بينها لتظلَّ إنسانيتنا سالمة ونحن نتعامل بها مع الآخرين كاملة غير منقوصة.

فرُوح العصر الذي يمدُّ شعوب كرتنا الأرضية بتوجهاتها الفكرية والروحية، يفتقر اليوم إلى ذلك الفيض الروحاني الذي يساعده على أداء مهمّته الارتقائية بروح الإنسان، الأمر الذي شكّل حافزًا ملحًا على مفكري العالم المعنيين بالشؤون الفكرية والروحية للإنسان لكي يتكاتفوا جميعًا من أجل إمداد هذا الروح بالمزيد من القوى التي بات الإنسان اليوم في حاجة إليها أكثر من أي زمن آخر... وهذه المهمة النبيلة هي التي نذر إليها الأستاذ "فتح الله كولن" نفسه، وكرّس حياته وقلمه لها... فهذا الهدف الأخلاقي والإنساني يبلغ من السموّ عند "كولن" إلى حد التخلي عن حياته نفسها إذا اقتضى الأمر -كما يقول- لكي يعمل للوصول إليه وتحقيقه فوق ظهر هذه الأرض. و"كولن" ليس "طوباويًا" غارقًا في الخيال كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، إنه وجد في "المدرسة" المبنية على مزيج من روحانية السماء وعلوم الأرض آليةً لهذا العمل الكبير والنبيل، فشجع على الإكثار منها، ونشرها في تخوم العالم لتخريج المثقف الواعي والعالي الذي يجد نفسه على وفاق مع الكون، وفي الوقت نفسه على وفاق مع الروح التي بين جنبيه.

أشواق الروح

الأمة التي تصبو أن ترتقي إلى قمَة العظمة النفسية والعبقرية الفكرية، عليها أن تراعي أشواقها الروحية، وتعمل على تعهدها وإنضاجها واتخاذها منطلقًا إلى حيث تتشعب بها الحياة ويأخذها التاريخ.

وإذا كان الطغيان والاستبداد يحول بين الأمة ومقدّراتها العبقرية، فإن خنق أشواق الروح وعدم السماح لها بالانطلاق في مجاريها الحقيقية من حياة الأمة، أفدح خطبًا وأشد شرًّا.

فقدَر الأمة يتواءم إلى حدٍّ ما، مع قدراتها الذاتية، وهو -أي القدر- يكون في غالب الأحيان جاريًا مجرى قدراتها النفسية والفكرية والعلمية، لأن القدر في واحد من معانيه -كما يقول سعيد النورسي- يساوي العلم بالشيء قبل أن يكون، وبعد أن يكون، وكيف بعد ذلك يكون.

ولا زالت هذه الأمة تخرج من "تيه" لتدخل في "أتياه"، وتخرج من إشكال لتقع في إشكالات، لأنها لم تكتنه سريرتها بالشكل المطلوب، ولم تسبر أغوار تاريخها لتعرف من هي، ومن تكون، وما موقعها من العالم ومن التاريخ.

فلهذه الأغوار أعماق في حياة الأمة أبعد أمدًا، وأهدى رشدًا من أعماق الأرض وأعماق الفضاء.

فمشكلات هذه الأمة الكبرى ناجمة عن عجزها، عن إشباع جوعة روحها قبل جوعة بطنها، وإطفاء عطش فؤادها قبل إطفاء عطش جوارحها.

فأين هي قواها الروحية والنفسية التي تأخذ بيدها إلى الصدارة، ليس

من تاريخ العالم فحسب، بل إلى الصدارة من تاريخ الكون، لكونية أفكارها وسعة أشواقها. فالقوى الروحية والنفسية لها من الكون المكان الأرفع والمحل الأسنى، وعلى هذه الأمة أن تعي بأن حياتها -شاءت أم أبت- شذرة من الحياة الأبدية المطلقة، فما لم تنزل حياتها في منزلتها الحقيقية من الحياة الأبدية، فستظل محدودة الحياة، محدودة الآفاق، محدودة الأفكار، محدودة التاريخ، مجدبة الوجدان، مقفرة الروح، ضعيفة التفكير.

إننا لا زلنا حتى هذا اليوم لا نملك من قوة التفكير ما يجعلنا قادرين على فهم ما يبتكره الآخرون، الفهم الصحيح، فضلاً عن أن نكون نحن السبّاقين إلى الإبداع والابتكار.

فالفكر المعرفي مهما بلغ من القوة والنضج، يظل -من غير عقيدة تسنده- عاجزًا عن معالجة قلق النفس وجائحات الروح؛ فالعقيدة السليمة إذا مشت مشى الفكر في ركابها، وسدّد خطاها، وأنار طريقها، وأضاء معالمها.

فأشواق الروح هي ليست لأمة دون أمة ولا لجماعة دون جماعة، بل هي قسط مشترك بين الآدميين جميعًا.. فجناح الفكر يخفق عاليًا إذا نشرت الروح أجنحتها، وطارت بأشواقها إلى حيث ينبض قلب العالم ويخفق وجدان الكون.. فالعالم من غير الإنسان ومن غير أشواقه واستشرافاته العلوية والقدسية يبقى قفرًا يبابًا، وقلبًا صامتًا، ولسانًا أبكم.

إننا ستتجنب مسالك التيه، ولا تلتاث علينا السبل، ولن يستولي علينا الرعب إذا ما جبنا رحاب قلوبنا، وتسللنا إلى حنايا ذواتنا، لأنها متلألئة بالضياء، ولأن ألْف سماء وسماء تخفق في أجواء هذا القلب الرحيب والطافح بأشواقه والسابح بأنواره وأفكاره التي تفوق العقل بحدة ذكائها

وسرعة إدراكها.

إن أيام هذا القلب سماوية كلها، نديّة بأنداء الخلود، إنها ينبوع من القوة يرفد العقل المبعوث للرشد والإدراك... فأية أقفال فكرية يمكن أن تصمد أمام هذا الشعاع الروحاني المذيب للحديد والفولاذ؟!

كما أنها تعزز قوى الإحساس، وتفتح منافذ الخيال، وتؤجج ثورات في الرؤوس، وتثير تساؤلات في الأذهان والعقول، وتحرك آيات البرهان، ودلائل الإيقان... وهناك في الأعماق -في الأعماق فقط- نستطيع أن نمسك بكل أضوائنا الشاردة، وأفكارنا المشتّتة، ومشاعرنا الهاربة.

فأشواق الروح هذه، ينبغي أن تجد في كل أمة من يغذوها بزيت التوهج، ويؤجج اشتعالها كلما شارفت على الانطفاء والخمود. والذين يقومون بهذه الخدمة الجليلة، إنما هم "رجال القلب" كما يسمّيهم الأستاذ فتح الله كولن، المنتشرون بمدارسهم في بقاع كثيرة من العالم، من أجل هذا العمل البطولي الذي لا يقوى عليه إلا رجال من ذوي العزم والإرادة والتصميم.

فصاحب الروح العظيم لا يضلل العقول ولا العقول تضله، فإذا ما غطّت هذه الأشواق مساحات النفس، تحولت إلى عاطفة عامة تنصبغ الأفكار والأذواق والآداب بصبغتها، وتصبح طبيعة أخرى أقوى من كل طبيعة، وأشد تمكنًا في الإنسان من غرائزه... وإذا ما تفتّحت عظمة الأمة على أشواقها سرت فكرة التجديد فيها، وتبقى الأمة جديدة أبدًا، حارةً أبدًا، مملوءةً بالحياة أبدًا، مفعمة بالقوة والخصب والدراية أبدًا... وتعيش لتفكر، وتفكر لتعيش... وصارت مرآة عظيمة صقيلة صافية تقبس الشعاع مهما اشتدّ ظلام الليل، وتكاثف سواده.

الإنسان الارتقائي

معرفة الله تعالى والالتزام بعبادته عمل ارتقائي، يرتقي بالنفس الإنسانية نحو أعالي الفكر والحس والشعور، ويصحب هذا العمل الارتقائي أخلاقية استعلائية على الانحدار السلوكي الذي يمكن أن ينحدر إليه الإنسان خلال حياته المعيشية اليومية؛ لذلك يستصعبه ذوو الأرواح الأرضية التي ليس لها استشراف آفاقي "ماورائي"، وينأى عنه أصحاب الهمم القاصرة والمطامح الهابطة.. ومما يزيد الأمر صعوبة افتقادهم الأمثلة العليا، والنماذج المثلى من الذين يرسمون لهم الطريق ويؤشرون على خارطة النفس معالمها وشعابها.

وإنه لمِن دواعي غبطتنا أن يوجد بين ظهرانينا اليوم واحد من أعظم أصحاب الروح، وهو الأستاذ فتح الله كولن... هذا الرجل الذي وقف قلمه على تبديد ما نعاني منه من إحباط في علاج ضمورنا الفكري والروحي.. فقد أوتي القدرة على تَخَطُّف أرواحنا، وامتلاك أفئدتنا، ثم السريان بها إلى سماوات المعاني وفضاءات الأفكار السامية على المتطلبات الأرضية، باعتبارنا أغصانًا من شجرة الحياة الأبدية التي تخلو الحياة من معناها إذا هي لم تعتصم بها، أو تستظل بظلّها.

لقد هالَ الرجل أَنَّ الأمة شرعت منذ قرنين من الزمن تجهز على خلايا نفسها بنفسها، وتُعْمِلُ معاول الهدم في تحطيم منظم لأركان وجودها، ومن غفلتها تحتفل بقضاء ذاتها على ذاتها، وبالانسلاخ عن نفسها، فينتابه أَلَم شديد، ويزفر تلك الزفرات المحرقة، ويطلقها مع مرسلات الريح، ثم لا يلبث أن يستلّ قلمه ليعبّر عن آلامه التي هي آلام

أمة بأسرها، غير أنَّ إيمانه بأمته لم يتراجع لحظة واحدة، واعتقاده بأنها قادرة على الانتباه على نفسها، ومراجعة ذاتها ظلَّ قائمًا في فكره... وبمرور الأيام بدأت روحه تمتلئ بسحائب عظيمة من المحبّة، وسرعان ما أمطرت فلم يبتلَّ بها إلاّ الصفوة من شباب هذه الأمة، فأقبلوا يتنادون أنْ "هلمّوا إلى الرِّيّ، وتعالَوا إلى الظل الظليل..!". فرأى فإذا بنظراتهم تنمّ عن الإقدام، ووجوههم عن البراءة والصفاء، واختبر رأيهم فوجد أن رأيهم في أنفسهم أكرم عندهم من أن يتسفل إلى سخافات من الفكر تتخبّط أذهانهم، وتفسد عليهم ألقَ عقولهم.

إنَّ مسحة من عظمة الذات ترتسم على محياهم، وتدور في دواخلهم، مولدةً أنزه الخواطر، وأنفس الأفكار... إنهم جاءوا يطلبون رضا ربهم، ويبتغون لأرواحهم سلالم تصلهم بأسباب السماء، لأنها سئمت لبثها عند مشارف الأرض، فوصلوا من الإدراكات إلى أعلاها، ومن الفهوم إلى أذكاها...

هتاف قلب ونداء فكر

١

العقل الأرقى، والقلب الأذكى، والنفس الأصفى... هذا ما نلمسه كلما قرأنا شيئًا من نتاج قلم الأستاذ فتح الله كولن.

ووحدة كيان، وجوهرية إنسان، وخفقات أكوان... تطفر من كلمات هذا الكتاب، وتنساب بين السطور كالماء الرائق العذب الذي هو منْية كلّ ظاميء في كل وقت. إنه هنا روح خِصْبٌ فيَّاض بأشواق ارْتياد مجاهيل النفس والكون والتاريخ.

إنه يكتب ليوقد من جديد شعلة الأمة الخابية، ويثير الرغبة في الحياة الحرة الحركية، وهو يحذر من هذا المزيد من الانحطاطات التاريخية التي تتردَّى فيها الأمة يومًا بعد يوم... ويشير إلى هذه الفوضى في الفكر والعقيدة والحياة، ويدعونا إلى شيء من النظام والتماسك الفكري والروحي، ويتساءل متألّمًا:

لماذا نعاني نزع الاحتضار، بينما إكسير الحياة لا زال يتدفّق بقوة من الإيمان والقرآن..؟!

وهذه الأيام لماذا لا تسقينا إلاّ الصَّابَ والعلقم، ولا تهدينا إلاّ الفاجع والمأساوي من القهر والعذاب...؟

ولماذا فقدنا حِدَّة البصر والبصيرة، ولم نعد نبصر ما عندنا من كنوز المعرفة حتى عدنا نتسكع على أرصفة الثقافات التافهة، ونستجدي فُتَاتَ الأفكار، وعَفَنَ السلوكيات...؟

مَنْ يمسح عنَّا هذا الهمّ النَّاصب المرتسم على وجوهنا...؟

ولماذا نلوذ بأهداب الصمت في هذا الضجيج من الأصوات المعادية دون أنْ نقوى على أنْ نبس ببنت شفة...؟

أين ضمائرنا، لماذا لم تعد تُبكّتنا أقلَّ تبكيت..؟

إنَّ الجدب العقلي والروحي هو أصعب على الأمة احتمالاً من أقسى وأفظع أيّ عذاب جسماني رهيب.

٢

إنَّ أُمَّةً أُخْضِعَتْ للعسف والهوان أمدًا طويلاً حتى رضخت واستكانت، لفي حاجة إلى قلب كبير يسع العالم كُلَّهُ، وإلى قلَم جبَّار يشعل في سماء الأمّة بروق العزة والتمرد على أي نوع من أنواع الاستكانة الروحية والإذلال النفسي... ففي الوقت الذي يشعل مثل هذه البروق ويحدث مثل هذه الرعود في وجدان الأمة، يعود ليفجّر ماء السماء فوق ألْسِنَةِ اللهب الذي يكاد يحرق أخضر العالم ويابسه.

لقد أرسى العَالَمُ بنفسه أساس دماره عندما تنكر لله، ونأى بجانبه عنه... وها هو الآن يقاسي من أجل ذلك أهوالاً عظيمة من الآلام، ولا ينفك يزرع في الأرض مظالم فظيعة تغرق البشرية بالمزيد من الدماء والدموع والآلام: ففي رأس هذا العالم وفي قلبه روح الموت والخراب، وجحيم فوَّار بكل أنواع العذاب.

٣

والسؤال الملحّ الذي يفرض نفسه هنا، هو: كيف يمكن للمسلم المعاصر أن يعود ليقف على قدمين راسختين في مواجهة هذا العالم المخيف الذي يكاد يأكله أكلاً ويحرقه حيًّا...؟ وما هي مواصفاته...؟ وكيف نستطيع انْتشاله من وهدته أولاً، ثم دفعه إلى قمّة البطولة والتحدي ثانيًا...؟

يُجيب الأستاذ فيقول: "إنه -أي هذا المسلم المرتقب- بطل قد حفرتْ الآلام أخاديد على وجهه.. عينه دامعة، صدره ملتاع، ضميره يقِظ، قد جمع في نفسه روح التكية وأصالتها، ومنطق المدرسة ومحاكماتها العقلية، ونظام المعسكر وطاعته، ويقدم لنا بكل هذا كمال نفسه وعلوّ همّته"[٣٨]

والأستاذ يرغب في أن يرى المسلم وهو كشعْلة من نور لا تخبو أبدًا، مَنْ ينظر إليه يحسبه إنسانًا قد انشقَّتْ عنه أحشاء الحياة آنفًا، ولا زال ماء الحياة النقي يقطر من جنباته ولم يجف بعد عليه... مُحَصَّنٌ ضِدَّ عَدْوَى العصر، وسيع القلب، رحيم الفؤاد، يجثو على ركبتيه إشفاقًا أمام فواجع البشرية وآلامها، ولا يفتأ يتساءل فيما إذا كان الضمير البشري قد أصيب بداء السكتة، فلم يعد قادرًا على أن ينبس ببنت شفة احتجاجًا على سقوط العالم بين يدي القوى الغاشمة التي تنهش قلبه، وتدمي روحه... وهل كُتِبَ على الإنسان أن يعاني الآلام قبل أن يقوى على استرداد روحه التائهة؟! وهل مكتوبٌ على شبيبتنا المثقفة أن يصيبها العفن لعجزها عن تجديد نفسها، والخروج من شرنقة أفكارها، والانفتاح على عالم الإيمان الجديد الذي أنشأته أقلام حُرَّةٌ من نسيج يجمع بين العقل والقلب، وبين الروح والعلم؟! وهل شلل هذه الزمر شلل عقلي دائم لا يريم، أو أنه شلل موقت يمكن أن تتعافى منه في أي وقت؟! وأين مِنَّا تلك الصرخات اليائسة، والأنين المفزع الذي يملأ أجواء السماء من أمّتنا المُسَجَّاةِ على سرير

---

[٣٨] يقول في كتاب الموازين: " أنت تتحدث عن تقدم الوطن وعن سعادة المواطنين... ألم تفكر كيف يتسنى هذا إن لم تؤلف بين المدرسة والمعسكر والتكية، ولم ترتفع بأحيال هذا المثلث فوق جميع مثلثات الشيطان؟" (الموازين، فتح الله كولن، ص:٥٤)؛ ويقول في كتاب ترانيم روح وأشجان قلب: " عند الرجوع إلى روح العلم الموجود في المدرسة الحقيقة، وإلى الحياة القلبية الموجودة في التكية، وإلى روح النظام الموجود في الجندية، وأخيرا إلى البطل الذي يجمع ويؤلف بين أرجل وأعمدة الاستناد هذه." (ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، ص:٤٨).

الموت؟! وأين هم فتيان الحياة الشاربون من إكسير حياة الأبد لينفخوا فيها الحياة من جديد، وليشتروا كلَّ آلامها بحبّهم الجارف العميق..؟!

ألم يكفنا ما عانينا من شقاء لكي تتطهر قلوبنا -كما يرى الشيخ- وتؤوب إلى بارئها، مليئة بالتقوى، ومفعمة بالحب والإيمان؟! مَنْ يَمْحَضُنَا الودَّ غير الودود؟! مَنْ يمسح جروحنا غير يده الآسية؟! مَنْ يرحمنا في عالم قد جفَت فيه ينابيع الرحمة غير الرحمن الرحيم؟! مَنْ يأخذ بِأيدينا في تيه الوجود غير خالق الوجود؟! مَنْ ينهضنا من عثرتنا غير مقيل العثرات؟! ومَنْ يجبر كسرنا غير جابر الكسور؟! ومَنْ يعيدنا إلى تاريخ العالم الذي خرجنا منه إلاَّ ربُّ الأزمان ومحرك العوالم...؟!

إنَّ إنسانًا جديدًا مختبئًا بدواخلنا يمكن أَنْ يُبْعَثَ إلى الوجود، ويحتلَّ مكانًا مرموقًا فوق الأرض.. بصرخةِ إيمانٍ واحدةٍ يطلقها مجلجلةً قلمُ الأستاذ، فتنصدع لها القلوب، وتهتزّ لها الأرواح، وتجيش لها الفِطَرُ، وتنشقُّ لها الصدور، فيملأها نورًا هاديًا، ويضع فيها قلبًا ملائكيًا طاهرًا... فإذا أصحابها بَشَرِيُّونَ يأكلون ويمشون في الأسواق بقلوب ملائكية تسمو على كل القلوب بنبلها وشرفها. غير أنَّ كُلَّ واحد منهم يديم خطاب فؤاده قائلاً: "اُصْمُتْ أيها الفؤاد واصبر وتواضع... كن ترابًا لتغدوَ تِبْرًا، وَدُسَّ نفسك تحت ثرى الأرض لتعلوَ فوق الثريا في السماء."

أمَّا أذهانهم فتامَّةُ الصفاء، وأمَّا عقولهم فتضيءُ كُلُّهَا في لحظةٍ واحدةٍ، بنورٍ زَاهٍ واحدٍ، كأنَّ بعضها يرتبط ببعض بسلْك نورانيّ خفيّ واحدٍ، يسري فيه تيّار كهربيٌّ واحد، فتشتعل كُلُّهَا مرةً واحدةً بِمَسّ خفيف على زرّ صغيرٍ واحدٍ.

من عيونهم يشرق نورٌ هادئٌ، غير أنه نافذ القوة... لا يلتقون أحدًا إلاَّ مَسُّوا أوتار المحبَّة في قلبه، فصار يقطر وُدًّا ومحبَّةً.. ولا يلتقيهم أحد إلاَّ ويجد نفسه منساقًا بقوة دافعة إلى معانقتهم والشدِّ على أيديهم، وكأنهم قادمون من مكان قصي في عالم الغيب، ولو الْتقاهم في اليوم ألف مرة... إذا تكلموا صاغوا كلامهم من حنايا قلوبهم، وإذا صمتوا أكبرتَ صمتهم وَهِبْتَهُمْ ولم تجرؤْ على مخاطبتهم قبل أن يعودوا من رحلة الصمت هذه بآهةٍ حرَّى هي تعبير عن الآم أُمَّة وأوجاع دين.

لمثل هؤلاء الشباب الأفذاذ، ذوي الصفات العالية الخارقة، يحتفظ الأستاذ فتح الله بدمعته الأخيرة... لأنه ما من أحد يسعه أن يكتم دمعة تجود بها عيناه عندما يرى آمال فكره شاخصة أمامه، وأحلامَ روحه حقائق قائمة بين يديه...

هؤلاء هم المصغون لهتاف قلبك، والملبُّون لنداء فكرك أيها الأستاذ الجليل..! ومن أجل حُبِّكَ العظيم لهم تتألَّم روحك، ومن أجل إشفاقك عليهم يبكي قلبك.. إنهم اليومَ مِلأ السمع والبصر، تطرب الأرض بوقع أقدامهم، وترنو السماء إليهم رُنُوَّ الوامق المشتاق، وتجد الأبدية فيهم لسانها المتكلم بألف لسان ولسان... إنهم وجدوا الشيءَ الذي يحيون من أجله، ووقعوا على ما يطيب النضال في سبيله، ألا وهو السلام، ووحدة العالم، تحت ظلِّ إلهٍ واحد، هو ربُّ السلام، ومنه السلام، وإليه يعود السلام.



الأقلام المتلهبة

ظلت "حراء" تستدعي الأقلام الحرة والحارة للكتابة على صفحاتها، لتسهم هذه الأقلام بإذابة الجليد المتراكم على الأذهان منذ الشتاء الحضاري الذي اجتاح الأمة في عصورها المتأخرة. فالقلم الحار والمتلهب ضرورة من ضرورات المرحلة التي تمر بها الأمة اليوم. وعلى الرغم من بوادر استيقاظها، إلا أنها لا زالت تعاني من قشعريرات البرداء الفكرية والوجدانية وحتى الرّئْيَوِيّة والخيالية.

فنحن في حاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى عبقريات ذهنية تتخطى نمطيات الفكر التقليدية، وتخرق الحواجز الجليدية التي لا زالت تجد مَن يغذوها بالمزيد من الأجواء الشتوية المقرورة. ولقد آن للقلم البارد المتثلج أن ينكسر وينحسر عن الأجواء الثقافية الحاضرة، وأن يتوقف عن الكلام المكرور والمعاد الذي قد لا يزيد أحيانا عن نوع من أنواع الثرثرة المقرفة.

ففي هذا الزمان الراكض المتسارع لم يعد بوسعنا المزيد من الانتظار لكي نفتّش بين أكوام القَش عن درة هنا، أو درة هناك. فالفكر إذا لم يكن كله دررًا، وكله وهجا، وكله قوة فاعلة، وطاقة متفجرة، فإنه لا يثير اهتماما ولايحفز فكرا.

فالكلمة الحارة لا تتأتّى إلا من ذوي الأرواح الحارة، والنفوس الإفاقية العالية، الذين يحترقون بأفكارهم، ويلتهبون بأشواقهم، فإذا تكلّموا أحرقوا هشيم النفوس، وأذابوا جليد الأرواح، وأضاءوا عيون الرؤى، وفتحوا منافذ الخيال، وأضافوا جديدا، وجدّدوا عتيقا.

فالأستاذ "فتح الله كولن" هو واحد من هؤلاء المفكرين الأفذاذ الموصوفين بهذه الصفات. وأنا لا أقول هذا في معرض مدح أو مجاملة أو تقرّبا إلى أحد، أو استرضاء لأحد، ولكني أقوله عن قناعات تكوّنت عندي خلال ما يقرب من عشر سنوات من القراءة والدرس لكتابات الرجل في مقالاته وخطبه وكتبه... ولعل هذا هو سرُّ حرص "حراء" على جعل مفتتح كل عدد من أعدادها مقالا من مقالاته، لما تتلمسه من أصداء هذه المقالات وأثرها في نفوس قرّائها وفي أفكارهم.

فالأستاذ "فتح لله" بقلمه الحاد الوهاج، لا زال ينكت في أكوام التجمد الحضاري لهذه الأمة، ويتعمق في فجاج فكرها، ودخائل ضميرها الديني، وهو يرسم بقلمه سعة الأفاق الفكرية التي يريدها أن تتطلع إليها، وتستشرفها، وتسعى اللارتقاء نحوها.

وهو يظل يرصد أوجاع الأمة وجعا من بعد وجع وألما من بعد ألم، ويتلمس عذاباتها في غربتها عن نفسها وتنكرها لجوهر ذاتها، فيتألم لها، ويتوجع عليها، ويرسل في كل كلمة يخطها قلمه أنّة من أنات

روحه، وقطرة دم من نزيف فؤاده... ولكنه مع ذلك يرى أن أوجاع الأمم كلما ازدادت، وآلامها كلما اشتدت، كان أمل خلاصها أقرب منالا وأدنى توقعا.

وفي بوتقة فكره ينصهر الألم والأمل، ويمتزج سر الأرض بسر السماء، ولهب الروح بماء الدمع، والأسى الممض بالفرح الوقور، والإرادة بالعمل، والقول بالفعل، والعلوم الأرضية بالمعرفة الإلهية، والفناء بالبقاء، والزوال بالأبد، والخلود بالعدم... كل هذه المعاني ودلالاتها وأبعادها في نفس الإنسان، تتصارع وتتجاذب في عقله. ولا تجد لها متنفَّسا إلا من خلال قلمه حين يكتب،. وعلى لسانه حين يقول أو يخطب.

فمن كانت هذه المعاني والمدلولات، تشغل عقله، وتستولي على لُبِّه وتملأ كل وقته، لا جرم أن تأتي كلماته حارة دافقة الحرارة، لاهبة للنفوس شديدة اللهب، مثيرة للمشاعر، حافزةً للتفكير، جاذبةً للتغيير، عاملةً ناصبةً وامضةً قادحةً، مشعلةً أُوَار القلوب، صاهرةً أوثان العقول، داعيةَ وحدة وتوحيد، وراعيةَ أمة، وموقظةً من غفلة، ومعليةً من شأن ورافعةً من قدْر.

فالكاتب الذي لا يسقي كلماته لهب روحه، ونزيف قلبه، ليس هو بالكاتب المطلوب للنهوض الحضاري المرتقب.

والكاتب الذي يخاف الولوج إلى ذلك الغور السحيق من آلام روح الأمة وشقائها، ولا يسعى لإنقاذها من تردّيها الماحق، فهو كاتب لاهٍ يلهو بقلمه ولا يجد به.

والكاتب الذي لا يعيش أيامه في بحران من التفكر في أحوال الأمة، فهو كاتب بارد متثلج لا يصلح ليكون كاتب قضيّة يدعو إليها ويدافع عنها.

فنحن -في الحقيقة- بحاجة إلى أقلام تشق في العقول روافد أفكار،

وتشعل فيها حرائق ثورات، وتزلزل أركان الجمود، وتفجر في القلوب ينابيع أشواق، وتأخذ بالأيدي إلى العمل، وتقود الجموع إلى المستقبل المأمول، والمجد الحضاري المطلوب.

الفصل الثاني

معارج القلب الإنساني



معارج القلب الإنساني

كتاب "التلال الزمرّدية، نحو حياة القلب والروح" يرسم فيه مؤلفه -فضيلة الشيخ فتح الله كُولن- طريق ارتقاء القلب الإنساني في معارج المعرفة الإلهية التي هي أرقى معارف الإنسان قاطبةً، وكُلُّ معرفة دونها مدينةٌ لها، وظلٌّ من ظلالها، وأثرٌ من آثارها. وقد استعان الأستاذ في رسم معالم هذه الطريق بتجاربه الذاتية، وبتجارب جمهرة من فضلاء مَنْ سلك هذه الطريق نفسها من عظماء الصوفية الملتزمين بكتاب الله وسنّة رسوله عليه الصلاة والسلام.

والتصوف، على الرغم من كونه تجارب نفوس في طريق التزكية، ومعاناة أرواح يضنيها الشوق إلى الله، تختلف من متصوف إلى آخر، غير أَنَّ مجموع هذه التجارب والخبرات المتراكمة والتي تناقلها الصوفية بعضهم عن بعض عبرَ قرون متتالية تحولت إلى علم له أصوله وقواعده

ومصطلحاته، مثلما أن لكل علم له أصوله وقوعده ومصطلحاته وتجاربه.

وقد وقف الأستاذ عند هذه المصطلحات، وشرح مدلولاتها اللغوية، ومعانيها الاصطلاحية، ومفاهيمها عند أرباب التصوف أنفسهم. ومن خلال هذه المنهجية استطاع أن يجعل القارئ في الصورة الحقيقية للتصوف كما هي دون أي التباس قد يؤدي إلى عدم إدراك مراميه وفهم مقاصده الاصطلاحية التزكوية.

والكتاب بعد ذلك يمكن أن نعدّه نوعًا من أنواع الدراسة للقلب الإنساني في أحواله ومقاماته وسيره وسلوكه إلى الله تعالى، كما أنه في الوقت نفسه دعوة لأرباب القلوب لكي يفيدوا مِمّا يقوم عليه هذا السلوك من خُلُقٍ وأدبٍ، وأذواق وأشواق، في رؤية قرآنية وسنَّة نبوية لا تحيد عنهما. ويمكننا متابعة الأستاذ المؤلف في رؤياه للتطور الروحي للسالك، حيث تبدأ أولى خطوات السلوك عنده بمعرفة النفس التي بين جنبيه، وتجلية جوهرها الإلهي. فالنفس آية من آيات الله تعالى، لذلك أقسم بها بنص القرآن. فَفَهْمُهَا وإدراكُ ما تنطوي عليه من لطائفَ وأبعاد غيبية وشهودية، دليل على أن السالك قد خطى الخطوة الأولى في طريق السلوك.

وتأتي الخطى بعدها متتاليات مترادفات؛ من تخلية وتحلية وتزكية، أو إنْ شئتَ قلتَ؛ من إسلام وإيمان وإحسان؛ وإنْ شئتَ قلتَ، هو علم اليقين، عين اليقين، وحقّ اليقين؛ أو إنْ شئتَ قلتَ، هو استغراق بالكلية في حب الله، وهيام به، وعشق قد يبلغ بصاحبه أحيانًا حد الشده.

كُلُّ هذه الأحوال والمقامات، وارداتٌ وفيوضات تتنزل على قلب المريد، فتنقله من حال إلى حال، ومن قبض إلى بسط، ومن قهر الجلال

إلى باحة الجمال، ومن فرح بالوارد الموجود إلى حزن على المفقود منه، ومن خوف من الإعراض إلى اطمئنان بالإقبال... وهكذا تظلُّ تتقلب النفس في هذه الأحوال والمقامات حتى تبلغ في خاتمة المطاف إلى مقام "الرضى"، وعندئذ تكون هي المعنية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾(الفجر: ٢٧-٣٠).

وفضيلة الأستاذ بكيانه كله، وبوجوده أجمعه، روح عظيم فياض بالمعارف الإلهية. لقد ذهب بعيدًا وبعيدًا جدًّا في ارتقاءاته الروحية، إلاَّ أنه لم يَنْسَ لحظةً واحدةً أنه صاحب قلم مسؤول عن إيمان أمة، وعن حياتها الروحية والحضارية... فما ابتعد إلاّ اقترب، وما غاب إلاّ حضر، وما ارتقى إلاّ ليرتقي بأمته، وما عرفَ إلاّ ليعرّف أمّتَه... فهو دائم الرواح بين الله تعالى وبين خلقه، بين سمائه وأرضه، بين عروج وهبوط، وهبوط وعروج، لكنه مع الأمة دومًا في أوجاعها ومعاناتها.

لقد قرأ لعمالقة التصوف الكبار، من عرب وفرس وترك، وكان له من وجدانه الشاعري، وحِسّهِ المرهف خير مِعْوَانٍ على ذلك، فشرب من الكأس نفسها التي شربوا منها، وخاض البحار نفسها التي خاضوها، وعانى ما عانوا، وَوَجَدَ مثلَ وَجْدِهِمْ، واتَّقَدَتْ شمسُ المحبة في قلبه كما اتَّقَدت في قلوبهم، وسكب الغزير من الدموع كما سكبوا، وأَنَّ، وَحَنَّ، وفاض وَجْدُهُ، والْتهب شوقُه، وعلا نشيجُه، واحترق قلبه، إلا أنه ظلَّ ممسكًا بميزان الشريعة ليفرّق بين مقبولها ومرفوضها... وها هو يؤكد ذلك بقوله: "ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازين السنة النبوية هي الأساس. أما رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون

بحظوظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نيّاتهم وعدم الاستعجال في إصدار الحكم عليهم"[٣٩].

وقلب الصوفي -كما يصفه الأستاذ عن دراية- يظلّ في سُموّ وارتقاء إلى آخر مدياته حتى يقف عند ينابيع العطاء الرباني في بهجة وهيام يزداد لَهيبه في قلبه كُلَّ يوم قوةً على قوة.

فصاحب هذا القلب يتحول إلى إنسان عظيم النفس غير الذي كان، ويشعر أن روحه مفعم بعوالم سامية الجمال تتخذه موئلاً وسكنًا، فيتسع بذلك قلبه حتى ليحتوي العالم بأسره، ويعلو عقله حتى ليشرف على سرّ الواحدية والأحدية ذات الومضات والتجليات في الأنفس والآفاق، وهو في انطراح دائم بذلّة ومسكنة وعجز بين يدي الله تعالى منتظرًا الإشارة والرمز وومضة الهداية إلى الطريق.

ورجال القلوب بهذه المثابة هم تاج الجنس البشري؛ إذا تكلموا أراقوا في كل كلمة من كلماتهم حياةً، وفي كُلّ خاطرة من خواطرهم روحًا، فيخلفون في الأسماع دويًا مستديمًا، تبقى أصداؤه في حنايا الصدور طوال الحياة، وهؤلاء هم الأمل الذي ظلّ الشيخ فتح الله يهدهده في كتاباته حيث يقول: "فالذين يريدون تذوّق هذه النشاوى الروحية اللاّمُتناهية إلى الأبد، يُنظّمون هجرات فائقة جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده، ومما نهى عنه إلى ما أمر به، ومما لا يحبه ولا يرضاه إلى ما يحبه ويرضاه... فيعيشون في فرار إليه تعالى، لا يقرّ لهم قرار إلاّ بإسناد كل

[٣٩] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٢٥٧.

شيء إليه سبحانه، وهذا هو الاعتصام الحقيقي".[٤٠]

والقلب -كما يراه الأستاذ- كونٌ روحي عظيم يقوم قبالة هذا الكون المشهود بسماواته ونجومه وكواكبه، ولكنه حين يغلق نوافذه من دون القرآن يصبح خليطًا من قوى عمياء يصدم بعضها بعضًا ويحطم بعضها بعضًا، بل الحياة نفسها من دون القرآن تقفر وتجدب ويصعب تقبلها، وربما ينتهي عذاب الإنسان في هذه الحياة إلى نوع من أنواع الانتحار الفكري والجسدي.. وكثيرون هم الناس الذين يولون الأدبار في هلع من الحياة، لأنهم عجزوا عن فهمها وإدراك مراميها.. وكثيرة هي النفوس المرتعشة، لأنَّ قبسًا من نور القرآن لم يدلف إليها.

وأنت -أيها الانسان- أتستطيع أن تصوغ نفسك صياغة جديدة...؟! أن تهْدمها وتشكّلها من جديد...؟! أن تعدمها ثم ترتقي بها نحو كمال جديد للوجود...؟! نعم... القرآن يستطيع ذلك... إنه يستطيع أن يجعلك تتسع وتمتد بحيث تتجاوز بما لا يقاس بمصيرك الإنساني الذاتي... بل يجعلك تحسُّ بسمؤوليتك عن الحياة برمّتها، وعن جنس الإنسان بأكمله، بل يجعلك قادرًا على أن تنشئ حقائق جديدة لم تكن تخطر على بال أحد..وإن ملكات عظيمة معطّلة فيك يمكنك أن تبعث فيها الحياة وتنمّيها لتبلغ بك غايات هي ما وراء الموت والحياة، والخير والشر، والأرض والسماء.. حتى إن الأبدية نفسها تظلُّ لا تشغل من وجودك إلاّ بعض هذا الوجود، فإذا بك تصير بهذه الخليقة الجديدة إنسانًا فوق الإنسان، وإيمانًا فوق الإيمان، ويقينًا فوق اليقين، وإلى هذا يشير الأستاذ فتح الله فيقول: "القلب، كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته، وصحة التصور

---

[٤٠] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٥٧.

ووضوحه، وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته... فمشاعر الإنسان المادية والمعنوية تحتمي بهذه القلعة وتُصان بها. لذا فالقلب الذي يحوز هذه الأهمية لا بد له من موضع مراقبة وحَجْر صحي ومنتجع. ذلك لأنه لطيفة عسير جدًّا ضمادها إذا جُرحت، بل أعسر منه إحياؤها إذا ماتت. لذا يوصينا القرآن الكريم بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾(آل عمران: ٨) والرسول الأكرم ﷺ يذكّرنا بهذا الحَجر الصحيّ والحماية حيث يدعو مرارًا صباح مساء متضرعًا إلى الله تعالى: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»"[41].

وقد وضع الأستاذ في هذا الكتاب -على الرغم من كونه دراسة موضوعية لعالم التصوف- شيئًا من ذاته، وشيئًا من روحه وفكره، وفهمه لروح التصوف وجوهره.

إنه يعلمنا كيف نشحن النفس بقوى الإيمان وطاقاته في مواجهة محن الزمان، وهو يريد من المسلم أن يكون عظيم النفس، هائلاً في عظمته، مهيبًا في سموّه، خارقًا في قوة روحه... وأنْ يظلَّ تَعطُّشه إلى الحياة متأججًا في قلبه.. وإذا ما خانته نفسُه رجع إلى الله متضرعًا: "رجعت إليك فأنقذني من نفسي، اكْسرْ قيودي، حطّمْ سجون ذاتي، ارْفعني إليك، خذْني منّي إليك...!"

فهذا الكتاب مرآة للروح تنعكس على صفحاته، وتعكسه على الآخرين.. والروح لا جهات لها، فمن أين أتيتها فقد أتيتها، وكذلك من أين دلفتَ إلى هذا الكتاب فقد دلفتَ إلى الكتاب كله، وإلى روح صاحب الكتاب.. ومنْ هنا هذا الاقتران الحميمي التجانسي بين الروح والقرآن، فكلاهما

[41] التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح، فتح الله كولن، ١/٧١.

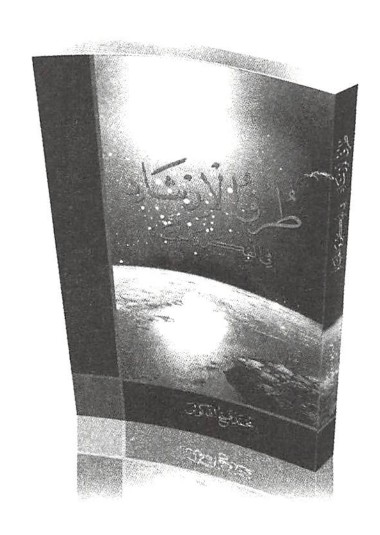
من عالَم الأمر، بل القرآن نفسُه هو روح نزل به روحٌ على روح سيدنا محمد ﷺ، أو إن شئت قلتَ على قلبه... فالروح والقلب في المصطلح الصوفي واحد كما ورد في الكتاب، وهو الساري في أوصال الوجود والباعث فيه الحياة، كسريانه في الإنسان المنطوي على العالم الأكبر.

والصوفي الحق -كما عند الأستاذ- قرآني الروح، سُنِّيُّ السلوك، فلا عروج ولا ارتقاء إلاّ فيهما ومنهما. فإذكاء نار العداء بين الذين يُسَمَّوْن أهل الشريعة وأهل الحقيقة أجّجَ في السابق ويؤجج اليوم صراعات خطيرة بين المسلمين، وهو وَهْمٌ يجب الانتباه إليه، ولعلّ الله تعالى يقيض رجالاً من رواد الحقيقة ورجالاً من رواد الشريعة ليتداركوا هذا الأمر الخطير ويردموا ما بين المسلمين من هُوّات واسعة عميقة.

وأحسب أن هذا الكتاب هو محاولة في هذا الشأن للتقريب بين المسلمين وإشاعة الود والسلام بينهم.

نستطيع أن نعد هذا الكتاب فهمًا جديدًا لروح التصوف وجوهره، كما أنه يرسم للقلب البشري طريق سير نحو عملية إدراكية للمعرفة الإلهية على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام.. بالإضافة إلى ذلك فهو يكاد يكون مرآة لروح المؤلف المفعم بالمعرفة الإلهية وكيفية اعتمادها في خدمة الأمة والوقوف معها فيما تشكو منه من آلام وأوجاع ومعاناة.

اللّهُم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، فحيّنا ربّنا بالسلام، وأدخلنا دارك دار السلام بالسلام، برحمتك ياذا الجلال والإكرام.



الفاعلية الحركية في الفكر والحياة

- عندما لا يحترق القلب شوقًا، والروح عذابًا، والذهن همًّا، فلا تتكلم.. وإلاّ فلن تجد أحدًا يصغي إليك.
- وعندما لا يملأُك الشعور بأنّ دعوتك هي قلب الكون، وروح الوجود، وأنها ميزان العالم، وصمّام أمنٍ وأمانٍ له، فكيف تواتيك الشجاعة لمواجهة العالم كله؟!
- وعندما لا يلتهب في دمك عِرقٌ بطولي عارم يدفعك لتحدي قدرات هي أعظم من قدراتك، وإمكانات هي أعظم من إمكاناتك، فكيف إذن ستخرق المتحديات وتصنع الأعاجيب؟!
- وعندما لا تشعر بمسؤوليتك في إنقاذ الإيمان مما يحيق به من خطر عظيم في العالم كله، فكيف تريد إذن من هذا العالم أن يفتح أذنيه

ليسمعك؟!

- وعندما لا يصدر كلامك مُحمّلاً بألطاف من الشفقة والرحمة بأولئك المجذومين روحيًا ومعنويًا، فإنّ كلامك معهم لا يزيد عن كونه ثرثرة لا يترك أثرًا في أحد.
- وعندما لا تحسُّ بأنفاس الملائكة تمازج أنفاسك، وبرفيف أجنحتها يلاطف وجهك شاهدةً على ما ينطق به لسانك، فلن تشُمَّ رائحة الصدق الذي من دونه لا تتفتّح لكلامك قلوب الآخرين وعقولهم.
- وعندما لا تدفعك مسؤوليات الدعوة لزيادة الإدراك، وفَهْم توجهات العالم الروحية والفكرية، واكتشاف اللغة التي يمكن من خلالها أن يفهمك، فأنت عابث غير جاد... والعابثون من الدعاة يضرّون ولا ينفعون، ويؤخرون ولا يقدمون.
- وعندما تصاب الروح بالفتور، وتنخفض درجة حرارة القلب، ويخبو أوارُ الفكر، فأنت متوعك روحيًا... فعليك أن تصمت، لأن الصمت هنا أبلغ من كل كلام ميّت تقوله.
- وإنْ لم تطرح نفسك التي تضايقك وتعذبك بعيدًا خارج نفسك، فكيف يطهر كلامك ويتقدس فعلك؟!
- وإنْ لم تشرق شمس اليقين بالنصر في سماء كيانك، فكيف يكون كلامك دافئًا وصوتك قويًا؟!
- وإنْ لم ترتّب بيتَ نفسك أولاً، فكيف تستطيع أن ترتب بيوت نفوس الآخرين؟!
- وإنْ لم تكن نفسك جميلةً، فكيف تستطيع أن تجمّل نفوس الآخرين؟!

هذه بعض ملامح عامّة يمكن استخلاصها من هذا الكتاب القيّم "طرق الإرشاد في الفكر والحياة". فمؤلف الكتاب الداعية الكبير الأستاذ الفاضل فتح الله كولن -أمدّ الله في عمره- له في مجالات الدعوة إلى الله تعالى معاناة وتجارب وأحداث ووقائع يمكن أن يفيد منها الدعاة في كل مكان.. وله في هذا الشأن مبتكرات وإبداعات أسهمت في بناء صرح إيماني عظيم على المستويين المادي والمعنوي تكاد تغطّي خارطة تركيا الحديثة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، فضلاً عن إنجازات مثلها في أقطار أخرى خارج تركيا.

وعلينا -ونحن نقرأ هذا الكتاب- ألاّ نتابع انطلاقات قلم الكاتب وحدها، بل علينا إلى جانب ذلك أن نتابع انطلاقات روحه... فالقلم يومئ ويشير إلى هذه الانطلاقات، إلاّ أنه قاصر عن التعبير عنها.

وخير ما يترجم عن انطلاقات روحه ويفصح عنها، هذا الصرح الإيماني العظيم بقدميه الراسختين في الأرض، وبقمّته التي تكاد تلامس السماء، وعندها نستطيع أن ندرك عظمة الروح وقوة الإرادة عندما يجتمعان في الداعية ماذا يمكن لهما أن يفعلا.

والكتاب -بعد هذا الذي قلناه عنه- كتاب فريد في نوعه، إذْ هو ليس كما قرأنا من كتب في الموضوع نفسه بل يمكن أن نطلق عليه عنوانًا آخر، فنقول: إنه كتاب في "فقه المعاناة والألم" من أجل الدعوة... بالإضافة إلى كونه قدحةً تضيء الجوّانيّة العميقة للإنسان، وما تطفح به من نازع إيماني فطري عميق... والكتاب يكاد كله يكون عملية تحريكية لهذه الفطرة المدركة، وترجمة رؤاها، والتعبير عن أهدافها ومقاصدها، كما أنه -أي الكتاب- ضدّ الفوضوية الروحية والفكرية التي تعاني منها الدعوات. وهو

يهدف إلى إرساء قواعد أساسية منظمة في "العمل الدعوي" تحُول بين الداعية والتفَلّت إلى مجالات أخرى غير ملتزمة وغير منضبطة، وبذلك تحتفظ الدعوات بقواها وتمنعها من الانفلات والتبدّد في غير فائدة ولا طائل.

والأستاذ يرى، كما أن الحياة التي نحياها ونستنشق أنفاسها عملٌ فنيٌّ جماليٌّ خلاّق، أبدعه الخلاّق العظيم ﷻ، فكذلك ينبغي أن تكون "الدعوة" حياة تحيا بأنفاس الدعاة وتتحرك بداينمية أرواحهم... وعلى قَدْرِ ما يعطونها من حياتهم، وينفخون فيها من أرواحهم وعقولهم، تنمو وتكبر وتتسع... وعلى قدر توجّههم إلى الله تعالى والاستمداد من رحمته، والتضرع إليه، والوقوف بذلّةٍ ببابه، تتقدّس دعوتهم وتطهر وتتجمل حتى تصبح ذوقًا كلَّهَا، وخُلُقًا كلَّهَا، وأدبًا كُلَّها، وتظلُّ بَصْمتُها بصمةً لا يخطئها أحد بين بصمات الدعوات.

والإيمان عند الأستاذ فتح الله -كما يكشف عنه في هذا الكتاب- طاقة حركية ينبغي أن تتحرك على جميع الجهات، وفي جميع الجوانب.. فهي في الوقت الذي ترفع الإنسان إلى سماوات عالية من الإدراكات الروحية، فإنها في الوقت نفسه تجوب الأرضَ، وتتسلَّلُ إلى مفاصلها وشرايينها، لتبعث الحياة في روحها الثقيلة، ودمها المتجمد. فعظمة الإيمان عظمة كوكبية كونية متحركة، إذا وقفت عن الحركة انطفأت وماتت، كأي كونيّ آخر من كونيات هذا العالم الذي جعل خالقه حياته في حركته.

وعظمة الروح وقوة الإرادة اللَّتان تنبعثان من شخصية الأستاذ "فتح الله" تتدفّقان منه نحو طلبته، كما تتدفق شعاعات الفجر في بقايا من ظلمة الليل. فهو يقاسم طلبته حياتهم، ويقاسمونه هم حياته.. فهو فيهم باعث

دراية ويقظة، وهم فيه باعث نظر وتأمل وحُنوّ وإشفاق.. هو ضميرهم إذا تكلّم أو صمت، وهم ضميره إذا تكلموا أو صمتوا.. وهو دموع أحزانهم وهم دموع أحزانه.. وهو قلبهم إذا ترنَّمَ شجًى، وهم قلبه إذا فاض حزنًا وأسًى...

وإنهم ليرون في أحزان أستاذهم عالمًا من القوة الكاسحة التي لا يقف أمامها شيءٌ، وهو يرى في أحزانهم عالمًا من قوة إيمانٍ لا يؤودُها شيء ولا تثقلها فادحات الخطوب، وأن يمين الدهر مشلولةٌ دون الوصول إليهم، وإرادة الشرّ على صلابة أصلابهم ستتكسّرُ.

وهم يرون فيه سِرًّا إلهيًا خفيًّا، إن تكشَّف لهم بعضه إلاَّ أن أبعاضه الأخرى لم تتكشّفْ بعد، وربما سيأتي زمانها ويحين حينها.. لذا فإنهم يتلقون ما ينفث به وحيُ ضميره، وينبثق عنه فكره، وينفجر عنه فؤاده، بكل الاحترام والتقدير والولاء.

ولأنَّهم يرونه قبضة من طينة الحقّ، فإنهم لن يترددوا لحظةً واحدةً في خوض البحار والقفار من أجل الإيمان الذي كرّسوا حياتهم ووجودهم في خدمته. فما الحياة كما يعلّمهم أستاذهم إلاَّ لمحة بين أبدين.. ولحظة متحركة تفصل أبد الماضي عن أبد الآتي ما أسهلَ أن يتجاوزها الإيمان دون أن تَمسَّ هدوءهُ الجوهريَّ في الأعماق.

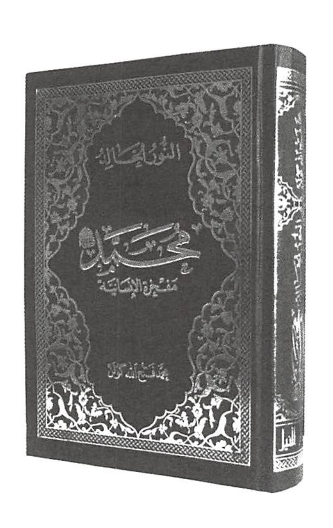
* * *

والأستاذ هنا لا يُعَلِّمُ بَقدْر ما يناجي، إنَّه هنا روحٌ كروح النَّاي يناجي حبَّات القلوب، ويسكب أنينه ونواحه في الأرواح، إن آلام الإسلام في ستة من القرون الماضية قد تجمَّعَتْ كُلُّها في روحه، فذاق حزنها، ولبس شجاها، وغُصَّ بمرارتها.. ولكنَّ هذا الأسى، وهذا الشجوَ، ليس أسى

يأسٍ، ولا شجوَ قُنُوطٍ، إنما هو أسًى في ذَوْبٍ من الضياء، وحزنٌ في هالة من الأمل.. إنه حزنٌ يعمّقُ قوّة النظر ليرى الأعمق والأبعد، وفي الأعمق والأبعد يكمن الأمل، ويأتي الفرج.

* * *

إنه هنا يفصح عن تجربته الدعوية، وعن آلامه ومعاناته في سبيلها.. وفي الوقت نفسه يحاول أن يؤسس قواعد فقه دعوي مستنبط من تجاربه الشخصية، التي تجد في عظمة الروح وقوة الإرادة مددًا يَمُدُّ الدعاة ويقوي من عزائمهم ويفتح سبل النجاح أمامهم.



هوامش على كتاب "النور الخالد"

عظيم الروح، عظيم الإدراك، واسع العقل، خصب الفكر، بعيد الخيال... رجل مثل هذا يمكن أن يكون مؤهلاً لكتابة سير الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وبإمكانه إلى حَدٍّ ما أنْ يلامس الآفاق العالية لروح النبي عليه السلام، ويتتبع هذا الروح العظيم من خلال الأحداث والوقائع في سني حياته المباركة.

فحياة سيدنا محمد ﷺ ليست كأي حياة، إنها حياة ليست كحياة البشر، وإنْ كان هو بشريًّا خالص البشرية... فهو وحده من بني البشر تهيأ له أن يكتشف جدار الوجود وهو يريد أنْ ينقض على ساكنيه فأقامه وعدَّله، كما يشير إلى ذلك "فتح الله كولن" صاحب "النور الخالد" الذي نحن بصدد التهميش على بعض صفحاته وأفكاره... وقد مَرَّ محمد ﷺ بالإنسان فرآه واقفًا على أطلال الديانات السابقة يذرف الدمع، وينعي نفسه لنفسه..

فواساه وكفكف دمعه، وخاطبه قائلاً: أنا اللبنة التي ظل مكانها فارغًا في الصرح الروحي العظيم، الذي بناه الأنبياء والمرسلون من قبلي، جئت لأكمل الصرح وأكون على رأسه وقمّته.

فقد ناقش "كولن" من خلال "السيرة المحمّدية" في هذا الكتاب مشاكل القلب البشري، ومشاكل انعكاساته في مجاري الحضارة العوراء القائمة.. فهو يرى أنَّ "التاريخ" روح عظيم سرمدي الحياة، يتمظهر في الأحداث والوقائع الإنسانية... وعلى ضوء هذه النظرة يرى أنَّ سيرة محمد عليه السلام ليست سيرة نبي جاء إلى الدنيا، وماتت سيرته بموته.. بل هو يرى أن سيرته تشكل أعظم حيويات التاريخ البشري منذ ولادته عليه السلام، وإلى أن تقوم قيامة العالم... فهذه السيرة ليست جزءً من التاريخ، بل هي قوام التاريخ، وكبرى أعمدته التي يقوم عليها، ويتأثر بها، ويتفاعل مع أحداثها شاء أم أبى... لأنها هي العقل الموزون في جنون العالم، والصواب في أخطائه، والحق في أباطيله، والاستقامة في انحرافاته.. لذلك لم يعد العالم اليوم في حاجة إلى نبِيّ جديد، لأن سيرته عليه السلام تقوم مقام أي نبِيّ جديد حتَّى على فرض قدومه.

وكل كتابة في السيرة لا تنطلق من مفهوم الخلود الذي اختاره لها القدر، فهي كتابة قاصرة لا ترقى إلى المستوى المطلوب في تناول حياة هذا الرسول الكريم عليه السلام. ومن هذا المفهوم جاء عنوان كتابه "النور الخالد".

ولئن كانت هذه "السيرة" لا تلقى ما تستحقه من الاهتمام عند الإنسان اليوم، فليس ذلك بسبب قصورها الذاتي عن الامتداد الآفاقي والأنفسي، بل بسبب الهبوط الإدراكي لمشاكل وجود الإنسان المآلي والمصيري،

وارتباط ذلك كله بأسباب البقاء والخلود.

فهذه السيرة -في رأي "كولن"- تمدُّ قارئها ومعايشها بقوى الحياة، إذا ما ضعفت هذه القوى في نفسه لأي سبب من الأسباب، كما أنها تستنهض قواه الذاتية الخافية لتسهّل له عملية رسم أشكال سامية من الحياة لم يكن ليحلم بالوصول إليها.. فيرى عندئذ روح القدر وهو يسوق الأحداث نحو مآلاتها المقرَّرة في اكتساب المزيد من المعارف الإلهية التي خُلِق الإنسان من أجلها، فينحاز في كل سلوكياته إلى المطلق من الصفات والمعاني، ويعزف عن النسبيات والمحدوديات، ولا يجعلها تستحوذ عليه وتفقده وعيه وإدراكه.

إنَّ السيرة المحمّدية لم تكن يومًا ما تاريخًا فحسب، بل هي تربية روحية وأخلاقية وإرهافية وتهذيبية وجمالية للذي يقرأها، فضلاً عن الذي يعايشها؛ لأنه يلتقي محمدًا ﷺ صاحب السيرة وجهًا لوجه من خلال أحداث سيرته ووقائعها.

"أجل، إنه حيّ ونضر في صدورنا إلى هذه الدرجة.. فكلما تقادم الزمن ازْداد نضارة وطراوة وحيوية في قلوبنا... إنَّ الزمن يتقادم ويشيخ، وإنَّ بعض المبادئ والأفكار تتعفَّن وتتهاوى، أما منزلة الرسول محمد ﷺ فتبقى متفتّحة في الصدور كأكمام الورود العبقة أبد الدهر، وستبقى نضرة في القلوب على الدوام"[٤٢].

وبقراءة هذه السيرة -كما هو مجرّب- يمكن استعادة "الصحة الروحية" التي كثيرًا ما يفقدها الإنسان في خضمّ هذه الحياة ولأسباب مختلفة. فهي تَصُبُّ في النفس استعدادًا هائلاً وطاقة عظيمة لصد أسوأ

(٤٢) انظر مقدمة كتاب "النور الخالد" للمؤلف فتح الله كولن.

ما يمكن أن يعتري الإنسان من غفلات كما يؤكد على ذلك "كولن". كما أنَّ هذا الغموض المزعوم للعالم عند البعض يبدأ بالانكشاف ويتخذ صفة المعقولية الوجودية عند ما تنسب لخالق الوجود أولاً وآخرًا. وهذا ما يحاول "كولن" إثباته من خلال الوقفات عند المنعطفات الكبرى من السيرة. فعذابنا الذهني الذي كثيرًا ما يؤجّج في نفوسنا جحيمًا لا يطاق نظل نتقلب فيه السنين الطوال، يمكن الخلاص منه إذا ما عرفنا محمّدًا ﷺ على حقيقته بصدقه وأمانته، وبالحق القرآني الذي أوحي به إليه. فآلام محمد ﷺ وعذاباته وهو يصدع بالحق الذي أُنزل عليه كان الترْياق المنشط لقيامه بأعباء الدعوة دون توقف، وهو المثال والقدوة الحسَنة لكل ما يصيب دعاة اليوم من آلام وعذابات كما يؤكّد "كولن" من خلال كتابه آنف الذكر. فالسيرة عند "كولن" هي عملية تنظيمية لكيفية استقبال الحياة تحت أقسى المقاييس وأشدّها، وهذا هو المثل الأعلى الذي يمكن استخلاصه من أحداث السيرة ووقائعها.

إنّ هذا الكتاب جولة مباركة في آفاق السيرة النبوية الشريفة، تحت نظر القلب، وبمعية الروح والوجدان. إنه يتتبع النور المحمدي الخالد، ويمضي معه في اختراقه سدف الظلام، وتدفقه في شعاب التاريخ والإنسان.

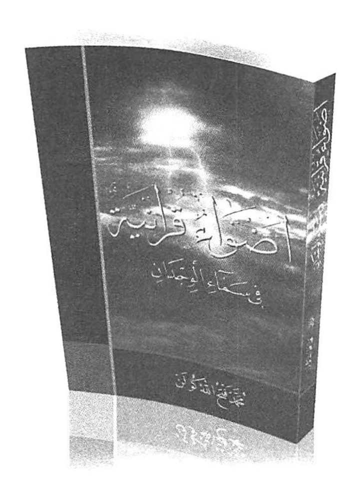
فالسيرة عند مؤلف الكتاب "فتح الله كولن" حضور دائم لا يغيب، يعايش أحداثها المباركة في فكره ووجدانه، ويمتلئ بها حسُّه وشعوره... إنها نبض القلب، وخفق الجنان... إنها تشكل عقله، وتنظم فكره، فتنعكس عنه سلوكًا محمديّ البصمة، وسننًا يحرص على أن يشكل منها واقعه وواقع الناس.

وسيرى قارئ هذا الكتاب كيف أكثر المؤلف من الوقوف عند

المنعطفات الكبرى في السيرة، وكيف زاد من تأملاته في أحداثها الخطيرة، وأشبعها فحصًا ودراسة، واستخلص منها العبر والعظات، واستنبط الدروس، ورَتّبَ المهم لحياتنا الحاضرة وما هو أكثر أهمية، وما هو مُلحٌّ وأكثر إلحاحًا، وأشار الى التوافق بين سنّته ﷺ والسنّة الكونية، وكيف أكّدت السنة على الحيطة والحذر والأخذ بالأسباب في صغير الأمور وكبيرها، وكيف جاءت السيرة موافقة لها... فالنجاح -كما تؤكد السنة- قمينٌ بِمَنْ يعقل ويتوكل، لا بِمَنْ يتوكل ولا يعقل.

كل هذه الأمور سيجدها القارئ في هذا الكتاب مؤطرة بإطارٍ روحيٍ عالٍ، وبعقلانية موزونة لا إفراط فيها ولا تفريط.

- فهو رؤية متميزة في دراسة السيرة النبوية.
- وجولة مباركة في آفاق السيرة الشريفة، بعقل المؤرخ، وبمعية الروح والوجدان.
- ومحاولة جادّة من أجل جعل سيرة الرسول ﷺ حضورًا دائمًا لا يغيب عن عقل المسلم وعن وجدانه.
- ووقوف عند المنعطفات الكبرى في السيرة وإشباعها فحصًا ودراسة.
- وتوكيد على التوافق بين سنته ﷺ والسنة الكونية والحياتية.
- وعرض لنماذج تطبيقية من حياة الصحابة الكرام عن مدى فهمهم وتشربهم لتعاليم الرسول ﷺ.
- وإفادة من السيرة الشريفة، واتخاذها نبراسًا يهتدي بها الدعاة إلى الله في هذا العصر.
- وتوكيد على شمولية الإسلام من خلال معطيات السيرة، وأنه دعوة عالمية يخاطب الإنسان في كل مكان وزمان.



القرآن وعالَم الوجدان

القرآن الكريم كتاب الله المنزل على قلب محمد ﷺ، ليسترشد به الجنس البشري، وليستقرَّ عليه الكون والوجود، وعليه تقوم قيامة العالم، وبه يشقى مَنْ يشقى، ويسعد مَنْ يسعد.

والقرآن يرفعنا فوق العالم، إلاَّ أنه لا يطلب مِنَّا الانسحابَ منه.. ويعلو بنا فوق الكون، في الوقت الذي يريد منَّا أنْ نتنبَّه لأقلّ جزئياته بداهةً وأُلفةً.. ويغوص بنا إلى أعماق موغلة في الإنسان، لنصغي معًا لأَخفى أنَّات روحه، وأوهن أوجاع قلبه.

وإلى مناطق بكرٍ غير مكتشفة من قارَّات الروح يأخذنا "القرآن"، ويرتاد بنا أبعادًا هائلة، وقِمَمًا عالية جدًا، ثم يحذّرنا من الالتفات إلى الوراء، وإلاَّ دار رأسنا، وربما هوينا من شواهق ما وصلنا إليه إلى سحيق ودْيان ما كُنَّا فيه.

وهو يسمو بوجداننا فوق العقل، إلاَّ أنه يظلُّ يذكّرنا بأنه -أي العقل-

معراجنا مع الوجدان في هذه الفوقية.. ويخترق بنا آماد الزمان والمكان، حتى لنكاد نشعر بأمواج الأبدية وهي تضرب شواطئَ أرواحنا، وتنساب إلى دواخلنا، وفي برزخٍ بين أن نكون -بشرًا سويًا- أو ألاّ نكون، يوفقنا القرآن لنرى رأينا ونحزم أمرنا.

وشتيت الروح، وانقسامات النفس، وتشعبّات الفكر، وزائغات النظر، تجد في القرآن ما يلمُّ الشتات، وَيُوَحِّدُ الشِعَبَ، ويجمع المقسَّمات، ويعيد للبصر وحدة النظر ليزداد حدَّةً وقوةً فيرى "اللاّمرئي" فينا، "واللاّمرئي" في الكون والوجود... وهو يعلمنا أنَّ مَنْ لم يكن واحدًا في ذاته، كلاًّ في فكره، جمعًا في وجدانه، فلن يكون له نصيب من تجليات أنوار الواحدية والأحدية؛ لأنَّ الإيمان الحق، هو الإيمان الذي ينبعث عن الكيان الإنساني كُلِّه.

والقرآن -بعد ذلك- ينبوع قوة يتدفق من قوًى غيبية ليستقوي به الضعفاء، ويحيا به الأموات.. وهو العقل المبعوث لجنون كل الأعصار، وشعاع الروح الأزلي فوق ظلمات القلوب والنفوس... فكلماته محمّلة بسحائب الحياة، وآياته تقطر أنداءَ جمالٍ وجلالٍ. وبمقدار ما يجهل الإنسان منه، يكون جهله بنفسه وبالكون وبالوجود مِن حوله... إنه باعث غريزة التوحيد وفطرته من كوامن الإنسان.. وهو عين العالم وقلبه، كم من عقلٍ غَيَّرَ، وكم من روح سما بها، ووجدان ارتفع به.. إن قوانين الفطرة ونواميس الكون تتألّقان في سماء كلماته وآياته.. وفي ثناياه يرقد العقل كله، ومنه تُستَنْشَقُ أنفاسُ الحياة، وفيه تأتلف قوى الطبيعة والفضيلة، ويغوص الكُلُّ في فيض من الحب الإلهي.. وهو يعزّز قوى الحواس، ويفتح نوافذ الخيال، ويؤجج ثورة عشقٍ في سويداء القلوب والأرواح.. أما نبلاء الفكر، فإنهم يجدون فيه النبل كلَّهُ، والشهامة كلَّها، والعظمة

كلِّها... وكمْ من خيالٍ فَتَنَه، ومِذْواقٍ سحره، وبلاغةٍ ركَعتْ لبلاغته.

لقد مَزَّقَ القرآنُ أكفانَ الصمت عن النبُّوات السابقة، وأقام الأنبياء السابقين من مراقدهم، واستنطقهم ليقولوا كلمة الحق في محمد ﷺ، وليأنس بأنفاسهم، ويتأسَّى بسيرهم وبما لاقَوْه من عَنَتِ أقوامهم، وما صبّوه عليهم من نُكْرٍ وعذاب.

لقد هَزَّ محمد ﷺ بنداءَاتِهِ قلب السماء، فانتفضتْ حتى غدت جعبة سهام ناريّة تنطلق لتصميَ أفئدة الشياطين وأتباعهم من المشركين، أينما وجدوا وحيثما كانوا.

وبين قلب محمد ﷺ وقلب الكعبة عشقٌ متبادلٌ عميقٌ موغلٌ في القدم، فهو تَوْأمها في الوجود الغيبي، وهي شطر ذاته، وبعض أجزاءِ جوهر حقيقته في مرايا عالَم المثال، ويومَ وَضَعتْ مكةُ وديعتها الغالية بين يدي العالَم غَطَّت الكعبةَ سحائبُ أسًى لما ستأتي به الأيام القابلة من فرقة وافتراق قدَري لا مناص من وقوعه، قبل أن يسمح القَدَرُ وبعد سنين من الكفاح المتواصل بالوصال من جديد.

هذه -أخي القارئ- بعضٌ من أفكار ومشاعر ومعانٍ جاءت على صفحات هذا الكتاب، وأُريد أن أُنبِّه إلى أَنَّ مؤلف الكتاب العالم الكبير الأستاذ فتح الله كولن لم يزعم أنه في معرض التفسير لما تناوله من آيات قرآنية، على الرغم من امتلاكه لكل شروط المعرفة التفسيرية و أدواتها. وكُلُّ الذي فعله أنه سَجَّلَ في هذا الكتاب ما تلقاه من وَمَضاتٍ والْتماعات وإشارات من بعض مَا تَألّقَ في سماء وجدانه المرهف من نجوم القرآن. ومع ذلك فإنه لم يغفل تمامًا آراء المفسرين في الآيات التي عرض لها، غير أنه توسع بعض الشيء فيها، وانقدحت في خاطره أفكارٌ وَمَعَانٍ جديدة

مضافة، تحتملها الآية من حيث تركيبها اللغوي والبلاغي، ولا تشتطُّ أبدًا في الابتعاد عن أصول التفسير وقواعده المعروفة. ولا شك أنَّ هذه الخطرات أَمْلَتْها ظروف العصر، وظروف الدعوة الإسلامية المعاصرة، وأوحت بها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية... ورحِم الله النورسي الذي قال: "إنَّ الزمان أكبر مفسّر للقرآن".

وأنا على ثقة من أن هذه الخطرات حول بعضٍ من آي القرآن الكريم سوف تجد لها صدًى واسعًا في فكر القارئ العربي ووجدانه.. فترجمة هذه الأعمال الدعوية والفكرية للأستاذ "فتح الله" إلى العرَبية، عمَلية تنشيطية للأفكار، وهي تبادل معرفي جيد بين عقول المعنيين بشؤون الإيمان وقضايا الإسلام هنا في تركيا وهناك في العالم العربي.

جزى الله عنا الأستاذ الفاضل فتح الله كولن خير الجزاء، وآمل من رحمة الله القدير أن يجعل ذلك في صحائف عمله يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلاَّ مَنْ أتى الله بقلْب سليم.

والكتاب في سطور:

- قدحات قرآنية أشعلت وَجدًا في سماء الوجدان.
- إشارات وخطرات مستوحاة من آي القرآن الكريم أملَتْها معارف العصر وعلومه وتوجهاته الفكرية والروحية.
- ذهنية اسْتنباطية متفتّحة لمعانٍ جديدة لها من آراء المفسرين قاعدة وسند.
- إدراك استيعابي لفاعلية القرآن في النفس والمجتمع.



روح الجهاد وحقيقته في الإسلام

المؤمن الحق كما يريده "الإيمان" نفسه، رجل لا يمكن أن تستنزفه تفاهات العيش، بل هو رجل ثائر بكل معنى الكلمة ضد "التفاهة" بكل أنواعها وأشكالها... صحيح أننا نحيا في هذا العالم، إلاَّ أننا نَمتُّ بصلة قوية إلى عوالم جادّة غاية الجد تسكن خارج عالمنا. وإنّ حياتنا الأوسع والأعمق حياةٌ موجودة خارج هذه الحياة، ومرتبطة أشد الأرتباط بالقوى الإلهية الخلاّقة التي صنعت الإنسان ومنحتْ كيانه الأعماقي قوى وطاقاتٍ إذا ما استطاع أن يفجرها فإن دويُّها سيملأ الآفاق، وسيرى في رعودها وبروقها رعود روحه وبروق قلبه.

والمؤمن -كما يريده خالقه- إنسان إيجابي فَعَّال يشارك بكل طاقاته وإمكاناته في حلّ معضلات الوجود الإنساني على هذه الأرض، ولا يقف قَطُّ منها موقف المتطلع والمتفرج، لأنَّ من أعظم مهماته ومسؤولياته

الموكَلة إليه من ربِّ العالمين الاستماتة من أجل إطلاق قوى الإيمان الخفية والفطرية في الكيان البشري، لكي يزداد الإنسان فهمًا عن نفسه وبالتالي يزداد وعيًا وإدراكًا لعمله الرسالي في هذا العالم... فالأمر الوحيد الذي يستحق أن يكافح الإنسان من أجله طوال عمره هو أن يكون إنسانًا إلهيًّا ربّانيًّا.. فما لم يتحول تاريخ المؤمن كله ليكون تعبيرًا حيًّا عن إرادة الله فيه وفي العالم، فإنه لن يشفى من كساحه الروحي المميت.. وما لم تواته الجرأة على تحطيم حبوسه الضيقة التي ألقاه فيها الزمن، والانطلاق بقوة إلى ما فوق الزمن، ليرى العالم من هناك، ويرى مكانه من هذا العالم، فإن دمارًا روحيًّا رهيبًا سيلحق به لا يقْدر على تجنبه، وسيظل لقية مهملة في زنزانات التاريخ لا تثير انتباه أحد. ولا خلاص للمؤمن اليوم من هذه الاندحارات الروحية والمادية سوى بعْثه من جديد لروح الجهاد في روحه وعقله.

فالجهاد بمفاهيمه العميقة والواسعة التي يحدثنا عنها أستاذنا الكبير فتح الله كولن هو عملية فصد للدم الفاسد والآسن في روح المسلم بسبب جموده وركونه إلى الراحة والدَّعة، وتخلّيه عن مهماته ومسؤولياته تجاه نفسه وأمّته والعالم.. فالكسل والفراغ عنصران من عناصر التدَهور والانحلال وخور الروح والقلب كما يرى أستاذنا.

فالجهاد بشقّيه الأصغر والأكبر كما جاء في الحديث الشريف دواء لا دواء سواه لاسترداد المسلم لعافيته الإيمانية وصحّته النفسية والعقلية، وإنقاذه من السقوط في التفاهة والعبثية و "اللامعنى"... وعلى المسلم أن ينتفض من رقاده الطويل، ويسارع إلى اقتحام أهوال الجهاد في ميدان نفسه الوسيع أولاً، لتزكيتها وترقيتها وترويضها، لكي تحيا ضمن مقومات

الإيمان وتعاليم الإسلام، فتبلغ من الرقيّ والتزكية حدًّا تؤهّل صاحبها لتلقّي الإمدادات الإلهية والقدرات الربانية، فيمتلك من هذه القوى ما يرشحه لكي يكون عقل العالم إذا جُنَّ، وميزانه إذا اختلَّ، واعتداله إذا اشتطَّ، وإيمانه إذا كفر، وحلمه إذا جهل، وعدله إذا ظلم، ودواءه إذا مرض... وإن كل قطرة دم تهرق ظلمًا وعدوانًا في أي مكان من العالم تستصرخه وتشكو إليه، لأنه هو خليفة الله في أرضه، ورحمته على عباده.. وبذلك يغدو المسلم نقطة المركز في دائرة العالم في الحقّ والعدل والخير.

فحقيقة الجهاد وروحه -كما يعرضه لنا الأستاذ- إنما هو مداد ودم، وكلمة وسيف، ونور ونار.. وليس هو دمًا وسيفًا ونارًا فقط، بل هو كل أولئك، وإلاّ تحوّلنا دون أن نشعر -من كوننا عنصر بناء وإعمار كما يريدنا الإسلام- إلى عنصر هدم وتخريب وحرق وإحراق، ونكون قد أسأنا إلى إسلامنا وعتّمنا عليه وغشيناه بسحب سوداء قاتمة تجعل الآخرين يخافون منا كما يخافون من أشباح الليل وقواه الشيطانية.

هذه المفاهيم عن الجهاد وإن كان عمرها أربعة عشر قرنًا إلاّ أن الكثير منا -ولا سيما في هذا العصر- قد نسيها أو تناساها أو أكد على جانب منها دون جانب، أو أخذ منها ما يروق له ويخدم توجهاته الفكرية أو السياسية، وأغفل عن عمد جوانبها الأخرى... غير أن أستاذنا -أمد الله في عمره- عالج موضوع "الجهاد" من جميع جوانبه، ووضع هذه المفاهيم تحت حزم ضوئية قوية كشافة، حتى لا يلتبس الأمر على الدارس الجاد الذي يبتغي الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

فذهنية المسلم اليوم ذهنية معذبة تعاني من اختلاط الأوراق واختلاف

الأفكار والمفاهيم، وكثرة الالتباسات والاشتباهات التي علقت بالكثير من المصطلحات الإسلامية... ولعلَّ أخطر هذه الالتباسات ما لحق بمصطلح "الجهاد" في الإسلام، حيث أحاق بهذا المصطلح ظلم عظيم سواء من قبل الأعداء المتربّصين بالإسلام كلَّ شر، أو مِن بعض الأصدقاء الذين يَحْلو لهم أن يفسروه كما يشاؤون من دون أن يبذلوا أي مجهود لدراسته الدراسة المُعمَّقة للتعرف على حقيقته ومفاهيمه وأبعاده الإنسانية.

ولا أضيف جديدًا إذا قلت: إن هذا الكتاب هو دراسة معمّقة جدًّا لمصطلح "الجهاد في الإسلام" على ضوء الكتاب والسنة، واستقراء التاريخ والسيرة، مع عرض نماذج من شخصيات صحابية خطوا بدمائهم الزكية أعمق معالم الجهاد المعنوي والمادي -كما يعبّر الأستاذ- على صفحات تاريخ الإسلام.. ولا أشك لحظة واحدة بأن هذا الكتاب سيملأ فراغًا فكريًّا في ذهن المثقّف المسلم، وسيجلي ما غمض من أمر الجهاد في النفوس أو اعوجّ من شأنه عند الآخرين، وسيكشف عن ممارسات مغلوطة تمارس باسم الجهاد بينما هي أبعد ما تكون عنه.

والكتاب يعرض بعد ذلك شمولية الإسلام في تناول قضايا الحياة كافة، واحتضانه الإنسانية جمعاء، وتوفيقه بين شؤون الدنيا والعُقبى، ورفعه الإنسان إلى مرتبة أحسن تقويم. كما يشرح الجهاد الأصغر والأكبر بشكل تفصيلي مع بيان وظائف الجهاد وما يلحق بالمسلمين من المهالك والأخطار بتركه. ويبين مدى خطر الإرهاب وخدمته للأعداء الخارجيّين الذين يريدون الصيد في الماء العكر.

والمؤلف بأسلوبه البديع يخرج الجهاد من مفهومه الضيق، ويجعله أمرًا يملأ حياة المسلم بكل حركاته وتصرّفاته وسكناته وتفكيره.. وأن

الجهاد الأصغر مرتبط بما يحرزه المسلم من الانتصار في ساحات الجهاد الأكبر في نفسه وعالمه الداخلي. وعلى المسلم أن يقوم بوظيفة التبليغ والإرشاد في المجتمع الذي يعيش فيه لإنقاذ مَن يجوب في وديان الضلالة ويضيّع حياته في سبيل العدم.. وأن الجهاد هو وظيفة الأنبياء وسبب خلق الإنسان وشأن الخلافة على الأرض، وذلك أن الهدف المقدّر للإنسان هو الإيمان بالله ومعرفته تعالى والوصول إلى طريق الخلود بتلك المعرفة والإيمان ورؤية جلوات البقاء والخلود في هذا العالم الفاني.. والجهاد بمفومه الواسع هو الكفيل بالوصول إلى هذا الهدف المنشود.



صور وأفكار

يسعى "فتح الله كولن" في كتاباته كلها إلى بعث "لغة الروح" من جديد، واستنهاض مواتها من تحت التراب... فهذه اللغة -للأسف الشديد- كادت تندثر في هذا العصر المجدب، وتغيب عن الوجود.. فقد نأت أكثر الأقلام عنها، وأهملت الكتابة بها أو العناية بشأنها، واختارت عن قصد مرةً وعن غير قصد مرة أخرى لموضوعاتها لغاتٍ تفتقر إلى العمق الروحي والوجداني، فجاءَت جافَّةً مجدبةً قلَّما تبلُّ غلة قلب، أو تروي عطش روح.

والأستاذ "فتح الله" بإجماع النقَّاد والمعنيين بشؤون الإنسان الفكرية والروحية من الباحثين والمحققين، هو واحد من أعظم رجالات القلب البشري في هذا العصر؛ لا أقول في بلاد الأناضول، بل في أرجاء العالم قاطبة... وهو بإجماع الدارسين متمّم لما بدأ به "النورسي" من فتوحات

عظيمة في مجاهيل القلب والروح والفكر في رسائله "رسائل النور".

فجوهر الروح الديني هو الإيمان بالبقاء، والإيمان بأنَّ الذات الإنسانية عالم كامل وكون عظيم، وهو منبع خوالجنا وأحزاننا وأفراحنا.. ومن هذا الإيمان انبثقت أفكار "كولن" بشمولية النظر، وعمق الفهم والإدراك؛ فراح يطيل النظر فيما تقع عليه عيناه من صور ورسوم على الورق، فقام يفسر ويؤوّل، وبنظره الثاقب اكتشف خفايا الصور وما توحيه من معانٍ وأفكار.. فشرع يرسم الصورة من جديد ليس بالقلم والفرشاة وعيون الكَامِيرات، بل بالكلمات والعبارات.. فإذا الصورة كائن حيّ تهمس وتتكلم بما تنطوي عليه من معان وأفكار.

فهذا الإدراك لمعاني الصور لا يتأتى لإنسان محدود الزمان والمكان والتفكير والشعور، لأن "الواقع الصوري" وإنْ بدا محدودًا في النظرة الضيقة المبتسرة، غير أنه في الحقيقة له ارتباطاته الكونية وعلائقه بالطبيعة والحياة والإنسان.. فالصور الصامتة للمتأمّل الحصيف تقول ما لا يقوله ألْف لسان ولسان.. فقد طمس الكلام من حقائق الأشياء أكثر بكثير مما كشف من أباطيل.

و"كولن" ذو خيال خصب واسع، وهو لذلك يقرض الشعر، فسعته من سعة خياله، وفهمه للصورة مصاغ من معدنه وكنزه.

فهذا الكتاب -عزيزي القارئ- إنما هو لوحات غاية في الجمال مرسومة بالكلمات والأفكار والمعاني كما أوحته هذه الصور الفوتغرافيه.. فهي فكر وأدب وفنّ ونظرات دقيقة في الإنسان والكون والحياة، وهي بعد ذلك كله غذاء قلبي وروحي للجوعى من أصحاب القلوب، والعطشى من أصحاب الأرواح.

وسيطالع القارئ في هذا الكتاب، ومن خلال التأويلات التي يرسمها لهذه الصور، تلك الشعلة الدائمة المتوقّدة في روحه وفي عقله، ويلمس قدرته الفائقة على إلباس -حتى الجمادات- شيئًا روحيًّا مذكّرًا بالمبدع العظيم سبحانه وتعالى.

ولغة الروح التي يعرفها الأستاذ "فتح الله" جيدًا قراءةً وكتابةً، هي التي تملي عليه أفكاره، فيقيدها في المتن القصير والعبارة الموجزة، هذه المتون والعبارات قد يستغرق شرحها عِدَّة صفحات.

إنه هنا لا يستشهد بالآية من القرآن الكريم، ولا بالحديث من السنة المطهرة، ولكنه يأتي بروحَيهما أو بما يشيران إليهما مرةً من بعيد، ومرةً من قريب.. فانطلاقاته كثيرًا ما تكون من الأشياء الملموسة والمرئية إلى ربِّ الأشياء ومكوّنها.

إن "المألوفات" عنده هي "معجزات" إذا نظرنا إليها بعمق وتأمَّلنا ما ترمز إليه من "القدرة والحكمة والعلم" من ضمن أسماء الله الحسنى... أضف إلى ذلك أنّ هذه النصوص من السهل الممتنع التي يفهم منها القارئ على قدر موروثاته الثقافية والفكرية والروحية. وكما أنّ القرآن الكريم يفتح في كُلّ آياته بابًا على العقل، ونافذة على الروح والوجدان، ثم يترك للقارئ حرّية الاستقراء والاستنباط، فمؤلف هذا الكتاب يفعل الشيء نفسه متأثرًا بالقرآن، فيفتح في هذه النصوص أبوابًا على العقل وأبوابًا أخرى على القلب والضمير، ثم يترك للقارئ حرّية الفهم والتأويل دون تدخّل منه.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أنّ بعض صور الكتاب قد تجمع بين النقيضين، وتؤلف بين الضدّين، من أجل المزيد من إلقاء الضوء على المعنى الذي

يريد المؤلف التركيز عليه؛ فالشكل عنده أو بالأحرى "الصورة" تخدم المعنى، وقد يكون العكس، فيخدم المعنى الصورة كذلك.. فكلاهما "المعنى والصورة" يخدمان مقاصد هذا الكتاب وغاياته الأعماقية الفكرية والوجدانية.. إنه يريد أنْ يفضي هنا بجميع مكنونات صدره مستنطقًا كونيات الأشياء ومتحدثًا باسمها وبلُغتها، محركًا بهذه اللغة الحِسَّ الجامد، والفكر الكليل، والوجدان العليل.. إنه هنا يربط بين جوّانية الإنسان وحتمية العالم البَرَّاني.. فالنزعة الفنّية التي يكتب بها نصوصه نابعة من الإنسان وشوقه الأبدي لتأكيد ذاته وإنقاذ نفسه من الفناء والعدم، وفي هذه الصور وفي مستوحاة الأستاذ منها قوة متحركة وجذوة متّقدة، لأنها مصاغة من قلبه ومن روحه بشاعرية فنّية مبدعة، هي بمجملها طراز جديد من الفكر المبدع يستوحي الصورة ويستنطقها أو ينطقها هو بما يريد فتتضح معمَّيات الأشياء والأفكار.

فالوجود كله صور وظلال، صور شبحية وظلية لحقائق غيبية "ماورائية"، تعجز عقولنا عن إدراكها، وتقصر مفاهيمنا عن استيعابها، فتسيل ظلالها من عالم الملكوت إلى عالم الملك.. أو إنْ شئت قلت، هي أشباح ذلك العالم.. أو إنْ شئت قلت، هي أطياف تطوف في أذهاننا ومخيلاتنا كمرايا تعكس من حقائق الأشياء على قدر ما تطيقه أفكارنا ومخيلاتنا منها.. فالصور هي تجسيد لخفايا المعاني، نفهم منها بعض ما تعكسه علينا من مجردات المعاني. فالتجريديّون من المفكرين والفلاسفة والفنّيين يلجأون إلى التجسيد والتصوير لكي يعطوا لتجريداتهم أشكالاً ترمز إلى خفايا ما يكنّون من أفكار ومعان.. فالجنة نفسها التي هي من تجليات أنوار الرحمة والقدرة شاء الله تعالى أن تكون جسدية حسية لترمز إلى قدرته تعالى

ورحمته بعباده.

ومن هنا جاء اهتمام "كولن" بـ"الصورة"؛ فالصورة عنده كائنات حيّة يمكن أن نفهم عنها وتفهم عنّا إذا نحن تكلّمنا معها بلغة الروح التي يحسن الأستاذ التكلم بها.. وهي تُخفي من المعاني أكثر مما تظهر، وترمز إلى مَعالِمَ من عالمي الملك والملكوت، اللذين يرتبطان ببعضهما ولا ينفصلان.. فإذا هو تحدث عن "عالم الملك" وَشّاهُ بألوان من "عالم الملكوت" وإنْ شاقه شيء من عالم الشهادة ربطه بمثله من عالم الغيب... فكلامه كله يدور في مستويات فكرية عالية، وانتقالات ذكية بين "النسبي" و"المطلق" و"المتناهي" و"اللامتناهي"، وبين جزئيات الحياة وكلّياتها، وجزئيات الكون والطبيعة وكلياتهما.

ولإيمانه بـ"الكلمة" وبقدراتها على الخلق والإبداع والإنشاء والتغيير استخدمها ووضعها في مكانها المناسب من "النّص" المرصود لهذه العمليات التي هي الغاية الأساس من كل الإبداعات الفكرية والفنّية.. ومن أجل ذلك كان يعتمد "العنوان" لكل ما يريد قوله أحيانًا، ثم يشرع في الشرح والتبيان، وأحيانًا أخرى يشرح ويفصل ثم يجمع ذلك كله بأوجز عبارة بمثابة عنوان لما فَصَّل وشرح.

وكما أنّ صاحب النظر الواسع والعميق يمكن أن يرى في قطرة الماء الواحدة بحرًا واسعًا، وفي الذرة عالَمًا، فكذلك القارئ الحصيف يمكن أنْ يصغي إلى خفقان قلب الكون خلال سطور هذا الكتاب وخواطره وأفكاره، ثم يتلمس وجدانه فيجده قد اختُطِفَ منه وصار جزءًا لا يتجزّأ من وجدان هذا الكتاب، ومن مشاعره وعواطفه... وإني لأحسب أنّ "الكلمة المبدعة" التي يتلهف عليها العالم المتمدّن سيجدها في محتويات

هذا الكتاب. إنّ امْتزاجًا غاية في الروعة الفنّية بين كل شيء في السماء مع كل شيء في الأرض في نشيد ملْحمي واحد سيشكل عالمًا لحنيًا يطرب نفوس طلاب الأدب والفن والفكر الصافي والوجدان النقي.

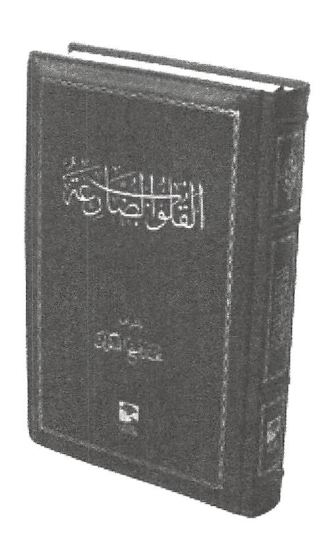
إنّ مَنْ يطرق أبواب هذا الكتاب إنما يطرق أبواب مملكة واسعة الأرجاء من المشاعر والأفكار. وقراءته تعلّمنا كيف نعيش في مستوى عالٍ من الحدس والشعور المرهف والحس الرفيع، مثلما نعيش بأذهاننا وأفكارنا.. وأنْ نكون على استعداد على الدوام لنرى صور الأشياء المحيطة بنا من كل جانب وهي طافحة بالإيماءات إلى خالق الصور ومنشئ الأجساد والأرواح ﷻ.

إنّ نضالاتنا الذهنية تبدو بلا معنى إذا نحن لم نُدخِلْ إلى حومة النضال معنا قوى أرواحنا ومشاعرنا وخيالنا وأحاسيسنا وكل لطائفنا الأخرى لنستقوي بها جميعًا في هذا النضال في مواجهة مِحَنِ الفكر والإيمان. إننا ملزَمون جميعًا أنْ نضرب عاليًا في معارج الرقي الإنساني. وأيّ توقّف عن هذه الغاية سيدفعنا دون شعور مِنّا إلى دركات سفلية مظلمة تفقدنا البصر والبصيرة؛ فالروح المنكفئة على نفسها ستصاب بالبرداء والارتعاش عند دخولها عالم الأرواح الحركية الحارة، شاعرةً بالغربة بينها، وبالدونية تجاهها. إنّ شيئًا من الاستفزاز الروحي سينتابنا ونحن نجوس خلال هذا الكتاب، وهو ما يقصد إليه المؤلف في كل كتاباته، وهذا بالقطع سيساعدنا على تلقّي الإشارات الغيبية لولا ما عندنا من كبرياء واستعلاءات جاهلية تحول بيننا وصفاء السمع ونقاء الرؤية.

لقد أثقلتنا الآثام ودنّستنا الدناءات، فغلظت مشاعرنا، وتورمت أحاسيسنا، ولم نعد كما كنا ذلك المركز الاستشعاري الذي تهزّه نسائم

الغيب، وتحركه إلهاماته، وتقوده لاستكشاف آيات الله في صور الأشياء وتعكس من معانيها الشيء الكثير لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وخلاصة القول فالكتاب في سطور:

- انطباعات صور على صفحة وجدان شفّاف.
- قلم حي يبعث الحياة في الجامد والموات.
- نظر مجنّح الخيال يرى في الصورة ما لا تراه العيون.



خلايا الذات النائمة

تظل الكثير من طبقات "الذات" عند الإنسان، تعاني من الركود والجمود والسأم والضجر، لأنها معطَّلَة لا تعمل، وساكنة لا تتحرك؛ فخلايا ذاته النائمة، وقواه الخافية المخنوقة، لا تعود إلى الحركة والعمل إلا إذا حفّزها حافز، أو ألَمّت بها ملمة.. فإذا ما خافت وارتعبت، وأحاطت بها المخاطر من كل جانب، جاشت هذه الذات وارتفعت درجة حرارتها، ونهضت لتعمل بكل طاقاتها وطبقاتها من أجل مدافعة المخاوف والأخطار، وعاد الدم يتدفّق إلى أجزاء روحها من جديد، وسارعت إلى اللجوء إلى مَن هو قادر على إعانتها وحمايتها مما يتهدد وجودها ويسعى إلى موتها.

فجنْس الإنسان، جنس ضعيف وعاجز مهما تظاهر بالقوة والقدرة؛ فقُواه محدودة، وقدراته ناقصة، تحيق به المخاطر من كل جانب، فلا يستطيع مدافعتها وحده من غير معين ومساعد، لذلك فهو مضطر للجوء

إلى صاحب القوة والقدرة المطلقتين، وهو الله سبحانه وتعالى...

فالذات الكسلى، ما لم تتجرد من أردية الكسل، وتقف أمام الله تعالى عارية مكشوفة القلب، مفتَّحة الصدر، مخلصة القصد، مطلقةً ألسنة التضرع والدعاء، فلن تجد الطمأنينة والأمن والسلام... فالإنسان المعاصر بكل ما وصل إليه من العلوم والمعارف، وبكل ما أنجزه من مخترعات ومكتشفات، فهو يعاني الكثير من الشتات والانهيارات والتمزّق، إنه يكاد يتحطّم على أرضية حضارته كما تتحطم قارورة الزجاج الأنيقة والرشيقة إذا سقطت على الأرض تهشمت.. إنَّ حياته اليوم -للأسف الشديد- مجموعة من الفوضى لا يعرف كيف ينقذ نفسه منها ويعود إلى عالم من النظام والتنظيم الروحي والعقلي معًا.

فـ"القلوب الضارعة" بلْسم لضمير الإنسان المعذَّب، وإفصاح عن حقيقة إيمانه، وعن عمق هذا الإيمان وجوهريته.. إنه يتكلم بلسان الفطرة، ويتحدث عن لواعج القلب، ويترجم عن حاجات النفس، ويبين عن أشواق الروح.. إنه يفتح كوة في جدار الوجود يتطلع منها الإنسان إلى الهدف الذي خُلق من أجله، والمصير الذي إليه سيفضي.. إنه مثير للطاقات الحيوية الخامدة في الإنسان، ويأخذ بأيدينا إلى مكان الصدارة من هذا الكون، وينقذنا من القزامة الروحية، والضئالة الإيمانية، فتتعملق أرواحنا، وتتعالى قوانا، وتغنى إدراكاتنا الإيمانية.. وهو يشحذ الجانب الكفاحي من النفس الإنسانية ضدَّ شرور العالم، وهو دعوة ملحة لتركيز الذهن بعظمة الألوهية، ويمهد للمزيد من التعرف عليها، والتأمل فيها.. ثم هو بعد ذلك "القلوب الضارعة" ينقذ الإنسان من مشاغله التافهة التي تشغله عن ربه، فيحب القرب منه، والتعرف على مراضيه ومساخطه.. كما

أنه ضد الضحالة على أنواعها، وضدُّ الكسل الروحي الذي هو منبع كل شقاء الإنسان، بل يعمل على إحياء الجذور الروحية شبه الميتة فيه..

فهذا الكتاب الذي هو نتاج عظماء الروح يسعى بمجمله إلى تغيير الإنسان من الأدنى إلى الأعلى، ومن "اللاّهدَفية" إلى "الهدفية"... إنه صرخات إيقاظية لمن يغطّون في نوم "اللاّمبالاة"، ودعوة لسيطرة الإنسان على نفسه، ولجمها عن هواها... إنه يريد من الإنسان أن يكون مرآة صافية نفيسة، تعكس الومضات الإلهية المنبثة عن الوجود الإلهي الأكبر والأعظم من كل وجود.

بين دفتي هذا الكتاب -الذي جمعه العالم الرباني فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن"- أنّات قلوب، وأشواق أرواح، ودموع واجدين، وضراعات توابين هارقين نجيعهم على عتبات سامع النداء، ومجيب الدعاء، ومكفكف الدموع، وقابل التوب، الرحمن الرحيم، والبَرِّ الغفور ﷻ...

هنا يتلاشى الزمان ويضمحلّ المكان، ولا شيء يبقى غير فيوضات أشواق، وومضات احتراق، ومكابدات أكباد، وكوًى تتفتح على أبد الآباد، ومشاكي أنوار تتألق في سماء الخلود.

هنا رجال أدركوا فَسَموا بإدراكهم، وعَرَفوا فارتفعوا بعرفانهم. فلم يعودوا واقعين تحت ضغوط الأرض، أو محبوسين في ضيق الكائنات. إنهم رجال مُلهَمون، وإلى آفاق الغيوب يستشرفون.

رجال "القلوب الضارعة"

سألتني -أيها العزيز- أنْ أعرِّفك برجال كتاب "القلوب الضارعة"... مَنْ هم... وما أحوالهم وشمائلهم وأوصافهم..؟ فأقول وبالله التوفيق:

إنهم رجال ليل... ذوو لوعاتٍ وزفرات... وأَنَّاتٍ وعَبَرَات... ودموع سافحات... وأشواقٍ حارقات... وآلام صارخات... وأحزانٍ كاويات... وألسِنَةٍ ضارعات... وأَكُفٍّ مرفوعات... للرحماتِ مستنزلات... وللألطاف الإلهية راجيات...

بأنفاسهم يتعطَّر الليل... وبوجودهم تحت جناحيه... يأنس ويطرب... وبركعاتهم بين جنبيه إلى ربِّه يتقرَّب... جنان الخلد إليهم شَوَّاقات... وعيون الحور العين إليهم رانيات... ولهم منتظرات... أبصارهم نافذات... وبصائرهم كشَّافات لَمَّاحات... تلمح البعيد... وترى "ماوراء" الآفاق... وتستشرف مستقبل الأقدار... وما يأتي به الليل والنهار...

إنهم أوتاد الأرض... ورواسيها الشامخات... من دونهم تترنح الأرض... ويصيبها الدوار... ويعمّها الاضطراب...

إذا ما غابوا... غاب الأمان... ونصب الخوف راياته في كل مكان... وعلى الأرض تُصَبُّ البلاءات صبًّا... إنْ لم يأتوا الكعبة أتتهم... وفي صلواتهم وافتهم... وأمامهم انتصبت... وقُدَّامهم وقفت... تزيدهم أشواقًا... وخشوعًا وإخباتًا...

بهم تندى الأسحار... وبدموع أرواحهم تتساقى الأرض كؤوس الوجد والاشتياق... إذا ما استمعنا إليهم شعرنا بأنَّ عالَمًا جديدًا يُخْلَقُ فجْأةً في أرواحنا... فهم يودعون في أرواحنا من الأسرار ما لا نجسر على الإسرار بها حتَّى لأنفسنا... نتشرب دموعهم قبل أن تجفَّ عن أجفانهم...

إنَّ أوتار حياتنا تظل ساكنة إلاَّ إذا حركتها كلماتهم، ولامستها أنامل أذهانهم... إننا إذْ ننحني أمام سمُوِّ أرواحهم، وعلوِّ أفكارهم، ينحني معنا الذكاء البشري المتواثب إلى الأعالي، والتوّاق إلى استرداد الروح من

أعاليها الماورائيات وسماواتها الصافيات، وآفاقها النقيات...

إذا قلوبَنَا أعطيناهم، استودعوها أرواحهم، وملَّكوها بصائرهم... لنرى برؤاهم، ونبصر ببصائرهم، وننهل من معين معارفهم، ومن ينابيع علومهم...

إنهم إذا لحظوك غيروك، وبالآخرة ذكَّروك... وإنْ كنتَ في هبوط انتشلوك... أوكان قلبك بغير الله مشغولاً أفرغوه ثم بذكره أترعوه...

عقولهم بأجنحة الروح تجوب الزمان، وتستقرِئ الأكوان، وتحمل الإنسان بعيدًا في الزمان، لتلقيه في غوالب لُجَّهِ، وغوامر موجه، ثم لتذيقه بعد ذلك من شراب الخلود، وتسقيه من كأس السرمدية رشفات...

وإن كانت عيناك بضباب الأرضيات محجّبتَين، أزاحوا ضبابهما، وحَدُّوا نظراتهما، فبصرتَ واستبصرتَ، ورأيتَ المُلْك والملَكوت قائمين بقوامة الله وقدرته...

إذا نطقوا انْثال نطقهم فكرًا جليلاً، وحكمةً مُصَفَّاة... يفسرون لك لُغْزَ الكون، ويعلّمون طريقك في الدنيا والآخرة... الأنوار في أرواحهم ينابيع دَفَّاقة، تغسل الإنسان من الأدران، وتطهّره من الأرجاس... إنْ بَرُدَ وُجْدَانُكَ أَوْقدوه، وإنْ أظلم أناروه... ماء الجمال والبهاء يتقطّر من أردانهم، ويفيض من وجوههم... باعث حزن وشجن في أصواتهم إذا تكلّموا... تسابيحهم في الليالي وَجْدٌ وأشواق، وصلواتهم ضراعات باكيات، يخافون أن يكونوا من أهل الغِرَّةِ بالله، ويشفقون أن تُرَدَّ عليهم أعمالهم، ولا تُقبل تضرعاتهم.. حشاهم في نيران الوجد مذاب، وأفئدتهم مسيل دفّاق، تشرب منه الأكباد الحرَّى، والأرواح العطشى... إنهم قوى مشعّة تنفذ في الإنسان، فتحرك سواكنه وتحيي مواته...

إنهم الغيث المغيث لمجدبات الأرواح، وقاحلات العقول... وعيون غيوثهم لا تنضب أبدًا، وعطاؤهم لا يتوقف عند حد... صلاتهم فناء بالله، وبقاء به، فهم بين فناء وبقاء... في غدو ورواح، على منابع أرواحهم يرِد العطاش، ومنها ينهلون، ووقدات نيران عشقهم جذوات لبُرَداء النفوس وشواتي الأرواح...

يضربون في فيافي الإنسان وفي قفاره، يتسمعون إلى أسى ترانيمه المنبعثة من ضنى القلب ووجع الروح، فتمتدّ أيديهم لتمسح القلوب، وتُطبَّ الجروح...

إنهم للأرض ربيع دائم، وللإنسان غمام هاطل... وإنهم في المكان الأعلى من سلم البشرية، يكفِّرون بأحوالهم عن خطايا جنس الإنسان...

وإنْ كنا عاجزين عن بلوغ قممهم، فلا أقلَّ من أن نحبّهم وندين لهم بالولاء...

فـ"القلوب الضارعة" جدْول رقراق، وماء زلال، لعطشى الأرواح وظامئي القلوب.. "القلوب الضارعة" أنّات أرواح، وتوجُّعات أفئدة، ترتفع عاليًا مستجدية الرحمة والغفران.. "القلوب الضارعة" أشواق أمّة، وضراعات إيمان.. "القلوب الضارعة" دعْوة للعجز الإنساني كي يلتجئ في عجزه إلى قدرة القادر القدير، وقوّة القوي المتين.. "القلوب الضارعة" طرقات قلوب وأرواح على أبواب رحمة الرحمن الرحيم.. "القلوب الضارعة" مدخل عظيم للتعرّف على الله تعالى في علُوّه عن خلقه، وفي قربه منهم في الوقت نفسه..

إذا كان الدُّعاء مخّ العبادة كما ورد في الحديث الشريف، فإنّ "القلوب الضارعة" هي عصارة العبادات جميعًا.. يا شجيّ الروح، ويا

جريح الفؤاد..! دعْ "القلوب الضارعة" تأخذ بيدك إلى حيث اليدُ الآسية، والرحمة السابغة.. يا مُقْفِر القلب، يا مُجْدِبَ الروح..! خُذْ "القلوب الضارعة" غيثًا لقلبك، وخصبًا لروحك.. إنْ كنتَ بعيدًا عن الله، فغُصْ في "القلوب الضارعة"، يأتِكَ القربُ.. وإنْ كنتَ مستوحشًا، فادخلْ عالَم "القلوب الضارعة" يأتِك الأُنسُ.. وإن كنتَ مذنبًا، فبِماء "القلوب الضارعة" اغْتسلْ لتتطهّرْ...



من وحي كتاب

"الموازين أو أضواء على الطريق"

يقول الأستاذ فتح الله في كتابه "الموازين" ما يأتي:

"الإنسان سائح، والكون معرض للمشاهد الملونة، ومكتبة زاخرة مطروحة لنظَره وتأمّله وسياحته. وهذا السائح أُرسِلَ إلى هذا العالم لكي يقرأ هذه الكتب، ويزيد في معرفته. هذه السياحة الممتعة لا تتيسّر للإنسان إلاّ مرة واحدة. وهذه السياحة الوحيدة تكفي بالنسبة لصاحب العقل الرشيد، والقلب اليقظان لإنشاء جَنّاتٍ كجنّات عدن، وكجنّات "إرَم ذات العماد". أما بالنسبة للذين يعيشون مغمضي العيون، فلا تكون سوى لحظة عابرة تأتي ثم تمضي بسرعة"[٤٣].

إنَّ لسان حال الأستاذ يقول:

---

(٤٣) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص:٣٥.

أيها الإنسان!.. أيها المسلم!..

كيف يمكنك أن تعيش ومثل هذا الجحيم من البعد عن الله في قلبك وعقلك..؟ أعلمُ أنَّكَ ضربتَ في الأرض كثيرًا، وَجُبْتَ الأقطار تبتغي الخلاص مِمَّا في داخلك من نيران... ولكنك لا زلتَ مريضًا خائفًا حتى من وجودك ذاته، ولا زالتْ نيران الجحيم تزداد استعارًا... جوعك الروحي يتفاقم.. عطشك لرواء الإيمان يزداد حرقةً.. مخاضات فكرك غاية في العسر...

متى تؤمن بالنظام والمعنى الكامنين في الحياة؟! متى تؤمن بالتوافق الأبيد بين الإنسان والكون والحياة؟! متى تؤمن بأنَّ الكون نفسه يمد إليك يد المعرفة والصداقة؟! متى تؤمن بأنَّ السلوك الإنساني في هذه الحياة يجب أن يكون مترعًا بالجمال والمودّة والمحبّة؟! متى تؤمن بأنَّكَ موجود بالله ولله...؟!

إنَّ شعاعًا إلهيًا يمكن أَنْ يسطع في روحك لو أردت ذلك... لم أَعُدْ أُطيقُ نُوَاحَكَ الحزين... أَصْحُ... أنتَ وعي غائب... افتحْ قلبك كله لتتسلّل إليه لحظة من لحظات نور الإيمان الخالد... بعض نفسك ميت، متى تلحده إلى الأبد، وتبعث الحياة في بعض نفسك الآخر..؟ عقلك مُنْهَكٌ... روحك مُتْعَبٌ... لا تركد فتفسد... أتريد صاعقة من السماء تحرق جهالاتك وضلالاتك...؟! متى تسري فيكَ حُمَّى المعرفة...؟!

أَعْلَمُ أنَّ أحاسيس نظيفة تنتابك بين مدة وأخرى... انْتبهْ... إنْ لم ترعها وتسقها من ماء القلب قتلتك قبل أنْ تقتل نفسها... لا شيء تملكه يمكن أن ينقذك مِمَّا أنت فيه...

لو كنت موجودًا حقًّا، فقل لي مَنْ أنتَ...؟ ولماذا أنت موجود...؟ لا

شيء يعطيك المعنى والمغزى غير الإيمان... ولا أحد يقدر على إضاءة نفسك غير الإيمان... أتبحث عن عقيدة سياسية تنقذك من عذابك...؟ هيهات... هيهات... أنت على خطإ كبير ... إنّ الدين هو أعمق جذورًا في النفس الإنسانية من أيّة عقيدة سياسية تؤمن بها... تحرّرْ من قيود نفسك أولاً، إنْ كنت تريد الحرية... أنت ميّت تبحث عن الموت، ونحن نريد لك الحياة... أتريد للموت أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة فيك...؟! ثمَّ تُطوَى صفحتك ولم يعد أحدٌ يذكرك... أتستطيع أن تتجاهل الموت وتدير ظهرك إليه...؟! إذن ماذا أعددت له...؟ أين روحك الطاهرة لتجد مكانًا لها بين الأرواح المتجانسة المترابطة... تفصلنا عنك رغباتك الأرضية المشتعلة... متى كنت سماءً شديدة الصفاء لكي يبرق في أفقها نور الحقيقة...؟! أين ذكاؤك المتجدد...؟ إنك لن تكون الأخير على هذه الأرض لتشهد الحياة وهي تسير إلى نهايتها التي لا يمكن تجنّبها...

لا تمطر دنياك بالمزيد من اللعنات... إنها لم ترفضك... ولكن رفَضَتْ جهالاتك... ليست طبيعتك الإنسانية مريضة، بل المرض جاءك من خارج نفسك... أنت إنسان ولست رمزًا حسابيًا في هذا الكمّ البشري الهائل... يجب أن تَعلم أنّ هناك طريقة أخرى للحياة هي أطهر وأنقى... إنّ لحظةً إيمانية واحدة تكافئ كُلّ السنوات اللاّحقيقية التي عشتَها... هل أنت مستعدّ لتبدأ الحياة من جديد...؟! حسنًا إذن... هاتِ يدك واتّبعني، ولا تلتفت وراءك...

يحزنني أن أراك ساقطًا في هوة "اللاّمعنى" وأنت تنتحب... أنت صاحب إرادة، ولكن أين الدافع...؟ إرادة بلا دافع لا تعمل... ليكن دافعك معرفة الله... عند ذلك تأتيك الإرادة راكضة لتسعفك وتعينك...

ألم يَئِنِ الأوان لكي تتوقف عن الانحدار إلى عالم الظلام...؟! لماذا أنت فاتر الهمّة...؟ لماذا لا تشعل هِمَّتَكَ، وتوقد إرادتك...؟ لَمْلِمْ نفسك، ولا تكن موزَّع النفس... وحّد نفسك... فيك مئات من "الأنا" المتصارعة، وحِّدْ "أناك".

أنتَ سُؤُومٌ ملول... يسأمُ مَن لا يعمل... مَنْ لا ينشغل بالعظيم، شَغلَته الصغائر... هيًّا كنْ للخدمة مثلاً أعلى... تقدَّمْ، فإنّ باب العمل مفتوح... لا يمكن أن تكون هناك أماكن راحة لرجال الخدمة... كنْ غيورًا على وقْتك...

تحرّكي أيّتها الطّاقة الإيمانية في الأعماق، فما زال أمامنا شوط بعيد...

* * *

هذا الكتاب عبارة عن نظرات في مختلف شؤون الفكر والحياة والمجتمع. وهو يضع أمام القارئ موازين دقيقة في مختلف هذه الشؤون، ويفتح بصره وبصيرته أمام حقائق عديدة قد يغفل عنها وهو في خضمّ هذه الحياة... وهي حقائق تمثل روح الأمة وفكرها وذاتها وماهيتها، وتحول دون ذوبان الفرد المسلم في تيارات الأفكار الواردة إلينا من الغرب أو من الشرق، وتحقق شخصيتنا واستقلال أفكارنا.

إنه يرسل نظره ليجول في شؤون الفكر والحياة والمجتمع، ثم يزن كل ذلك بموازين الحق العادلة والدقيقة التي لا إفراط فيها ولا تفريط. إنه يرسم للفكر منهاجًا، وللسلوك طريقًا، ويحرص على ألاّ يجعلنا نسقط في هاوية الضياع، وعلى أن نكون ذوي شخصيات إسلامية مستقلة بنظرتها إلى جوهر الوجود وحقيقة الحياة.



ونحن نقيم صرح الروح

إن هذا كتاب نفيس لم نقرأ له مثيلاً يرسم خارطة دقيقة وتفصيلية للكيفية التي يمكن بها إقامة هذا الصرح العتيد من وهدته. والكتاب -بعد ذلك- طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح، ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر..

كما المنارات في عرض البحار تهدي بالْتماعات أضوائها في الليالي الحالكة السفائن إلى مراسيها، هكذا هي صروح الروح منارات تهدي الشعوب إلى برِّ الأمان والسلام..

وقد نهض "كولن" يشمّر عن أردان روحه وفكره من أجل أن يقيم هذا الصرح الذي عملت فيه معاول الهدم والتخريب منذ زمن بعيد، حتى كاد يتهاوى أنقاضًا ولم يعد يؤدّي رسالته في الهداية والصلاح... وقد انتدب

نفسه لهذا العمل العظيم ونادى إليه أصحاب الهمم والإرادات ليسهموا معه في هذا البناء الذي يؤمَّل أن يكون صرحًا عظيمًا تأوي إليه القلوب والأرواح، وتقبس من أنواره، وتستضئ بأضوائه..

فكان هذا الكتاب "ونحن نقيم صرح الروح" واحدًا من إسهامات رجال الروح في تبيان آليات هذا البناء وكيفيات إنشائه لبنةً لبنةً حتى يكمل البناء، ويقوم الصرح على قواعده الإيمانية الراسخة وأفكاره المتجددة.

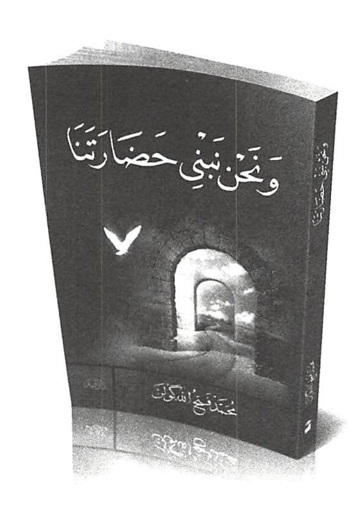
يعاني المسلمون تفككًا روحيًا رهيبًا، وهذا التفكك هو سبب مشاكلهم الإيمانية وأزَماتهم الحضارية. وهذا الكتاب القيم يشخص عِلَّةَ هذا التفكك، ويبين أسبابه وتداعياته. فعلَّةُ العلل في ذلك هو انهيار صرح الروح، وسقوط مناراته العالية الذي أحدث دويًا سمعه العالم كله، وأحدث اضطراباً هائلاً في شخصية المسلم وفي أُسس إيمانه.

إنَّ هذا الكتاب يجوب القلب البشري ويأتي بلبنات البناء من مقالعه، ويجوس خلال الروح، ويعود بفلذاتها لتكون الحجر الأساس فيه، ولكي يعلو شامخًا بحيث يراه العالم كله من أي جهة نظر إليه، ويجد في ظله الأمن والأمان. وخير من يقوم بهذه المهمة الإيمانية الحضارية هو جيل الطهر والإيمان الذي لم تتلوث روحه، ولم يتنجَّسْ قلبه.

والكتاب طافح بالأمل في مستقبل قيام هذا الصرح، وهو حين يقوم فسيكون أعجوبة من أعاجيب هذا العصر، يعلو على كل صرح، ويسمق فوق كل حضارات القلب والروح في الماضي والحاضر.

فهذا الكتاب خارطة إنشاء يرسمها عقل هندسي كبير لبناء هذا الصرح من حبَّات النفوس ولبنات العقول.. فـ"كولن" دائم التذكير بحاجة الأمة إلى هذا الصرح الذي إذا افتقدَتْه افتقدَت كلّ شيء، وإذا بنَته وصانَته من

عوادي الزمن، فإنه سيغدو أولى خطواتها إلى حضارة عظيمة لا زالت الأجيال تحلم بها وتترقب قدومها.



ونحن نبني حضارتنا

في عالمنا الإسلامي ما انفكت صروح الفكر السامي تتهاوى صرحا بعد صرح، ولبنة إثر لبنة، بفعل معاول الهدم والتخريب التي ظلّت تعمل بصمت مريب خلال قرون عديدة.

في هذا العالم المنقض يقلّ البُناة، ويعز البنّاؤون... فالأستاذ "فتح الله كولن" هو واحد من قلة من البُناة الذين يسعَون لترميم المتصدع، وإقامة المنقض، وبناء المنهدم.

وكتابه القيم "ونحن نبني حضارتنا" مَعْلَمٌ عالٍ من معالم الصرح البنيوي الذي يعمل على إنشائه من جديد، وإقامته على أسس من القوة والمتانة ليسلم من عوادي الزمن، وعواصف الأيام والسنين، ويستعصيَ على معاول الهدم والتخريب.

ففي هذا الكتاب سجل حافل للأدوية التي يصفها لعافية الروح

الحضاري، واستشفائه من أمراضه... إنه يعتمد في بناء الأساس الحضاري كما يتنبأ به على ما يمكن أن نسميه بـ"الروحية العلمية" التي تمزج بين عالمَيِ الفكر الروحي والفكر العلمي. إنه هنا لا ينطلق من فكر هوائي تأملي، بل من فكر تجريبي واقعي. فالمدارس التي يشجّع على إنشائها في أرجاء العالم تعتمد هذا النهج في فلسفتها التعليمية والتربوية.

إن هذا النهج مجرَّب في المتأثرين بأفكاره من المثقفين والمتعلمين، لأنه ديناموُ المجتمع الحضاري الذي ينشده في أعلى قمّة من قمم الروحية مع أعلى قمة من قمم العلمية في يقينياتها المؤكدة.. لأن الإنسان عنده جسر يصل بين الطبيعة التي هي منشأ كل العلوم، والروح الذي هو منشأ كل الأديان؛ وعليهما كليهما تنشأ الحضارات، وتقوم المدَنيات.

وأفكاره في كتابه "ونحن نبني حضارتنا" تدور حول العمل على التوحيد النفسي والفكري بين عالَمَي الطبيعة والروح؛ إنه يرسم لحياة المسلم طريقا لا يستطيع معها أن يتساءل: لماذا أنا هنا..؟ وماذا أصنع بحياتي..؟ لأنه لا يجد ذلك التناقض المؤلم بين طبيعته الطينية وأفكاره السماوية. لأنه يخلُص في خاتمه المطاف إلى الإيمان بأن هناك قوة مبدعة أعلى من كل إبداعاته، وأنه إذا كرّس نفسه لخدمتها فإنه سيبلغ أسمى أهدافه في الحياة والخلود.

فالأستاذ "كُولَن" في هذا الكتاب يكاد يصرخ وهو يشير إلى الإنسان الذي يعيش تحت سقف الكون أن نفسه ونفس الكون هما من طبيعة واحدة، فأخوف ما يخاف منه الأستاذ "كولن" أن يسقط المسلم في فراغ حضاري قاتل ومجهول، فيظلَّ طافيا على السطح لا هو ميت فيُنْعَى، ولا هو حي فيُرجَى.

إن مشكلة المسلم الحضارية اليوم هي أن حُمَّي الحياة لم تصبه بحرارتها لكي تنشط ذاتيته التي تنطوي على أغلى كنوز وجوده الإنساني والحضاري، لذلك فهو يحاول في هذا الكتاب أن يذكِّره بهذه الكنوز ويحفزه للبحث عنها والحفر من أجل العثور عليها.

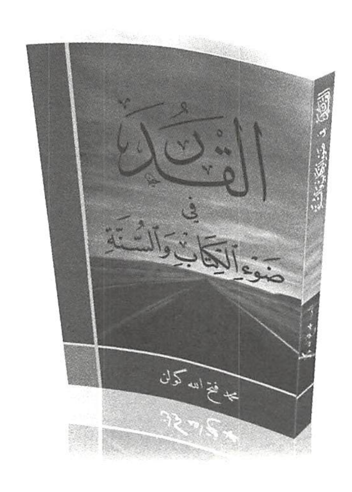
إن المسلم بقدر ما هو يشعر بالضعف، إلا أنه في الوقت نفسه يمتلك من القوى الخفية، ما إن تتفجَّر حتى تُحْدث ذلك الدويَّ الحضاري الذي يظل يتصادى في أرجاء المعمورة لقرون كثيرة من الزمن.

فكلما زادت حرارة حُمَّى الحياة شدةً في المسلم، زادت معها قدراته على امتلاك ناصية الفكر الحضاري الذي يسعى إليه، لأنه عندئذ يجعل رسالته في الحياة هي العيش من أجل الحقيقة لا من أجل أي شيء آخر.. والعيشُ من أجل الحقيقة هو أُولى خُطى المعرفة الحضارية الآتية.. فهذه الحرارة ستذيب تراكمات الزمن على أبواب الإدراك، وتعمل على تنظيفها.. وعندئذ يمكن أن يشرع بحوار مع نفسه ومع الطبيعة والكون...

ويجدر بنا أن نلخص مضامين هذا الكتاب بعدة نقاط على الشكل الآتي:

إنه يتحدّث عن المقاربات الفكرية بين "كولن" وعمالقة الفكر الإنساني عبر التاريخ.. وعن مفهوم "الحرية" عند "كولن" وعند رواد الحرية المعاصرين.. وعن المردود الأخلاقي للتفسير الروحي للكون عند "كولن".. وعن التجوهر الإيماني في ذات الإنسان، ومردود ذلك على حياة البشرية.. وعن الحوار من أجل سلام يعمُّ البشرية قاطبة كما يفهمه "كولن".. وعن مدارس الخدمة عند "كولن"، وتشكيل العقل الحضاري الجديد. الانبعاث الحضاري في الأمة ما هي قواعده وأصوله؟ وما

هي لبنات هذا البناء من أين وكيف؟ عوامل النهوض الحضاري كيف نشخصها؟ وكيف السبيل إلى استخدامها؟ العقل الحضاري كيف نبْنيه؟ السلوك المتمدن كيف نشكّله في النفوس؟



القدَر في ضوء الكتاب والسنة

يمكن أن نلخص مضامين موضوع "القدر" كما جاءت في كتاب الأستاذ فتح الله كولن بالآتي:

١-للإنسان إرادة لا شكّ في ذلك، ولكنها ليست الإرادة الوحيدة في هذا العالم.

٢-ما يريده الإنسان ليس بالضرورة حتمي التحقق، فتَحققها منوط بنفاذها من بين مجموعة إرادات أخرى؛ إنسانية، وكونية، وقدَرية.. فعليها أولاً: أن تنفذ من بين زحمة إرادات البشر المتصارعة؛ وثانيًا: ألاّ تصطدم بإرادة أكبر، هي إرادة الكون المتجلّية في نواميسه ودساتيره؛ وثالثًا: ألاَّ تناكف قوة أعظم، هي قوة القدر الذي يطوي الوجود جميعًا في قبضة يده.

٣-صراع الإرادات البشرية، وهيمنة النواميس الكونية، تحدُّ من إرادة الإنسان، وهي كذلك بعضٌ من مظاهر تجليات القدر.

٤-يقوم القدر بين البشر مقام المعلم الحكيم بين تلاميذه، فهو لا يعطل عقولهم ولا يحجر عليها، ولكنه يوجه مساراتها من بعيد.

٥-إنه لا يشل إراداتهم، ولكنه يسمح بنفاذ بعضها ولا يسمح بنفاذ أخرى لحكمةٍ يراها هو ولا نراها نحن.

٦-قد يبدو القدر قاسيًا على الإنسان، غير أن هذه القسوة تخفي في طياتها حكمة خافية عن عقولنا القاصرة لكنها موجودة لا شكّ في وجودها.

٧-إنَّ يد الإنسان، ويد القدر الإلهي، موجودتان معًا في كل الأحداث والوقائع كما يقول "النورسي"؛ فحبْل الأقدار أحد طرفيه بيد الإنسان، والطرف الآخر بيد القدر.. ومن حركتهما معًا تتنزّل الأقدار، وتتشكل الأحداث والوقائع، ولمزيد من إلقاء الضوء على ما جاء فيه نقول:

يتناول الكتاب مسألة القدر التي عُدَّت من مزَلاّتِ الأقدام، ويقدمها بأسلوب سهل مقنع من خلال أمثلة واقعية، ويبين أنها مسألة "حالية وجدانية" أكثر مما هي مسألة عقلية.

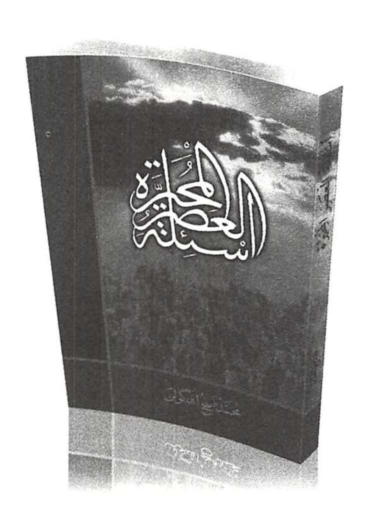
والكتاب مفعم بالأجوبة الشافية المزيلة لما علق في العقول من أدران الشبهات حول القضاء والقدر، وما يتعلق بهما من العلم الإلهي والمشيئة الإلهية، والخلق والجزء الاختياري للإنسان وماهية الجزء الاختياري.

ويوضح الكتاب صلة الإنسان بالقدر، ويحلل المسألة من خلال الآيات الكريمة والأحاديث وإيضاح هيمنة القدر والتقدير والنظام والانسجام والتخطيط والميزان والاتزان على الكون كله بدءًا من أصغر شيء إلى أكبره، سواءً أكان حيًا أو جامدًا. كما يوضّح بعدم وجود تناقض بين القدر الإلهي والإرادة الجزئية للإنسان، ويعقد موازنة بين المشيئة الإلهية

ومشيئة الإنسان مبيّنًا وظيفة الإرادة عند الإنسان.

ويحس القارئ اللبيب وهو يقلب صفحات الكتاب أن المؤلف يتناول هذا الموضوع الشائك بأسلوب شيق سلس يستفيد منه العوام والخواص. ونلخص ذلك من خلال الأسطر الآتية:

- أنت حُرٌّ، فإذن أنت مسؤول.
- المشيئة الإلهية، والمشيئة الإنسانية، ما هو الرابط بينهما؟
- علْم الله المطلق بما كان وبما هو كائن وبما سيكون، ليس فيه إلزام للإنسان بفعل ما هو المعلوم عند الله تعالى.
- الثواب والعقاب على نوع الاختيار.
- الجزء الاختياري عند الانسان هو مناط التكليف والحساب.



أذهان حائِرة

في كل عصر من العصور تنجم في الأذهان إشكالات يحار فيها المرء ولا يهتدي إلى حلول لها، فيكثر من السؤال عنها من أصحاب الخبرة والمعرفة... ولهذا العصر الذي طغت فيه الماديات على الروحيات إشكالات.. منها ذاتية تنتاب المؤمن ويسعى ليجد أجوبة عنها.. ومنها إشكالات تطرحها الحضارة القائمة والعلوم الحديثة قد تجرُّ المؤمن إلى التشكك في إيمانه أو في مستلزمات هذا الإيمان.

وفي مجالس الأستاذ "فتح الله" الوعظية وفي غيرها من المجالس يُسأل الأستاذ من قِبل طلابه والحاضرين عمومًا عن بعض هذه الإشكالات التي تراود أذهانهم، فيسارع الأستاذ إلى الأجوبة عنها ومناقشتها بشيء من الشرح والتوضيح، وبشكل مسهب تتجلّى فيه حقائق الأشياء وتنحلُّ العقد وتتكشف الأمور بحيث لا يبقى الذهن في ريبة من الأمر...

وقد جُمعت هذه الإشكالات التي سئل عنها الأستاذ في مجالس مختلفة وأوقات مختلفة في كتاب سمّي "أسئلة العصر المحيرة"، منها ما يتعلق بالإيمان والقرآن، ومنها ما يطرحه المادّيون من أسئلة لغرض تشكيك أهل الإيمان بإيمانهم، ومنها ما يتعلق بالخلق والإيجاد، وبنظرية التطور، وغير ذلك من قضايا تشغل أذهان طلبة العلوم بكافة أصنافهم...

وبالمجمل فهذا الكتاب محاولة غاية في الجد لإنقاذ الحائرين والمتشكّكين من التردّي في المهاوي الخطرة التي قد تجرُّ إلى الجحود والإنكار، كذلك فهو يعزز إيمان المؤمن ويقوّيه ويثبّته ويبعث فيه الإيمان بأحقية معتقداته وبمصداقية مسلماته.

فالجيل الجديد يحاول حاليا تلمّس طريقه بين كل هذا الصخب من الأفكار والفلسفات التي تغزو دياره والقادمة إليه من الشرق والغرب. ومعظم هذه الأفكار الجديدة عليه تشكل تناقضا مع ما ورثه من أسس فكرية انتقلت إليه من مجتمعه. وهو في خضم هذه الأفكار الجديدة المتضاربة بعضها مع البعض الآخر والمتناقضة مع جذوره الإسلامية يقف حائرًا: أيدَع نفسه للتيار القوي الهادر الذي يحاول قلْعه من جذوره، أم يرجع إلى جذوره؟ ولكن كيف يرجع وجذوره الفكرية هذه متهمة ليل نهار بالرجْعية وبأنها لا تناسب روح العصر؟

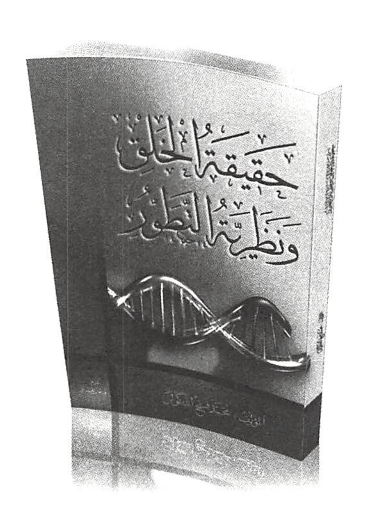
لذا ففي مثل هذا الخضم الصاخب من الأفكار يكون دور مثل هذه الكتب التي تتناول المواضيع التي تثار حولها الأسئلة مهمة جدا وطوق نجاة للعديد من الشباب الذين يتوقون لمعرفة الحقيقة ولا يدْرون كيف يصلون إليها. قد أخذ الأستاذ محمد فتح الله كولن حاجة الشباب بنظر الاعتبار فصرف جهدا كبيرًا في سبيل إزالة الشكوك والإجابة على

الاستفسارات والأسئلة التي تحيّر عقولهم.

هذا الكتاب عبارة عن جملة عظيمة من الإجابات عن أسئلة تحير الأجيال الصاعدة من أمّتنا، وهو محاولة لإنقاذهم من التردي في مهاوي الشك الذي يحاول زرعها في نفوسهم أعداءُ الدين.

ويمكننا تلخيص ما جاء في الكتاب بالآتي:

- إنه جواب يبلغ حدّ الإقناع على تحديات العصر الشكوكية.
- خلود القرآن، كيف؟ ولماذا؟
- الموت، معناه الديني والفلسفي.
- ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾(الأعراف:١٧٢)، كيف نسمعه ونشعر به؟
- نظرية "داروين"، ما سرُّ التشبث بها على الرغم من تهافتها؟
- "الدور والتسلسل" في الخلق والإيجاد.



حقيقة الخلق ونظرية التطور

ينقد الأستاذ "فتح الله كولن" في كتابه نظريةَ التطور لـ"داروين".. فهو يرى أن "الداروينية" سقطت إلى الأبد في اليوم الذي أثبت فيه العلم الحديث أنَّ لهذا الكون قانونًا يحكمه، ويضبط شؤونه، ويدير آليته.. وهذا يعني أنّ للكون عقلاً يهيمن على جزئيات الكون وكلّياته، وبذلك تسقط مقولة "الداروينية" بنفي العقل عن الكون.

ومبدع العقل الكوني هو مبدع كلّ العقول، وهو الله سبحانه وتعالى الذي سعت "الداروينية" إلى حجب وجوده عن العالم وإبعاده عن إرادة الخلق والإيجاد.

وفي الغرب كما في الشرق، مفكرون كبار نقدوا الداروينية وأثبتوا زيفها، منهم "برناد شو" المفكر الإنجِليزي المشهور؛ فقد هاجم هذه النظرية بقوة وسخر منها واعتبرها واحدة من أسباب تدهور الغرب

وتصدُّع حضارته.. وهو يرى -كما يرى كثير من مفكري الغرب ومنهم المؤرخ الكبير "توينبي"- أن العودة إلى الدين هو المنقذ والمخلّص لهذه الحضارة من التدهور والسقوط المريع.[44]

وقد سعى الأستاذ فتح الله كولن في كتابه آنف الذكر إلى تبديد الأوهام التي تحاول هذه النظرية غرسها في عقول أنصاف المتعلمين في الشرق العربي والإسلامي بما تحيط به نفسها من هالة علمية مشلّة للأذهان، ومخدّرة للعقول؛ فقليل من البصيرة المدركة كفيلة بكشف عوار هذه النظرية وتهافت أركانها، وتساقط أسسها.

فإذا كان أصل الإنسان حيواني الجذور، فأين يذهب "داروين" بأشواق الإنسان الروحية والماورائية، وكيف يفسّر قيام النظم الروحية التي تغطّي العالم، والنظم الذهنية العالية اللذين يجد فيهما الإنسان تلك النشوة الحيوية التي هي أعمق من أن يدركها المدركون، وأوسع من أنْ تحتويها أوسع الذهنيات..؟! فما يحدث في دواخل الإنسان من الإدراكات العالية يعني أن الإنسان أعظم وأرقى من أن يكون حيواني الأصل، بل هو صناعة إلهية وهِبَ من الحالات الذهنية الواسعة والعميقة بقدر ما في الكون من عوالم. وهذه النظرية لا زالت تحدث بلبلة في فكر الجماهير، ولاسيما بعد محاولة بعض الكتاب المسلمين للتأليف بينها وبين الإسلام، وهي نظرية خطيرة جدًّا لأنها:

١-تحاول إثبات أن جميع المظاهر الرائعة للحياة ظهرت بعوامل المصادفات، لذا فلا حاجة هناك لوجود الخالق.

٢-تحاول إثبات أن الحياة صراع، والبقاء للأقوى، وأنه لا مجال هناك

---

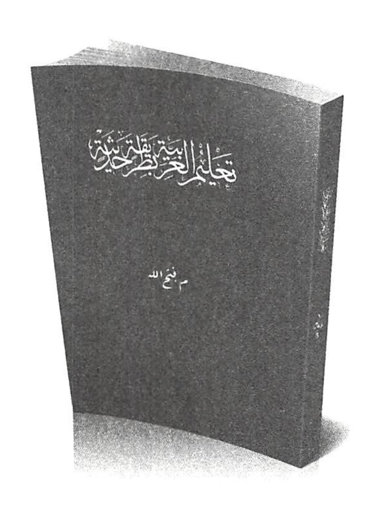
(44) انظر: سقوط الحضارة، لكولن ولسن.

للضعيف... لذا كانت هذه النظرية السند العلمي للنظريات العنصرية كالنازية والفاشية.

٣-هذه النظرية تخالف ما جاء في جميع الكتب السماوية من أنَّ آدم عليه السلام هو أبو البشرية: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»، لذا فهي تزرع بذور الإلحاد والشك في نفوس جميع أتباع الكتب السماوية. وبما أن هذه النظرية لا تزال تدرَّس في جميع المدارس والجامعات في العالم فإن خطرها لا يزال مستمرّاً، ولم يتم القضاء عليها كما يتوهم بعض البسطاء وبعض المتفائلين.

إذن فلا بُدَّ من أن يقف عندها أصحاب الدعوات لكي يبينوا زيفها وخطأها وخطرها على الفكر الديني، وهذا ما فعله المؤلف في هذا الكتاب. فالكتاب في سطور هو:

- كتاب نقدي يسعى لتفنيذ نظرية "داروين" في "النشوء والارتقاء".
- آثار هذه النظرية التخريبية في الدين والمجتمع والدول.
- "الحياة للأقوى" مفهوم دارويني يؤجج الصراعات بين الشعوب والحضارات، ويبرر استعمار القوي للضعيف.
- الإباحية الجنسية وجذورها الداروينية في العصر الحديث.



داعية القرآن

داعية القرآن، السالك طريقه، العاشق له، الهائم به، الحامل رسالته، الشارب من رحيقه، الهادئ إليه، المهتدي به، الجائع لكلامه، المتعطّش لزلال ينابيعه، الساهر ليله بكلامه، المتعبّد بلسانه، المعلِّم بلغته، المتألّم بآلام أتباعه، من الذين يقدسونه ولكنّهم عن فهمه عاجزون، لأن العربية لا يفهمون.. إنه يدعوهم ليجهدوا في تعلم العربية، ولو بالقدر الذي يمكّنهم من فهم ما يقرأون من آياته وكلامه...

إنّه فضيلة الأستاذ فتح الله كولن.. الذي أحبَّ للعربية أن تكون تاجًا فوق رؤوس المؤمنين من أبناء جلدته الأتراك.. فكَم حدّثهم عن القرآن، وحدّثهم عن تعاليمه وعن قداسته، وحثّهم على تعلّم لسانه؛ فألّف لهم كتابًا غاية في البساطة والسهولة لمن يرغب في تعلّم هذه اللغة التي تفتح لهم طريق فهم القرآن واستدراك ما فاتهم من خير كثير بجهلهم بها..

وقد ألّف الأستاذ هذا الكتاب لتلامذته الذين كانوا يتلقّون عنه دروسهم الدينية لكي يساعدهم إلى حد ما على فهم ما يقرأون من كتاب الله في الستّينيات من القرن الماضي، وهو في العشرينيات من عمره.. و لا زال إلى اليوم يدرّس العربية والعلوم الشرعية لطلابه ضمن منهج يومي متوالٍ..

فكتابه "تعليم العربية بطريقة حديثة" بأجزائه الخمسة، إذا أقبل أيّ إنسان على اتخاذه معلمًا له مبتدئًا بجزئه الأول ومنتهيًا بجزئه الخامس، فإنه سينتهي من ذلك وقد ملك مفاتيح هذه اللغة التي تتيح له فتح أقفالها والإيغال في طرقها وشعابها..

يقول فضيلة الأستاذ عن هذا الكتاب ما يأتي:

"نوينا في سعينا هذا طريقة جديدة ضاربين في جهات شتّى عن نواحي حياة الطفولة، فبذلنا جهودنا في وضع تمرينات عديدة سهلة المعنى قدر الإمكان، وموافقة لمدارك المبتدئين.. ونحن نأمل أن نتمكن من وضع أشرطة تسجيل تعليمية لنصوص الكتاب كأسلوب يساعد الطالب على أن يتعلم بنفسه.. الله أرجو أن يؤجرنا وأن يوفّقنا -بجهدنا القليل هذا- في نشر لغة القرآن وتذليل الصعوبات التي يعانيها التوّاقون إلى تعلّمها، والله من وراء القصد كله، وإليه المرجع والمآب.."[٤٥].

ويقول في حرقة قلب عن القرآن:

"يَتيم هو... أفْديه بروحي... نعم يتيم هو... هناك جموع غفيرة لا تعرف لسانه، ويتألّمون بجهلهم بلسانه... هذا القرآن يبكي بمرارة، إنّه يتيم منذ ثلاثة عصور... لقد مات والده... ماتت جماعة الإسلام... لقد

[٤٥] تعليم العربية بطريقة حديثة، فتح الله كولن، مقدّمة المؤلّف، ص:١.

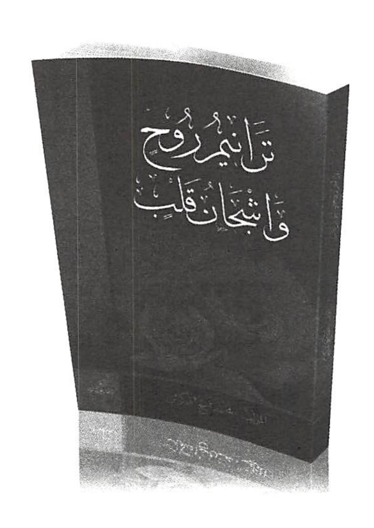
كان بطَلي ومقدامي... دفَنوه في الربوة المقابلة... يتيم هو القرآن.."[46].

فهذا الكلام النابع من حرقة قلب صاحبه ينمُّ عن عشق عظيم للقرآن ولغته، وهو بالتأكيد السبب الذي دفَعه إلى تأليف هذا الكتاب إسهامًا منه في تعظيم كتاب الله، وبالتالي تعظيم اللسان الذي أُنزل به.. وهو في الوقت نفسه دعوة كريمة للمسلمين من غير العرب للاهتمام بتعلّم هذه اللغة، لأنها توصلهم إلى فهم كتاب الله، وهذا هو أسمى ما يبتغيه كل مؤمن صادق الإيمان... فهذا الكتاب إنما هو:

- منهج لتعلم العربية لغير العرب.
- مكتوب لتعلم العربية من غير معلم.
- يأخذ بنظر الاعتبار التعليم لكافة الأعمار.
- كتاب موضوع على أسس تربوية تشويقية للمتعلم من غير ملل.
- هو مفتاح يفتح أبواب "العربية" للمتعلم.

---

[46] وعظ "الحزن المقدَّس"، مسجد "الحِصار" بمحافظة إزْمير / تركيا، تاريخ: ٢٤ يونيو ١٩٩٠.



منطلقات القوى الروحية في الإنسان

يدق الأستاذ "محمد فتح الله كولن" من خلال فكره على أبواب القلب، يطرق ويديم الطرق: "اِفتحْ يا قلب... دعني ألج بكلماتي إليك... دعني أُعالج أغلاق خزائنك... دعني أكشف عن أسرار مداخلك... دعني أطلق قواك الخفية... وأُدير مفتاح الفهم عن الله في روحك... دعني أبتعث فيك مواجيد الحنين... دعني أنفض عن أهداب روحك نعاس السنين... دعني أشقّ أكفان الموت عنك... دعني أبدد ضبابيات الأرض التي تغشى وجودك... دعني أنقش صورة الآخرة على صفحة الشغاف منك... دعني أعَرِّف ذاتك بذات الكون... دعني أعقد معرفة بينك وبين الطبيعة، وصلحًا بينك وبين شقيقك الإنسان..!".

والأستاذ فتح الله كما هو قمّة عالية في أفكاره الإيمانية والدينية، فهو كذلك قمة عالية في قدراته الأدبية والفنية، يجمع بينهما بجدارة واستحقاق،

ومن هنا تأتي كتاباته مزيجًا من الاثنين معًا، فتتميز وتتفرد مذاقًا وأسلوبًا.

فمجموعة مقالاته الافتتاحية في مجلة "رشْحَة" (Sızıntı) الشهرية، تؤكد ما ذهبنا إليه من هذا المزج بين القدرة الدينية والقدرة الأدبية عند هذا الرجل، يعالج فيها قضايا إيمانية عظيمة الأهمية بأسلوب أدبي رشيق يستطيبه وينجذب إليه القرّاء مهما كانت مستوياتهم الثقافية والفكرية.

وأفكار "كولن" كيانات حيّة تنبض بالحياة، لأنها بعض نفسه، وبعض من فلذات روحه وقلبه.. زَقَّهَا حباتِ الروح، وسقاها دم القلب قبل أن تنضج وتستوي وتأخذ طريقها إلى عقول القرّاء وقلوبهم.

ولا شيء من الوصف يصدق على الرجل كما يصدق عليه وصْفنا بأنه روح عظيم حَوَّامٌ فوق عظيم الأفكار بدافع من شرف المحتد، ونبل الخُلق، وطهارة الضمير، وهو كثير الانطلاق إلى مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه، حتّى غَدا قلبه غابة شجن وَوَجْدٍ، ودمعه ينبوع حرقة وكمد، يكاد يتمزق عندما يمُرّ على أطلال حضارة كانتْ يَوْمًا مَا مِلأَ عين العالم وسمعه، أو يُقَلِّبُ صفحات دين مهجور جفاه أهله، ونأى عنه القريب قبل الغريب، وجهل ناسه مواطن العظمة فيه فنسوه وأهملوه.

إنه يسجل في هذه المقالات أطهر مشاعره، وأقدس أحاسيسه، وهو يحوم حول الكعبة المشرفة التي يرى أنها سُرَّة العالم، ونقطة المركز من الأرض، وصلة الوصل بين الأرض والسماء.

وأما القبّة الخضراء -وما أدراك ما القبة الخضراء؟- فعندها يذوب الحشا ويركع القلب، وتخشع الروح، وتتساكب العبرات، وتتقطّع الأنفاس، ويرتفع أنين الشوق حتى يلامس السماء. إنه في الحضرة المحمدية التي يتمنّى أن يكون ذرة في ترابها تطأها قدما أطهر إنسان مشى على وجه البسيطة.

ويمضي في سُرَاه حتى يصل بيت المقدس وقبّة الصخرة، وينثر هناك فوق هذه الصخرة التي عرج منها الرسول ﷺ إلى السماء مدامع قلبه، ودفقات حنينه، وومضات أشواقه... إنه يصغي إلى الصخرة العتيدة وهي تحكي قصة التاريخ الروحي للبشرية منذ آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ.

ويمضي عائدًا فيتحدث عن "آيا صوفيا" الصرح التاريخي العتيد، وعن جامع "السلطان أحمد" الذي يقوم شامخًا قبالتها يتحدّى عظمتها ويعتلي فوق هامتها وبلمعة من لمعات روحه، يكتشف سرّ ذلك، ويتعرّف على خفايا الرمز الذي يربط بين الصرحين العظيمين، وعن المعاني الروحية الكامنة في سرِّ الأحمدية "التي يستمد الصرحان منه الكثير من هيبتهما".

آمل أن أكون قد وفّقتُ -إلى حد ما- برسم بعضٍ من ملامح هذا الفكر وسِماته العامة. وهو كما يأتي:

- الكتاب مفتاح عظيم لأبواب القلب المستعصية على الفتح.
- القلب الفهيم عن الله، كيف ننْشئه؟
- معرفة حميمية بين ذات الإنسان وذات الكون، كيف نقيمها؟
- دين عظيم لماذا جفاه القريب قبل البعيد؟
- دمعة حزن وأسى على مواطن الذكرى من التاريخ الذي ينتمي إليه المؤلف.
- نبع دفّاق من المشاعر والأحاسيس، يروي عطش الروح والفكر.

الفصل الثالث

الضاربون في الأرض

الضاربون في الأرض

شباب أطهار، ذوو قلوب فتية نابضة بالإيمان، وإرادات شمّاء، وعزائم لا تعرف المستحيل... يقود خطاهم إلى فجاج الأرض شوق مُبَرِّح، ويلهب حماسهم فكر دعويّ إبداعي، ورؤية فيّاضة بالوضوح، وحدّة في البصر والبصيرة...

أخذوا كتاب الله بقوة، وضَمّوه إلى صدورهم وكأنه عليهم يتنزَّل، وإياهم يخاطب.. يحرصون عليه حرصهم على ماء عيونهم، ويرومون إيصال رسالته إلى أيِّ إنسان في أيِّ مكان من العالم، حتّى لو خاضوا إليه أشدّ البحار نأيًا واستيحاشًا، أو جابوا إليه قرارة الكون، أو غاصوا إليه طبقات الأرض، أو اعتلوا إليه أطباق السماء...

معهم مدرسة ينشئونها، وكتاب يدْرسونه ويدرِّسونه، وقلَم يُعَلِّمون به ويتعلمون منه. إذا ما رأيتهم في حومة الفكر أو العمل، وهم يشفون عن روح مشرق، وقلب وَضَّاء، وفكر خصب، لك أنْ تتساءل: أهم أَنْداء سماوية منهلَّة على عطش الأرض، وجَدب الحياة؛ أم هم جنس إنساني جديد غير هذا الجنس، انشقت عنهم أرض غير هذه الأرض؛ أم قذفتْ بهم أمواج الغيب على ضفاف الدنيا لكي يشاركوا في إصلاحها قبل أن تطيش وينقلب عالِيها سافلها..؟!

أما البؤساء المثقلون بالآلام والدموع والدماء، فهم يرقبونهم من بعيد، رافعين نحوهم أذرُع الضراعة، ومعبرين عن شوقهم للقْياهم، ومنتظرين يدهم الآسية، وروحهم المواسية، وقلبهم المعَزِّي، ونداهم الهابط على القلب القاحل، والنفس اليابسة، والذهن الناشف. إنهم طاقة إيمانية كبرى

أحسبها لو سلّطت على جبل لجعلته دكًا ولخرَّ صَعِقًا.

إنهم إبداعيون ابتكاريون، غير تقليديين، قادرون على تجديد فكرهم الدعويّ بين يوم وآخر، وفي ذهنهم دائمًا السؤال الملحّ: هل من المحتمل أنه على الرغم من كل التجارب الدعوية التي عرفناها وعرفها الدعاة منذ قرنَين من الزمن، فإننا ما نزال نعاني من السطحية والضبابية في الفهم والعمل؟! وهل من المحتمل أننا قد أخطأنا فهم تاريخ العمل الدعوي وقصرناه على أنماط تقليدية واحدة ولم نحاول التجديد فيها، وهذا هو الذي يسبب لنا اليوم الكثير من الإحباط؟! أجل إنَّ ذلك قد يكون محتملاً.

وكما يضرب هؤلاء الفتية في الأرض -كُلِّ الأرض- لا يَصُدُّهم شيءٌ، ولا يحول بينهم وبين مبتغاهم حائل، فإنهم يضربون كذلك في "النفس البشرية"، وينطلقون وراء أشدّ تخوم النفس ظلمةً، وأكثرها رعبًا واستعصاءً، حيث تتصارع في الأعماق مئات من الـ"أنا" ليصالحوا بينها، وينشروا الأمن والسلام في أرجائها، ويسلكوا بها نحو "المعرفة القرآنية" التي تسوّي جميع صراعات الإنسان مع نفسه ومع الكون ومع الله تعالى.

إنّه الإصلاح العقلي والروحي الذي ينشده هؤلاء الفتية لأنفسهم وللآخرين، وهم في الوقت نفسه يبشّرون بطريقة جديدة للحياة يتعاون فيها "العقل القرآني" -إذا صَحَّ التعبير- مع جِدَّة التجربة، وشدّة المعاناة التي تنجي الإنسان من السطحية والتفاهة، وتُشعره بقدسية الحياة من حيث كونها مرآة واسعة تعكس المفهوم القرآني في إعجازيتها وكونها آية من آيات الخلق والإيجاد.

والداعية من هؤلاء الفتية سهل هيّن ليّن، لا يبني حول نفسه جدارًا

عقليًا أو نفسيًا، ولا يحيط نفسه بهالة فخمة لا يستطيع الآخرون أن ينفذوا منها إليه، بل هو على استعداد دائم لقبول الآخرين والاستماع لآرائهم والإفادة من تجاربهم بكل صدق وحميمية...

وهذا هو الجانب الأخلاقي المطلوب من كل داعية يتصدى للدعوة إلى الله.

هتاف الأرواح

مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان،

الآتين من كل مكان،

إلى أرض "داغستان"،

ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان،

ويُعلوا منارات الهدى والإيمان.

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات الأسحار، لسمعتم هتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة[٤٧] وهم ينادونكم قائلين:

انتظَرْناكم طويلا.. سألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السماء: أين فِتيان الإيمان؟ متى يقدم حمَلة القرآن؟ الشوق إليكم أضنانا.. والحنين للقْياكم عذبنا .. وها أنتم اليوم هنا.. فلأرواحنا أن تسعد، ولوَحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب الإيمان، والممحل من أشقّاء الروح والوجدان.

لا نقول لكم أحْرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل، ولكنا نقول: أحرقوا وجودكم كله، وأشعلوا النار في أرواحكم، ثم انثروا حبّات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها - إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها، لأنها صارت جزءًا من

(٤٧) المقصود "مدينة دربند" وهي إحدى مدن داغستان التي يفخر أبناؤها بأن مدينتهم تضم رفات أربعين صحابيا كانوا قد استشهدوا خلال الفتح الإسلامي لهذه البلاد سنة ٣٢ هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وجودكم، وقطعة عزيزة من كيانكم.

تتساءلون: ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبَتكم للمجيء إلى هنا؟ ونحن نقول لكم: إنها قبَس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد. وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألاّ تدَعوا هذه الذبالة تخفت وتنطفئ. انْفخوا فيها من أرواحكم، ألقموها قلوبكم، وأطعموها عقولكم، لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

جئتم إلى هنا مدفوعين بقوّة قدَرية لا تقاوَم، فأنتم مبعوثو القدَر وسفراؤه إلى هذه البلاد؛ لقد اجتزْتم بوّابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم بنهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد يوشك أن يصدق. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا... فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف، ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم.. فمن أدام الطرق فُتح له ولو بعد حين.

لا تقولوا: ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنّى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنّى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟

ونحن نقول لكم: إنْ عزّ المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون، وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون؛ ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي

إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تُعلّموا البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتُعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أيّ خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء؟! وأيّ حلم وزدي يُغرقون أنفسهم فيه؟! وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟!

ونحن نقول لكم -يا أبناءنا-: ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم، وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه. وجودنا هنا، بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا، والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

أحبّوا "داغستان" بكل حبة من قلوبكم، ولْيكن همكم بها فوق كل همّ، ومحبّتها فوق كل محبة. فإذا أحببتموها سهُل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقّات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنّيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها. وأنتم كذلك -يا أبناءنا الأعزاء- دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغنّي "داغستان" أعذب الألحان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم، وهي ماسة

"القفْقاس" المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عمن يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبّها وهداياهم إليها...

وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدّمونه إليها وتُخْبُونها به..؟

إيحاءات داغستانية:

سلامًا ياليل "دَرْبَنْد"

سلامًا ياليل "دربند"..! سُقيتَ الرَّوح والرَّيحان.. ورويتَ الودَّ والتَّحنان.. يا ظلَّ الكون على أكْبُدِنا الحَرَّى.. ويا فَيْءَ الزمن على أفئدتنا العطشى.. طال دربنا.. كلَّتْ أقدامنا.. استوحشت أرواحنا وآدتْ قلوبنا حتّى الْتقيناك، فإذا بحادي الركب يهتف بنا: هنا نَحُطُّ رِحَالَ العشق، وننْصُب خيام الهوى.. تحت جنح هذا الليل المضمخ بأريج الصحاب[48]، والمعطَّر بِمِسْكِ دمائهم، والنّديّ بندى أرواحهم، والمترع بنور إيمانهم..! ناغِنَا.. سامِرْ قلوبنا.. تعطَّفْ علينا.. آنِسْ غُرْبَتَنَا.. دَعنا نستظلُّ بظلك.. ونتفيأ بَرْدَ فيئك.. تدَفقْ حنانًا علينا.. تساكبْ لطفًا فوقنا.. تَوَاجَدْ عشقًا نحونا.. نحن أحفاد أولئك الراقدين تحت سمائك، الناشرين الطِّيبَ في أنحائك..!

يا ليل "دَرْبَند" لا تخش ظمأً بعد اليوم.. فبدُموعِ الوَجْد مِنَّا سنسقي صحاراك الظامئات، ونروي زهراتِك المصوحات.. وبأنين التائبين النادمين منا ستُظلِّلك سحائب الرحمة، وتتنزل عليك لطائف الودّ.. وبهتاف المحبين المحترقين بحبهم ستتفتح أبواب السماء، وتهبط عليك الرحمات، وتغشاك السكينة.. أبدًا لن تجفَّ مِنَّا العبرات.. لله نحزن.. وله نسكب الدمع.. وإليه نجأر بالدعاء.. وعلى أعتابه نمرّغ الوجوه.. ويذوب مِنّا الوجود.. وعلى "باب الأبواب" نرابط نحمي "كلمة الله" من الضياع،

---

[48] هم شهداء الصحابة الأربعين الراقدين فوق روابي "دربّند / داغستان".

ونصونها بالمهج والأرواح..!

يا "باب الأبواب"![49] ما أكثر ما اصطرعت عليك شعوب، والْتحمت من أجلك أقوام، وسالت على بابك دماء.. والتقت من خلالك أديانٌ وحضارات.. كلُّ شيء فيك تاريخ ناطق، أو إشارات إلى تاريخ.. التراب.. الأحجار.. الصخور.. القبور.. القلاع.. الحصون.. البحر.. الجبل.. الأرض.. السماء.. بل الإنسان نفسه، إنه تاريخ متحرك من مجموعة أخلاط عجيبة من الأقوام والشعوب واللغات والأوطان انصهرت كلّها في أتون الزمن فَتَخَلَّقَ منها إنسان جديد هو خلاصة مصطفاة من هذه الأخلاط والأمشاج!

على أعتاب "باب الأبواب" تُسْكَبُ العبرات.. وتذوب النفس حسرات.. ويتمزق القلب حزنًا وأسًى.. على هذا الباب صُلِبَ الإيمان مرةً، ولكنه لم يَمُتْ.. تناوشته سهام الكفر فأثخنه الجراحُ، ولكنه لم يمتْ.. جرّعوهُ الصّابَ والعَلقَمَ فتهاوى مُدْنفًا، ولكنه لم يمت.. حاصروه.. حرَّقوا كتابه.. سجروا به تنانير حقدهم، لكنه ظلَّ حيًّا في القلوب ولم يمت.. لأنه حياة أقوى من كل حياة.. وحياة فوق كل حياة..!

يا ابن "دربند".! في أَغوار روحك يسكن تاريخ أرضك.. روحهُ المعذَّبَةُ مسكوبةٌ في روحك.. إنه يغورُ بكل آلامه في أعماقك.. يخصب حياتك، لكنه يلونها بالأسى.. يشكل عقلك، لكنه يثقله بالهمّ.. لا يَمُدُّكَ إلاَّ بمرارات تجاربه، ولا يمنحك إلاَّ دموية حكمته.! تحرَّرْ من صغوطه عليك.. انْسلخْ عنه.. عِشْ خارجه.. ارتفع فوقه.. اُسْمُ عليه.. اسْمُ وارْقَ

[49] تسمي كتب التراث مدينة "دَربند" بـ" باب الأبواب" وربما لأهميتها وكونها الباب الذي يدلف منه القادمون من أوربا إلى آسيا الوسطى وبالعكس (انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي).

حتى تلامس سماواتِ القرآن.. هناك الْتمس لك تاريخًا لا يُبْليهِ الزمنُ.. ولا يُعَتِّقُه القِدَمُ.. ولا يلتهمه العدم.. هو للروح بهجة لا تنقضي.. وللقلب عيدٌ لا يحولُ ولا يزول..!

إيحاءات داغستانية:

على بوّابة "داغستان"

~ ١ ~

اِفتحي يا سيدة "القفقاس"..! يا أليفة الدُّجى ورفيقة الليالي الطوال.. اِفتحي يا معصوبة العينين.. يا مكبّلة الروح.. يا مقيدة الفكر..! يا لَعَيْنَيْكِ الظامئتين إلى ضياء الفجر ما أشدَّ حلْكَةَ ظلامهما.. ويا لرُوحِكِ المتطلعة إلى الانعتاق ما أثقل ما تَرْسِفُ فيه من قيود.. ويا لَفِكْرِكِ الوَثّاب ما أقسى ما يعاني من الأباطيل!..

اِفتحي..! من مسافات الشوق البعيدة أتيناكِ.. من آفاق الحنين القُرآني قدِمنا إليك.. النور ملأ أرواحنا.. والمحبّة ملأ قلوبنا.. ونداء الإيمان ملأ أصواتنا..

اِفتحي.. هذه سواعدنا تُوالِي الطَّرْق على بوّابتكِ.. وأكفُّنا تَدُقُّ بقوةٍ فوقَ جدران ليلكِ!..

اِفتحي.. فعَلى بوّابتكِ -لو تعلمين- قرآن وإيمان وفتْيان شجعان، لو وقف هؤلاء الثلاثة على سُور الصين لجعلوه دَكًّا..!

~ ٢ ~

اِفتحي يا دُرَّةُ القفقاس.. يا جوهرة التاريخ الدفينة في ذاكرة الإيمان.. لا ترتابي.. ما جئنا لِنَرْزَأَكِ بمالٍ أو ولد.. ما أتينا لنأخذ، بل لِنعطي.. نحن الريُّ لظمأ قلبكِ، والقُوتُ لمجاعاتِ روحكِ.. ونحن الفِدَاءُ "لكلمة الإيمان" إذا تَحَرَّكَتْ بها شفتاكِ.. قُوليها، أم تُرَى أنَّكِ نسيتِيها..؟! اِكْسرى

ما وُضِعَ على فمكِ من أقفال.. اهتفي بها مِلأَ فَمِكِ.. فلو هتفتِ بها عادت أرضُكِ ربيعًا، وسماؤكِ عيونًا منهلةً بالبِشْرِ والنور والفرح الإلهي، ليغسل كُلَّ ما عانَتْ منه روحكِ من أوجاع، ويُضَمِّدُ كلّ ما شكا منه قلبكِ من جراحات..!

٣

مُدَّ يدَكَ يا بطل "داغستان"..! ضُمُّها إلى أيدينا.. دُقَّ معنا الأبواب.. لِتُعَانِقْ روحُكَ أرواحنا.. لتَحْفِزْ هِمَّتُكَ هِمَمَنا.. ولْتُلْهِب إرادَتُكَ الجبارة إراداتنا.. إننا نسمع صوتك القوى يَتَرَدَّدُ صداه في فضاءاتِ أرواحنا.. إنه يحدونا في مسيرتنا الإيمانية.. يا شيخنا الجليل.. نادها.. قل لها مَن نحن وماذا نريد..؟ ها أنت ذا تخاطبها.. إننا نسمعكَ تقول: أَنا "الشيخ شامل"، أُناديك فاستمعى إليَّ.. اِفتحي لهم كُلَّ الأبواب.. إنني أباركهم من وراء الغيب.. إنهم فتية الإيمان الذى انشق عنهم كهف النور.. على عين القدر صُنِعُوا.. وفي كنفه نشأوا.. ضمائرهم تشعّ نورًا.. أرواحهم تتألق صفاءً ونقاءً.. أرضهم سماء.. وسماؤهم قرآن.. وليلهم مذاب ضراعة ودعاء.. ونهارهم جدّ وعلم وعمل.. ضمّيهم إلى أحضانِكِ، فهم نِعْمَ الأبناء لِنِعْمَ الأمهات..!

٤

أنتم أيها الغرباء الحاملون غربتكم فوق كواهلكم..! اغتربوا... ففي غربتكم سرُّ قوتكم... تفرَّدوا... توحدوا... فتفرّدكم سؤال ملحّ يوخز أفهام الآخرين.. انْمازوا فتميزكم لغز يحفز العقول لكي تسبر غوره وتفهم سره..

أيها الحاملون غربة الإسلام إلى أرض "داغستان"..! طوبى لكم،

وبشراكم قوله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطُوبَى للغُرباء..!»[50]. فطوبى لكم هذه الغربة المحببة.. إنها آية إيمانكم في هذا العصر.. وعلامة الصواب بين أخطاء العالم وخطاياه.. ولكن انتبهوا.. فما لم تكن قلوبكم هي التي تتكلم من خلال شفاهكم، فلن تستمع إليكم "داغستان".. وما لم تهبط أرواحكم على أطراف ألسنتكم ساعةَ تخاطبونها، فلن تصغي إليكم.. لقد أصغت كثيرًا حتى ملّتْ، واستمعت لآلاف الأصوات وهي تزف إليها الأمل في نعيم الحياة، ورفاه العيش، ثم خرجتْ من كل هذا الضجيج المصم وهي أكثر هزالاً، وأشد جوعًا، وأعظم بؤسًا.. فكفرتْ بكل الأصوات إلاّ صوتًا واحدًا ما زالت تتُوق إلى سماعه، ألا وهو صوت الله تعالى.. فكونوا جديرين بحمله إليها وتبليغه إياها..!

٥

نعلم أنكِ بكيتِ فُقْدانِ الهوية.. ونعلم أنهم سلَبوكِ إياها.. ونعلم أيَّ عذاب مخيف تَحَمَّلْتِ حين لم تعودي تعرفين مَن أنتِ ومَن تكونين..؟! ونعلم ما قاسيتِ من الآم الانقسام بين أن تكوني "داغستان" الإيمان والإسلام، وبين ألاَّ تكوني.. ونعلم غزارة الدموع التي سفحتِها فوق ليالي الحيرة الطوال.. ونعلم ما اجْتَرَحَتْ أحزانُكِ في صحراء روحِكِ من حرقةٍ وعذابٍ وجَوَى..! نعلم كل هذا.. ونأسى لكل هذا.. ومِن أجله أتينا.. من أجل الهوية السليبة قَدِمْنا.. من أجل أن تكوني "داغستان" الإسلام والإيمان نحن هنا.. ومن أجل أن تلتقي هويتَكِ السليبةَ وتتوحدي مع شَطْرِكِ المَقْصِيِّ جئنا إليكِ، وحططنا رحالنا على بابكِ، وأَقمنا خيام

[50] مسلم، كتاب الإيمان ٢٠٨؛ الترمذي، كتاب الإيمان ٢٥٥٣.

أشواقنا في رحابكِ.. فأَومئي إلينا.. أشيري نحونا.. تجِدينا بين يديكِ.. فلْذاتٍ مضيئاتٍ من كبد الإسلام، وجذواتٍ متوهجاتٍ من أقباس الإيمان والقرآن..

يا أمّنا الحبيبة التي عشقتْها أرواحُنا، لا تبعدينا عنكِ..! خذينا إليك، وامنحينا حبَّكِ.. وضُمّي إلينا يَدَكِ لنجدد معًا ما اندرس من معالم الإيمان.. ونعيد ما غاب من آيات الهدى والفرقان، في رحابكِ وفوق أرْضكِ..!

٦

أينما مضيتُ -في شعاب هذه المدينة- أسمع وقع خطاهم، كيفما أصغيت أسمع نبضات قلوبهم.. وإذا ما تنفستُ أتنفّس عطر أرواحهم.. وإذا ما هبّت الريح حملتْ إليّ أصداء أصواتهم، وصليل سيوفهم، وصهيل خيولهم..! أولئك الحُفاة العُراة الجائعون الظامؤون الذين اتعبوا التاريخ، فظلّ يركض وراءهم، فلا هم يتوقفون ولا هو يلحق بهم.. إنهم هنا فوق روابي هذه المدينة يرقدون.. جائعون حقًّا، ولكنهم كانوا للحق أشدَّ جوعًا وأعظم ظمأً.. حُفاة عُراة صدقًا، ولكنهم أبدًا لم ينتعلوا أبشار الشعوب[٥١] ولم يتسربلوا دماء البشر.. أرْضيّون طِينيون، ولكن صحبتهم لنبيّهم ﷺ جعلت أرضيّتهم سماءً.. وطينيتهم عنصرًا نورانيًا مشعًا... وحولت تمراتِ في كفِّ واحد منهم إلى جمرات محرقات، فيقذف بها ويقذف بنفسه إلى رحى الحرب لينال الجنة التي اشتاق إليها واشتاقت إليه..! أتدرون ماذا كانت تمثل هذه التّمرات في كف ذلك الصحابي الجليل..؟ هي دنياه.. هي ماله.. هي شهوته ولذّته.. هي دِرهمه ودِيناره.. فلمّا ألقاها من يده،

---

(٥١) البشر: جلد الإنسان، ومنها قوله تعالى في النار: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾(المدّثر:٢٩)، والعبارة كناية عن عدم استعباد الناس وامتهان كرامتهم.

ألقى بكل ذلك وراء ظهره، فصار أهلاً للشهادة والجنة..!

أيها الراقدون فوق روابي هذه المدينة..! يا صحابة رسول الله ﷺ.. أعِيرونا قوّة أرواحكم.. اِمْنحونا صلابة سواعدكم.. ابتعثوا فينا هممكم.. اِقدحوا أزندة إراداتنا.. علِّمونا كيف نقتحم الأهوال، ونصارع الخطوب، ونهزم المستحيل.. أمدّونا بحِكْمتكم.. أرشدونا.. زهّدونا.. لكي نُلقي ما بأكفّنا من رموز الدنيا إلى هاوية الفناء.. خذوا بأيدينا.. امنحونا بَركاتكم، لكي نؤدّي رسالة الإيمان، ونفوز برضى الرحمن..!

إيحاءات داغستانية:

خبز الخلود

لو أعطيتني الدنيا كلَّها.. لو توجتني ملِكًا عليها.. لو ملَّكتني زمام أمرها.. لو طويتها ووضعتها في جيبي.. لو حملتها على طبق وقدّمتها على مائدة روحي.. لو اعتصرتها في كأس وجعلتني أتحسّاها حتى الثُّمالة... فإنك -في الحقيقة- لم تفعل شيئا، ولم تعطني سوى قبضة ريح، وحفنة تراب، لا تلبث أن يلفها الزوال ويطويها العدم؛ بينما يظلُّ لهيب الشوق في أرجاء نفسي مستعرًا، وصراخ الجوع إلى خبز الخلود يهزّ أسماع الفضاء، ونازع الفطرة إلى البقاء والأبد يهيج في الروح نواحًا كنواح الثكالى.

أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، صرخ بوجه الكون: ﴿لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾(الأنعام:٧٦).. امْض عني.. تَنَحَّ عن طريقي.. لا أريدك.. ليحترق العالم كله.. ليتحول إلى رماد.. ليطوه الفناء.. فليس هو من همّي، وليس هو مطلبي.. مطلبي "مكوّن الكون جل جلاله" .. مَحبتي لـ"من لا يزول جل جلاله".. قلقي بـ"مَنْ لا يفنى ولا يموت جل جلاله".. عبوديتي لـ"أبديّ البقاء جل جلاله". يقذف به عليه السلام النمرود بالمنجنيق، يدركه جبريل عليه السلام وهو يهوي نحو النار المتأجّجة فيقول له: "أَلَك حاجة؟" فيردّ أبو الأنبياء: "أمّا إليك، فلا!".. يقول جبريل: "سَلْهُ جل جلاله"، أي سل الله حاجتك. يقول إبراهيم عليه السلام: «عليم بحالي، غَنِيٌّ عن سُؤالي»[٥٢]. وفي الحديث: «لو قال: نعم لي إليك حاجة، لَمحي اسمه من ديوان الخلّة». النورسي يلخّص لنا هذا الموقف الإبراهيميّ بعبارتين

---

[٥٢] الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ٥ /٤٠٠.

فيقول: "تعلقْ أيها المسلم بالأبدي تتأبَدْ.. وصلْ أسبابك بأسباب الخلود تخلد".

في المعراج يقول الله تعالى عن رسوله الكريم ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم:١٧).. رغم عظم ما شاهده ﷺ من مظاهر الجلال والجمال في أرجاء الكون، فقلبه الشريف ظل متعلقًا بصاحب الجمال الأقدس والجلال الأعظم، ولم يلتفت طرفةَ عين إلى الفانيات الكونية، وبهذا حاز مرتبة المحبوبية والأقربية التي لم يحزها نبيٌّ ولا رسولٌ قبله.

الشوق المضطرم في قلبك إلى معالي الأمور هو دليل حياتك... مَنْ يخلُ قلبه من الشوق يَمُتْ وإن بدا للناظرين حيًّا.. مَنْ لم يتحول الإيمان في قلبه إلى طاقة من الشوق إلى الله والمحبّة لرسوله، لا خير في إيمانه لأنه لا يأتي بخير.. لتكن نفوسكم توّاقةً إلى الخلود، وتوّاقةً إلى الجنة.. لترتفع ببصرها عن الفانيات الهالكات، ولتستشرف ببصيرتها على الباقيات الخالدات..

مجدد القرن الثاني الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول بعد أن لم يبق فوق الخلافة والحكم منزلة يتوق إليها: "إنّ لي نفسًا توّاقة، ما تاقت إلى شيء ونالته إلا وتاقت إلى ما هو أعلا منه... وهي اليوم شديدة التوق إلى الجنة"(٥٣).

ويتوفّاه الله بعد هذا الكلام بأيّام.

لأجل الرسالة العظيمة التي يحملها المؤمن كان أفضل مخلوقات الله، وأنفس كائناته، وأحبهم إلى موجوداته... ففي الأثر: «إن الجبل ليقول للجبل: سعدتُ اليوم بخُطا مؤمن مشى فوق ظهري وسار بين شعابي..

(٥٣) فيض القدير، للمناوي، ٣ /١٦٠.

وإن الأرض لتقول للأرض: شَرُفْتُ اليوم بسجدة مؤمن فوق ترابي.. وإن الشجرة لتقول ليت الذي يستظل بظلي ويأكل من ثمري لا يكون إلاَّ مؤمنًا.. وتقول حبّة القمح: ليتني لا أغذو إلاّ جسم مؤمن.. وتقول قطرة الماء: ليتني لا أروي إلاّ عروق مؤمن».[٥١]

في غسق هذه البلاد سطعتْ شمسُ إيمانكم.. فهبّوا امْلأوا الأقداح الظامئات من أنوار قلوبكم.. أعطوا ولا تأخذوا.. جودوا ولا تَبخلوا.. أرسلوا ولا تمسكوا.. تكاثروا، تزاحموا عندما يفزع الإيمان.. وانصرفوا راشدين عن مواطن الأجرة والجزاء.. هكذا كان أجدادكم "يكثرون عند الفزع، ويقلّون عند الطمع".. كونوا عطاءً خالصًا لتحيوا.. الشجرة تموت حين تكفّ عن العطاء.. إيمانكم يضعف ويهزل إذا هو لم يعط من ذات نفسه...

لمن أنفاس الإيمان في صدوركم..؟ أليست هي هدايا الرحمن إليكم..؟ أليس لكل شيء زكاة..؟! فلْتكن زكاة إيمانكم مزيدًا من العطاء لفقراء الإيمان.. لتكن ذواتكم النورانية كنزًا مبذولاً لكل المظلمين في كل مكان..

إن الأرض لتهتزّ طربًا لمس أقدامكم، وإن السماء لتندى ابتهاجًا بأصوات دعائكم.. والجنة نفسها ترنو إليكم رنو الوامق المشتاق من فوق سبع سماوات.. وملائكة الرحمن تستغفر لكم ما دمْتم في طاعة الله وفي نصرة دينه..

إياكم والصبوة إلى شهوات الدنيا وملذاتها، فإنها تطفئ جذوة الروح.. وتملأ القلب ظلامًا.. والبصيرةَ عمًى، فتحرمون الرؤية إلى حقيقة رسالتكم

---

[٥١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري، ١٠ /٢٦٧.

ومغزى وجودكم..

الحوار الآتي جرى يوما ما بين أستاذنا "النُّورْسي" وبين رفيقه وتلميذه "الملاّ رسول"... قال ملا رسول:

- على رِسْلِكَ يا أستاذي.. هوّن عليك.. أرخْ نفسك قليلاً.. فنحن كذلك نخاف الله ونخشاه.. أما أنت فتكاد مرارتك تنشقّ من خشية الله.. انْظر إلى إصبع قدمك كيف تقرَّح بسبب جلوسك الدائم وكأنك في صلاة لا تنتهي..!

يجيب الأستاذ قائلاً:

- يا ملاّ رسول..! لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبدية خالدة بهذا العمر القصير، والدنيا القصيرة.. أأعيش هنا كيفما أشاء وكما تهوى نفسي، وأنا أسعى إلى الجنة وأطلبها..؟! لا أجرؤ على العيش كما أهوى أبدًا..!

هؤلاء المجانين

يبقى الفكر الرفيع حبيسًا في ذهن صاحبه لا يثير الانتباه، ولا يجلب الأنظار ما لم يتحول إلى لهب ترتفع ألسنته إلى عنان السماء، مخترقةً سود الليالي ومشعلةً النار في هشيم الظلمات. وهنا ينتبه إليه الناس، ويُقبلون عليه، ويقبسون منه، ويأخذون عنه، ويسضيئون به، ويتدافعون لحمل تبعاته، ونشر أفكاره، ويمتلئون حماسة بالانتصار له والدفاع عنه والعيش من أجله.

فالعيش في هذا الفكر الملتهب، والعيش من أجله ولأجله، يحتاج كذلك إلى رجال من ذوي الإرادات الملتهبة، والوجدانات المشتعلة، والنفوس الفوَّارة، والعقول الوثَّابة، والإدراكات العالية، والفهوم الفطنة الذين إذا مشوا تواثبوا، يسابقون الزمن، ويختصرون المسافات، لا يتْعبون ولا يَمَلُّون، ولا يركنون لراحةٍ، ولا ينعمون بدفء فراش أو ملازمة زوجة وأولاد... شعارهم "خَلُّوا سبيلنا، ودعونا نضرب في أرض الله"... يكسرون العادات، ويخترقون المألوفات ويلوون رقاب الأيام إلى حيث يريدون.

إن نار الوجد الإلهي تحرق أفئدتهم وتأكل أكبادهم، فيَلُوبُون من لواعج ما يجدون، فلا يستقر بهم مقام، ولا يأنسون بحال. إنهم حراك يتدفق، وعمل دؤوب تنتهي الأزمان ولا ينتهي لهم في كل يوم شأن... يأخذون بأيدي المنهزمين، ويجبرون كسر المنكسرين، ويُنهضون المنسحقين، ويزرعون الأمل في اليائسين، ويُطلِعُونَ شمس الهدى في ظلماء التائهين...

إنهم جنود القدَر وأنصاره، يستخدمهم في رسم خطاه، وإنفاذ أمره،

وتحقيق غاياته، وإشعال العزائم، وإتيان الخوارق، وتخطي العوائق، والجري وراء الآتي من الزمن، والقادم من المستقبل... لا تستنفدهم آلام اليوم، ولا توهن عزائمهم فواجع الحاضر... فلهم من الإيمان واليقين ما يجعلهم يمشون فوق الآلام، ويتخطون جسور الأوجاع إلى الهدف المنشود، والغاية المبتغاة... إنهم يشكلون ضمير العالم كما ينبغي أن يكون، وعقل الخليقة التي تريد الحصانة من الجنون... إنهم درجات متحركة في سلم الوجود لمن يريد الصعود، وشعل محبّة توقد مجامر الخلود في الإنسان الموعود...

ولعل هؤلاء الذين استعرضنا بعض ملامحهم في السطور السالفة هم "المجانين" الذين عناهم الأستاذ "فتح الله كولن" متضرعًا إلى الله تعالى أن يمنحه قلة منهم[٥٥] يجدون في بطولة السموّ واحدًا من مطامحهم العالية، ثم لا يكفُّون عن ملاحقة قلوبهم الفتية المتفلتة من أقفاصها نحو ذرى العظمة الإيمانية من خلال الفكر الذي يمتثلون ويجهدون لجعله تاجًا يزين هامة البشرية التي تآكلت تيجانها منذ زمن بعيد.

إن شعور أجيالنا الطالعة بالانهزام العقلي يشكل اليوم واحدًا من إحباطاتنا التي تشلُّ قدراتنا العقلية، وتعيقها عن النهوض من جديد لتجديد نفسها وتنشيط قواها... أما روحنا فقد أصابه المرض، وركبته

---

(٥٥) يقول الأستاذ فتح الله كولن: "مجانينَ أريد، حفنةً من المجانين... يثورون على كل المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة. وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء منها يفرّون وإليها لا يلتفتون... أريد حفنة ممّن نُسبوا إلى خفّة العقل لشدة حرْصهم على دينهم، وتعلّقهم بنشر إيمانهم؛ هؤلاء هم "المجانين" الذين مدَحهم سيد المرسلين ﷺ، إذ لا يفكرون بملذات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصب أو شهرة أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين... يا ربّ، أتضرع إليك... خزائن رحمتك لا نهاية لها، أعطِ كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين... يا رب يا رب...!" (انظر: مجلة حراء، العدد: ١٤ / يناير ٢٠٠٩).

العلل، وأوهنته الهبوطات والسفليات والعمى عن "الماورائيات"... ولقد أفرغتنا الأيام من جوهر وجودنا الاستثنائي بين الوجود... إننا ندرك اليوم كم كان شقاؤنا مريعًا عندما عشنا وكأننا بلا ربّ يربّينا، وبلا إله يراعينا، فغدت حياتنا تعبًا مُمِلاً ومتاهات محيرة.

إن خمود الاستعلاء الإنساني في الإنسان المؤمن، وانسحاق روحه تحت أثقال المشاغل الدنيوية، وتشتت ذاته بين مختلف الاتجاهات، هو واحد من أسباب الضعف الروحي والفكري الذي نعاني منه جميعًا، حتى غدا التعبير عن ذواتنا فنّيًا فيه من الضحالة والسطحية ما جعلنا نبدو أمام الآخرين وكأنّنا عراة من أية أعماق فكرية أو روحية، وغدونا أشدّ ما نكون افتقارًا إلى دروس في الروحانية العالية، والفكر الأعماقي الذي يتحفنا به بين آونة وأخرى الأستاذ "فتح الله كولن" في كتبه ومقالاته وأحاديثه.

لقد بلغ بنا الهزال الروحي والفكري إلى الحد الذي جعل الآخرين ينظرون إلينا وكأننا قوارير عتيقة سرعان ما تتفتت في الأيدي عند أخفّ الضغوط.

فأعمال "كولن" الفكرية إنما هي مناخات عقلية ووجدانية تساعدنا على أن نتنفس حتى أعماق رئاتنا صفاء الأفكار ونقاءها وعظمتها، فنتحول بهذا الفكر إلى كيانات متماسكة من الإيمان والمعرفة صعبة الاختراق والتفتت.

إن مما يجلب الانتباه في هذا الفكر الملتهب عند "كولن"، أنّ أفكاره إنما هي شرح وتفسير لأعماله، وأعمالُه إنما هي أفكار مطبقة أو هي في سبيلها إلى التطبيق.

ومما يثير الانتباه في هذا الفكر كذلك قدرته الفذّة على مغالبة اليأس وابتعاث الرجاء من مكامنه حيث يضيع كل رجاء... إنه فكر تجددي

ولكنه غير استجدائي، اكتفائي غير افتقاري، تراثي وحداثي في الوقت نفسه، ماضوي ومستقبلي، محلي وعالمي، كوني السعة، إنساني النظر، عولمي الامتداد، يعتمد الحوار، ويتقبل الآخر، ويدعو إلى السلام.

المجددون الشباب

"كان عمر بن الخطاب ﷺ
إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث
فاستشارهم لحدة عقولهم"
(يوسف بن الماجشون)

إن الشبيبة الواعية المستنيرة أشبه ما تكون بشعلة دائمة التوقد في دم الشعوب والأمم، تلتهم عَفَنَ الزمن المتراكم على جمود العقول وشلل الأرواح. فالهزَّات العنيفة العاصفة بكيانات هذه الشعوب وبسكونية عتاقات أفكارها، إنما هو من فعل هذه الشبيبة الملول إذا ما انطلقت من أقفاصها وحبوسها، فلا يَحُول عندئذ بينها وبين ما تريد من تغيير وتجديدِ حدود أو سدود.

فقلوب هؤلاء الشباب تزخر بمعين ثر من انبجاسات الحياة وتفجرات الأفكار. فأفكارهم تتعاقب في رؤوسهم محدثة زخمًا هائلاً يكاد يبلغ حدّ الانفجار، فما لم تتحول هذه الأفكار إلى شواهد حياتية شاخصة ومرجعيات فكرية فاعلة، وقعوا في الإحباط وأصابتهم عدوى الشلل العقلي والسهوم المتبلد.

فمن أجل ذلك، هم في سعي دؤوب وبحثٍ جادٍ للوصول إلى قلب الأمة، ليودعوا هذا القلب كلَّ ما في أرواحهم من أسرار مقدّسة، وبكل ما في عقولهم من أفكار عالية، هذه الأفكار التي لم تجد موضعًا تتنزّل عليه، أسمى من رؤوس هؤلاء الشباب المملوءة بكل ما يمكن للبشرية أن تقدِّس من فكر وتجلّ من عقل.

فالشباب من أصحاب الرسالات الكبرى في العالم، يملكون من القدرات الإدراكية أكثر بكثير مما تجمّد عليه المجتمع من إدراكات، فهم بعمق بواعثهم الوجدانية والروحية، يشكلون العقل الجوهري المتميز والمختلف عن جسم المجتمع وعقله ووجدانه.

إن هؤلاء الشباب يمثّلون "الإنسان الجديد"[٥٦] الذي بدأ بالاستيقاظ، وهو يمسح اليوم عن عينيه بقايا ليل طويل كان قد تغشّاه منذ زمن بعيد. وهذا الإنسان الجديد، ما برح حتى طرح على عقل المجتمع جملة من الأسئلة، حاول أن يحاور بها هذا العقل ويحفز قواه الفكرية والروحية للإجابة عليها. وها هو اليوم يتلمس طريقه بين عشرات الطرق لكي ينهض بمسؤولية الجواب، ويصل في خاتمة المطاف إلى جوهر كل الأسئلة.

وهذا الجوهر يكمن في السؤال الآتي: كيف يمكننا أن نَحُول بين الأرض وبين مَن يريد تدنيسها؟ وبين العالم وبين مَن يريد هلاكه؟ وكيف نمدُّ البشرية بالقوة التي تستطيع أن تحيا بها مبرأةً من الأدناس؟ وبأن نجعلها تنشد الفضيلة في كل ما تأتيه من فعل أو قول أو فكر؟

فالبشرية اليوم تعاني من رعب خرافي مصحوبًا باختلاج معنوي وجسدي، وهي في حالة اضطراب وحشي بلغ أَوجَه وجاوز حدَّه.. إنها تحترق بتوحش فكرها وهمجية روحها.. إنها تعادي نفسها، وتنحر روحها، وتأكل جسدها، وتشرب دمها، حتى إن الأرض مادت من تحتها واضطربتْ، وثقل عليها الإنسان بأوزاره وآثامه وسفكه للدماء وقتله للأبرياء، وكأنه بهذا الحضيض من السلوك، يريد أن يعلن مجافاته للعقول القوية الزاخرة بالمعاني الجديدة والأفكار البكر، وبهذا يعادي الحقيقة ويتحاشاها ولا

---

[٥٦] انظر: مقال "الإنسان الجديد"، فتح الله كولن (مجلة حراء، العدد:١١ / أبريل ٢٠٠٨).

يرغب بالتقائها، وحتى عندما يضطر إلى مراجعة رصيده الفكري، لا يفعل ذلك إلا لكونه يرغب بالنجاة من أضرار سلوكه المجافي للإنسانية، لا من السلوك نفسه الذي أودى به إلى هذا الحضيض التعيس.

فما لم ينتشل هذا الإنسان الوحشيُّ السلوكِ روحَه من سجنها السحيق، ويفتح أبواب عقله لمن يملك المداخل لكافة العقول، فلن يستطيع العلو بمداركه إلى آفاق الحقيقة التي تسعى العقول كلها للارتفاع إليها.

إن الكثير من "العتاقة" تفوح رائحة عتاقتها بين ما يسمّونه بصفوة المجتمعات، هذه الصفوة التي لم تتعلم -مع الأسف الشديد- كيف تعيش بالجانب الأعلى من وجودها الإنساني، ورضيت بالأدنى من هذا الوجود، فوقعت في خلل معيب؛ حيث اضطربت موازين هذا الوجود، فلم تتكامل وتتناغم عقولها ومشاعرها وغرائزها الجسدية واستشرافاتها الروحية، فعانت من جرّاء ذلك الخلل الشيءَ الكثير من التعاسات والإخفاقات، مما دفعها إلى الانحدار نحو دركات متدنية من همجيات جسدية وروحية وعقلية، وهي تحسب أنها طليعة المجتمع الساعي إلى الرقي والتقدم.

فالشباب المجددون، في قلق دائم لعزوف البعض عن اللحاق بتفوقهم الروحي والإنساني، وعلى الرغم من معرفتهم بأن الإنسان هو صنو الإنسان في سجاياه وفي طبيعة تكوينه الروحي والبايولوجي على حد سواء، غير أنهم لا يلومون الآخرين على هذا التقصير بقدر ما يلومون أنفسهم، إذ يعدُّون أنفسهم مذنبين لكونهم لم يكتشفوا بعدُ اللغة الحوارية التي تمكّنهم من الدخول إلى قلوب الآخرين وأرواحهم، وهذه اللغة هي ما يسعى هؤلاء المجدّدون إلى اكتشافها يومًا بعد يوم.

مدارس النور وبناء العقول

لا زال تحديث "عقل المسلم" وحفزِه لاستعادة قواه التفكيرية والاستيعابية لمتطلبات البناء الحضاري الجديد واحدًا من التحديات التي تواجه المفكرين وأصحاب الرأي عندنا.

فالمنظّرون لعملية التحديث هذه قد تتشعب بهم الأفكار، وتذهب بهم المذاهب في شتى الاتجاهات والمجتهدات، غير أن القضية ظلّت تتراوح في حدود "التنظير.. ولم تتجازوه إلى حيز التفعيل والتنفيذ.

ولا أكون مغاليًا إذا قلت: إنّ الأستاذ "فتح الله كولن" هو المنظر الذي اختطّ لعملية تحديث "عقل المسلم" الوسيلة الأقصر التي يمكن من خلالها تحديث هذا العقل، وذلك بتهيئة الحضانات والبؤر التي تساعده على معرفة ذاته، واستبطان قواه الفكرية، وهذه الحاضنات والبؤر إنما هي المدارس التي كان الأستاذ قد دعا النخبويين من الرأسماليين وأصحاب المال بالإنفاق على إنشائها في مختلف أنحاء العالم، على مستويات عالية، بأبنيتها وكوادرها التعليمية حيث استطاعت أن تكون عامل جذب واستقطاب لأذكى الطلبة وأشدّهم حرصًا على الإفادة والتعلم والتفوّق. ولكي نفهم الخلْفية الفكرية التي دفعَته إلى هذا الفعل الحضاري، علينا أن نعود إلى كتابه القيّم "ونحن نبني حضارتنا". فهذا الكتاب هو واحد من أجل ما وعته الكتابة المعاصرة وانطوت عليه من أسرار الروح والضمير، ومن أنصع الصفحات في تاريخ المعاني العليا التي ترفع صاحبها كواحد من رواد الروح الإنساني الذي لا تقوم الحضارات إلاّ به.

إنه هرم فكري وروحي يلفت الأنظار إلى أن الانبعاث الحضاري لن

يتمّ إلا بفاعلية روحية تتملّك الشعوب، وتحرك ساكنها، وتبتعث راكدها. إنّ هتافه الطفولي "لبّيك يا رسول الله" ظلّ ساريًا في فكره ومشاعره؛ فكتاباته وأحاديثه وخطبه ومواعظه إنما هي نضوحات عن تلك الهتفة المباركة. ولذلك العهد الذي قطعه على نفسه لرسوله عليه السلام ولنصرة دينه ودعوته وسنته، وقد سعى ويسعى لتوحيد العقول وتثقيفها وبنائها، ثم ربطها برباط الربانية.

ف "رجل القلب"، هذا المصطلح الذي كثيرًا ما يكرره في كتاباته، هو الذي يريد أنْ يبنيه في هذه المدارس، إلى جانب تلك المفاتيح التي تديرها المدرسة في عقل الطالب وفكره، ليتخرج منها بعد ذلك بروح يشرق عليه جمال القلب، وجلال الفكر، فيكون مبعث دفءٍ فكري وروحي للآخرين.

لقد رأينا من خرّيجي هذه المدارس شبابًا تتأجّج قواهم العقلية في إطار من وَميض روحي يكاد يخطف الأبصار، ويضيء الدياجي الدكناء.

وكم كنتُ محظوظًا عندما صحبني قريب من أقربائي إلى إحدى هذه المدارس التي افتتحت حديثًا في مدينتي، وأتيحت لي الفرصة لكي أزور صالات المدرسة وصفوفها، وأتعرّف عن كثب على أثاثها التي تكاد تضاهي أجمل الأثاث وأرقاها في أحدث مدارس العالم، فقد وجدت في هذه المدرسة من وسائل التعليم وأساليبه وطرقه ما لم أجده في أي مدرسة أخرى، كما أنّ عدد طلاب أي صف لا يزيد عن عشرين طالبًا أو خمسة وعشرين طالبًا.

أما المعلّمون فحرارة وجدانهم تشعرك بوقدة شعور طاهر تتلمس وجدانك، وتحرك مشاعرك... فكل شيء في هذه المدرسة ينبض بالجمال

ويستدعي الجمال.

فمعلّمو هذه المدارس لهم من القدرات التعليمية ما يستطيعون معها أن يجعلوا تلامذتهم يتذوقون رحيق العلم بنشوة المحب العاشق، فإذا بعقولهم تنبض بجمال المعرفة، كما أن نفوسهم تنبض بشعاعات من أرواحهم الصافية... وإنك لتلمس من هؤلاء الطلبة رقة الشعور، ودَمَاثة الخلق، وأدب السلوك، والثقة بالنفس، والتفاؤل، والتطلع إلى المستقبل.. إنهم بصائر نَفّاذة، وأذهان ثقّابة، وهم مرشّحون ليكونوا في مستقبل الأيام عونًا على تثقيف عقل المسلم وتحديثه والاعتلاء به إلى مصاف أرقى العقول، وأعظم النفوس.

مدارس كونية الآفاق

يتعلم تلامذة مدارس النور المنتشرة في العديد من أقطار العالم، والمعتمدةُ أفكارَ الأستاذ "فتح الله كولن" في التربية والتعليم... يتعلم هؤلاء التلاميذ أولَ ما يتعلمون، أنَّ للكون عقلا، وأنَّ لهذا العقل أفكارًا، وأنه يومض بهذه الأفكار ومضات متتالية، ويبرق بروقًا دائمات، ويومئ إيماءات، ويُشَفِّر شفرات، فتتلقفها العقول البشرية الذكية، وتنكبُّ على حَلِّ رموزها، وفكِّ أسرارها، والتعرُّف على معانيها ومقاصدها، فتتعلم منها، وتأخذ عنها، وتستولد منها الأفكار، وتنشئ العلوم، وتقيم المدنيات والحضارات.

فكل الحضارات التي نشأت فوق هذه الأرض إنما هي نتاج تفاعل جدلي بين عقل الإنسان وعقل الكون، فنبضات هذا العقل تخترق أقطار النفس البشرية، وأغوارها الروحية، وكأنه يدعونا ليطلعنا على صور متتابعة لا ينقطع تتابعها من قوة الله تعالى وعظمته وأسراره في خلقه.

فمن أهم مهام هذه المدارس الفريدة في نوعها، بناء جسور فكرية دائمة بين عقل التلميذ وعقل الكون، من خلال ما يتلقاه من مختلف العلوم ذات الجذور الكونية الطبيعية، وهي تنشئ في التلميذ بصيرة نافذة وعقلا بحثيًا استقرائيًا، واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليكون في وسعه فتح أغلاق الخزائن في الكون والطبيعة والإنسان، والولوج إلى أسرار دفائنها، ودخائل تراكيبها، وبواطن أبنيتها.

فكما تنشئ هذه المدارس في تلامذتها عقولا كونية، غير أنها في الوقت نفسه تعمل على تعريف التلميذ على ما يحتويه من قوى نائمة

تشكل الجانب الأعظم من قواه الفكرية والنفسية، فتعمل على إيقاظها وتفعيلها واستخدامها مع قواه الظاهرة في بناء مستقبله الثقافي والفكري. فقد بقينا زمنًا طويلا نعاني من تسلط العقول الكبيرة على ما في عقولنا من ضعف وخلل، ومن هنا كان بناء العقول الكبيرة والقوية من أولويات هذه المدارس بحيث تمنع أي تسلط يقع عليها أيًا كان.

ومما يحمد لهذه المدارس سعيها إلى دحض ما ترسب في قرارة تلامذتنا من شعور بالنقص والدونية إزاء الإمكانات العقلية التي يمتلكها تلامذة الغرب، وهو وهْمٌ تحاول هذه المدارس إبطاله.

فالعقل البشري -كما ترى هذه المدارس- مُصَمَّمٌ من قبل الخالق جل شأنه لاستقبال الإشارات الماورائية الحافزة للبحث عن حقائق الأشياء وسبر أغوار الظواهر الوجودية وإمعان النظر فيها. الأمر الذي ينتهي في التلميذ إلى بناء بصيرة نافذة وعقل بحثي استقرائي واسع الإدراك، شمولي الاستيعاب، ليمارس هذه الاستعدادات الذهنية في أبحاثه العلمية والفكرية في مغاليق الكون والطبيعة والإنسان.

فتلميذ هذه المدارس سيلمس وهو يرتقي من صَفٍّ إلى صفٍّ فوقه، أن العقل الذي في رأسه له من الأبعاد والفضاءات مثل أبعاد الكون وفضاءاته. وأنه بقدر امتداد عقله في الأشياء تتكشف له هذه الأبعاد والفضاءات أطباقًا من فوق أطباق، فلا يدري ومن حقه أن يتساءل: "هل الكون خُلِق على مثال العقل، أم العقل خلق على مثال الكون...؟! أو أنهما ينبوعان عظيمان تتدفق منهما الأشياء وإليهما تعود...؟!".

وإنَّ ممَّا يلفت النظر ويثير العجب في خريج هذه المدارس هو هذا التوافق والتواؤم بين ما يمتلكه من روحية عالية مرهفة، وعلمية آفاقية

جامعة، فنحن هنا بإزاء روحية علمية، أو إن شئت قلتَ علمية روحية، وهذا النموذج من خريجي هذه المدارس يوجِّه صفعة قوية لمَنْ يرى أن "الروح" و"العلم" نقيضان لا يلتقيان ولا يجتمعان في إهاب إنسان.

فالروحية العلمية، أو العلمية الروحية، تتجسَّم أحسنَ ما تتجسم في تلامذة "مدراس النور" كما يؤكد ذلك جَمٌّ غفير مِمَّنْ شاهد عن قرب هؤلاء التلاميذ في مدارسهم أو بيوتهم أو في أماكن أعمالهم.

وهذه "الروحية العلمية" هي أُسُّ أساس فلسفة "كولن" في التربية والتعليم، وهي المقصد الأساس من إنشاء هذه المدارس.. فخريج هذه المدارس كبير الثقة بنفسه، لا يشكو من كآبة الانفصام عن عصره. فهو في مزاج تفاؤلي دائم بالحياة يجعله يحياها بأبعادها كلها دون أي إحساس بالتخلف عن روح عصره.

إنّ أسوأ شيء تعاني منه شعوبنا اليوم، هو ضعف شعورها بحقيقة وجودها، أو بالأحرى بأحقية هذا الوجود، فهي موجودة وغير موجودة، حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، حتى إننا لم نَرَ جدوى من التفكير في الحفاظ على هذا الوجود الشبحي، ولم نجد دافعًا قويًا يدفعنا إليه، فترَكنا للآخرين مهمّة التفكير لنا، وانطوينا على أنفسنا في انكفاء إحباطي نعاني النفي خارج دائرة العقل، وقالوا لنا: "أنتم لا تحسنون التفكير فدعونا نفكر لكم..!"، ففكروا لنا كما يريدون لنا أن نكون لا كما نريد نحن أن نكون. وأجلسونا على مقاعد التعلم كتلاميذة قُصَّر نتلقى منهم الأفكار التي يريدون زرعها في عقولنا، وربطوا هذه العقول بأنظمة تكرس لمزيد من الخمول العقلي والإحباط النفسي. لقد أرادوا لنا أن نمارس عملية انفصال رهيب عن تاريخنا الروحي، وعطلوا قوانا الإدراكية بالماضي والمستقبل،

ومارسوا معنا إرهابًا فكريًّا جعلنا نخاف من وجودنا الأعلى، وجمدوا فينا الإحساس بالعقل الجمعي الذي نؤوي إليه في الملمات، وملأوا عقولنا بفراغات هائلة نظل نعوم فيها فلا نصل بعد الجهد الجهيد إلى شيء، وظل الرعب من الفراغ المجهول يقض مضاجعنا، ويقذف بنا على شفا جرف حاد من هاوية الهلاك... فكان حصيلة هذا كله خيالا مريضًا تعكسه عقلية متعبة منهوكة تعاني الحيرة والضلال في شعاب العقول... لقد حملنا جوعنا الروحي وذهبنا في أبعاد الأرض ورجعنا من هذه الرحلة المشؤومة بمزيد من جوع الروح، وبمزيد من ضلال العقل...!

إننا ونحن نعيش هذه الإحباطات لنتجه بآمالنا إلى هذه المدارس النورانية وإلى خرّيجيها من أصحاب القلوب السماوية والعقول الكونية ليقودوا سفينة الحياة في هذا الخضمّ الطامي من الأفكار والمعتقدات... وإننا على ثقة بأنهم سيكونون دائمًا عند حسن الظن، وحسن الأمل والرجاء.